رواية

فندق مهرجان

روبير سوليه

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2017 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017

المكلّس، بناية أنطوان

ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان

info@hachette-antoine.com

www.hachette-antoine.com

facebook.com/HachetteAntoine

instagram.com/HachetteAntoine

twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **©Michael Nelson / Trevillion Images**

تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

تحرير ومتابعة نشر: **ناتالي الخوري**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-608-8

ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-264-6

Titre original:

Hôtel Mahrajane

Éditions du Seuil, 2015©

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d’aide à la publication de l’Institut Français.

1

قرابة الرابعة بعد الظهر، تسلّل نسيم عليل آتٍ من البحر بين أشجار النخيل، وداعب جدران فندق مهرجان البيضاء معلنًا انتهاء خمول القيلولة. خرج الهرّ ذو القوائم الثلاث من مخبأه، وسار يعرج في الهواء الطلق. إنبعث من أقصى الحديقة صوت كالأنين، ربّما كان لمضخّة ماء، أو ربّما للعلم المعدنيّ الصغير فوق الشرفة، الذي تميل به هبّات الهواء الدافئ يمنةً ويسرةً. كان ثمة بستانيّ حافي القدمين ويعتمر قلنسوةً، يمدّ خرطوم الريّ ويرشّ البلاط بالماء ليطفئ لهيب الظهيرة. في الفندق، انفتحت نافذة، ثم أخرى، ثم ثالثة. سُمعت أصوات وقهقهات وضجيج أنابيب. كان فندق مهرجان يستفيق، والحياة تدبّ في طبقاته كلّها، وسْطَ جلبةٍ من البهجة والفرح.

حوّل مجتمع «ناري» الراقي ذلك الفندق الى نادٍ خاصّ به. كان أفراده يقصدونه للغداء أو للعشاء، أو لشرب الشاي، مستمتعين بمسبحه وشاطئه الخاصّ وملعبَي كرة المضرب. كما خُصِّصت للاعبي البريدج بعض الطاولات في جناح الفندق الأكثر هدوءًا. في الصيف كان مهرجان يستقبل بورجوازيّين من العاصمة يلجأون إلى شاطئ البحر هربًا من حرّ الصيف. أمّا في بقيّة فصول السنة، فيؤمّ الفندقَ سيّاح أجانب يتّخذون من ناري محطةً لهم مرّتين: الأولى، عند نزولهم من السفينة، قبل الشروع بزيارة المواقع الأثريّة داخل البلد. والثانية، وهي الأطول، عند انتهاء إقامتهم، حيث يريحون أقدامهم المتعبة ويستعيدون ما فاتهم من ساعات نومٍ، قبل العودة إلى أوروبّا وأميركا.

لم يكن في المدينة وضواحيها الكثير من الأماكن المهمّة التي تستحقّ عناء الزيارة، ما خلا الحصن العربيّ، والمعبد الإغريقيّ الصغير الذي هُدم معظمه، والذي كُرِّس الموقع السياحيّ الأوّل والوحيد لعدم وجود معالم أثريّة أخرى في المدينة. كان السيّاح يمضون فيه وقتًا لا يستحقّه، ويجهدون في أن ينسبوا إليه ألف سبب للزيارة، وكأنّما ليبرّروا إقامتهم في ناري.

كان خالي حبيب يغمغم وهو يهزّ رأسه قائلًا:

– هؤلاء الأجانب سيثيرون استغرابي دائمًا.

على الرغم من ضآلة مواقعها الأثرية، كانت ناري تتمتّع بسحر خاص، يشعر به السياح من دون أن يتمكّنوا من التعبير عنه.

– إنّه الهواء الذي نستنشقه، قال هولنديّ مرّ بالمدينة، غير قادر على شرح ما كان يجول في خاطره.

لتعذّر وجود وصف أفضل، لقّبت المدينة بـ«باريس الصغيرة». وهناك مَن قلَبَ هذا الوصف بقوله: «لو كان لباريس بحر، لكانت ناري صغيرة».

مع اقتراب موعد الشاي، أخذ الخدم يخرجون من الطابق الأوسط الواحد تلو الآخر عبر ستارة من اللآلئ تتراقص عند مرورهم، وراحوا يتنقّلون بين الموائد بأثوابهم الخضراء ذات الأزرار المصنوعة من الخيطان المجدولة، والمتدلّية عموديًّا من عنق الثوب حتّى الأرض، وكأنّهم جوقة راقصة مضبوطة بدقّة. كانت كلّ مائدة جديرةً بوردة موضوعة في إناء شفّاف طويل وضيّق. في المساء، كانت الورود تُستبدَل بمصابيح تغطّيها ظلل صغيرة مخرّمة بنجوم تتَّخذ شكل الثريّا.

إصطفّ أصحاب الجلابيب الخضراء، واحدًا من كلّ جهة، ليجرِّدوا البيانو من غطائه القماشيّ السميك. رفعوه بكلّ رفق ثمَّ طووه بعناية. بانت الآلة الموسيقيّة بلونها الأسود اللمّاع، وقد زادت من بريقه خرقة صوفيّة مسحت غباره بحنان.

وقف السيّد ليفي-حنّور ببزّة مقلّمة، لا تشوبها شائبة واحدة، مشدودة إلى جسده المستقيم كالرمح، يراقب تلك الرقصة من طرف الشرفة وهو يملّس شاربيه الدقيقين. كانوا يسمّونه «المدير»، لكنّ ابن الثمانية والأربعين عامًا كان أيضًا صاحب فندق مهرجان.

بدأت طلائع الزبائن بالتوافد. كانت السيّدات الفرحات بتأبّط أذرع رجالهنّ يتعثّرن بأحذيتهنّ العالية الكعب فوق حصى المدخل. كان المدير ينحني بأناقة، والخدم يهرعون.

كان شلومو عازف البيانو، وهو رجل في الأربعين من عمره يرتدي سترة بيضاء مجعّدة، قد جلس إلى بيانو ال-«بلايل» وانهمك بضبط مقعده الذي لم ينجح يومًا في جعله على الارتفاع المناسب. بعد ذلك جلس لا يتحرّك طوال دقيقة بأكملها، وبابتسامة ضاعت في تلك السماء الصافية، بدأ يعزف بهدوء النوطات الأولى من مقطوعة «الدانوب الأزرق»، أو «لذّة الحبّ»، التي سرعان ما رافقها قرع الملاعق على الفناجين، ورنين ضحكات السيّدات.

حوالي الساعة السادسة، بدأ معظم الزبائن يغادرون مقاعدهم الوثيرة متّجهين إلى شرفة الطابق الأوّل المطلّة على البحر، لإلقاء التحيّة على شمس الأصيل الحمراء، التي غلبها النعاس. خرجت نيسا ليفي-حنّور الجميلة من غرفتها كالعادة لتنضمّ إليهم. وكالعادة، أثارت إعجاب الجميع بأناقتها وحُليّها وأساورها... أقبل الرجال يلثمون يديها السمراوين الطويلتين. لا شكّ بأنّهم في سرّهم كانوا يحسدون المدير على زواجه بامرأة فاتنة كهذه، تصغره بعشر سنوات.

بابتسامة مشرقة، تقدّمت سيّدة المنزل ذلك الموكب المسائي إلى الشرفة. في الخارج كان الخدم قد انتهوا من وضع أطباق المازة حول المصابيح ذات النجوم. عاد شلومو من البار وبيده كأس من الويسكي، وضعها على زاوية البيانو، وأعاد شدّ براغي مقعده. صدحت الموسيقى بقوّة بعدما عبرت أصابعه لوحة مفاتيح البيانو بسرعة، قبل أن ينتقل إلى مقطوعة أخرى أكثر هدوءًا، معلنًا بداية الأمسية.

لم يكن دخول فندق مهرجان متاحًا لكلّ من يرغب في ذلك، فأسعار المشروبات فيه كانت تثبط عزيمة أصحاب الدخل المحدود، لأنّ ثمن كوب من الجعة أو عصير المانغو أو الجوافة يبلغ ثلاثة أضعاف الكوب عينه في مقهى أنطونياديس في المرفأ.

كان أبي يقول:

– في مقهى أنطونياديس، أُعامَل كالباشا. حالما أُشير بإصبعي يسرع إليّ النادل وينحني أمامي. يكفي أن أناوله قطعة نقديّة زهيدة حتّى يتشقلب كالبهلوان. فلماذا أذهب إلى فندق مهرجان وأُزعج نفسي بالجلوس على مقاعده الحديديّة القاسية؟

كان الباشا يتناسى عمدًا أنّ تلك المقاعد مغطّاة بوسائد ناعمة، فهو يخشى الدخول إلى عالم يتجاوز طاقته الماليّة، حيث قد يُنظر إليه شزرًا. غير أنّ ذلك لم يمنعه يومًا من أن يردّ بفخر على زملائه في شركة «المستودعات» الذين كانوا يسألونه عمّا إذا كان منزله يطلّ على البحر:

– كلّا، منزلي يطلّ على فندق مهرجان!.

كان بكلامه هذا يقول نصف الحقيقة. من شرفة الطابق الثالث في مبنانا الصغير، نرى فعلًا أشجار الأوكاليبتوس الكبيرة التي تحدّ حديقة الفندق. لكنّ رؤية درجات المدخل كانت مستحيلة، حتى بواسطة التلسكوب.

طبعًا لم يكن بوسعنا أن نرى مسبح الفندق الذي كان، بانعكاس النور على صفحة مياهه، يشبه بحيرة

حالمة، وبحجمه يشبه مسبحًا أولمبيًّا. ذلك المسبح، الذي لطالما انتزع صيحات الإعجاب من الروّاد الجدد، لم نكنْ لنراه إلّا في صور البطاقات البريديّة المعروضة للبيع في شارع الفنار. ليس كغيره من المسابح محاطًا بكراسٍ طويلة ورخيصة، بل بكراسٍ تشبه الأسرّة، مصنوعة من خشب الصفصاف، ويمكن تعديل انحنائها كما يرغب المستحِمُّ. كان المستحمّون في الماء العذب ينتمون إلى عالم يختلف عن عالمنا كل الاختلاف. أمّا أنا وأشقّائي فما كنّا نعرف غير البحر حيث تعلّمنا السباحة. كان أبي يقول لنا مؤاسيًا، لعدم تمكنّنا من الدخول إلى مسبح الزوجين ليفي-حنّور:

– على أيّة حال، اليود أفضل من الكلور!

لماذا اعتمد حاييم ليفي، الذي ورث الفندق عن والد زوجته، إيلي حنّور، هذا الاسم المركّب من كلمتين؟ «لكي يكون وقعه اليهوديّ أخفّ»، تقول أمّي، مضيفةً:

– هل تعلم أنّ اليهود باتوا يُجرون اليوم عمليّات تجميل لأنوفهم؟

كنت أنظر إلى نفسي في المرآة، بحثًا عن ذلك الاختلاف الكبير بين أنوف اليهود وأنوفنا...

غالبًا ما سمعتُ الناس يقولون:

– يا لهؤلاء اليهود!

في عبارة التعجّب هذه، كان ثمة مقدارٌ من الإعجاب مساوٍ لما فيها من غيرةٍ وحسد. نجاح يهود ناري المثير للغيظ أثار في عائلاتنا مشاعر متناقضة. كان هؤلاء الناس الأوائل على الدوام، ودومًا في الطليعة. ألم يكونوا مدراء «مصرف الاعتماد الأشوريّ»، و«مخازن داغاليك الكبرى»، وعدّة متاجر للمجوهرات في شارع الفنار، علاوةً على فندق مهرجان؟ حتّى في المدرسة كانوا يحصدون الأوسمة والجوائز الأولى. باختصار، كان الشعب المختار يثير إعجابنا.

كانت عمّتي جورجينا تسأل بصوت أجشّ:

– قلْ لي من فضلك، من الذي اختارهم؟ على حدّ علمي لم تُجرَ أيّ انتخابات.

ولكن في النهاية، كان لكلّ شخص في ناري موقعه، يحترمه ويتكيّف معه. فيما كان السيّد ليفي-حنّور وزبائنه ينعمون بفيء المظلّات ذات الشرّابات، كنّا نحن أيضًا نستمتع بأوقاتنا في الجهة الأخرى من الفاصل الحديديّ الممتدّ بعيدًا في البحر. كان البحر هو عينه، كما أنّ يهود ناري لم يكونوا كلّهم ليسبحوا في جهة واحدة. عرفت الكثير من اللواتي يحملنَ اسم دينا أو رودي! غالبًا ما لمست يدي ذراعهنّ عَرَضًا وكم حلمت بنهودهنّ الفتيّة، قبل أن أقفز من الصخرة الكبيرة إلى البحر. لقد بدت أولئك اليهوديّات المثيرات مختلفات عنّا. هل كُنَّ أكثر تحررًا، أو أكثر عدائيّة؟ أم أنّهنّ رُسمنَ بصورة مختلفة عن شقيقاتنا ونسيباتنا، بأزهار مجهولة تحت ملابس السباحة؟ ومتى عدْنَ إلى منازلهنّ، أولئك المختلفات عنّا، ماذا يفعلنَ؟ كيف ينَمْنَ؟ كم رغبتُ في التحوّل إلى رجلٍ خفيٍّ لكي أجتاز جدران غرف نومهنّ قبيل الفجر وأتأمّل رموشهنّ الغافية.

2

من بين أفراد عائلتنا، لم يكن يرتاد فندق مهرجان سوى خالي فايز وزوجته. كانا لا يكفّان عن تذكيرنا بذلك، أثناء تناول الغداء أيام الأحد، وبفخر واعتزاز مُثيرين للاشمئزاز:

– ليفي-حنّور طلب سجّادة جديدة للصالون الإنكليزيّ... وسيأمر بغرس عشر أشجار من النخيل المَلَكيّ...

فايز هذا كان الأكبر سنًّا بين أخوالي، وقد نجح في الارتقاء إلى مرتبة أعلى من طبقة البورجوازيّة الصغيرة التي ننتمي إليها في ناري. كان واحدًا من مسؤولي فرع الشؤون القانونيّة في «الاعتماد الأشوريّ»، ما جعله على صلة ببعض الأشخاص ذوي النفوذ. وإلى راتبه الكبير تُضاف المداخيل العقاريّة الخاصّة بزوجته التي ورثت شقّتين في شارع الفنار. كان الزوجان يلعبان البريدج في مهرجان مع بعض أعيان المدينة من المسلمين والمسيحيّين واليهود: الحواجز الدينيّة تسقط بسهولة بين الأثرياء. كان أحد شركاء خالي فايز يعيش وزوجته بفضل عائدات ممتلكاته. هو مسلم رفيع الذوق، من كبار هواة الأوبرا ومن أصحاب الأسماء الطويلة المتشعّبة التي طالما أثارت رهبتي: سعد عبد الحميد السيّد. كان يُنظر إليه على أنّه من سلالة النبيّ محمّد. لكنّ ذلك لم يمنعه من الاستمتاع بالمشروبات الروحيّة الفاخرة. حالما يدخل الصالون الإنكليزيّ في فندق مهرجان، يهرع الساقي إليه ويقدّم له كأسًا من البوربون الذهبيّ المعتّق عشر سنوات. وبرغم وجود صهريَه في دوائر السلطة، كان هذا الرجل الإبيكوريّ لا يجد غَضاضة في التعبير علنًا عن أسفه على زوال حسنات النظام السابق. كان خالي فايز يكتفي بتسميته «السيّد»، موحيًا بأنّه وإيّاه في منزلة واحدة.

كانت التلميحات إلى حلقات البريدج تنجح دائمًا في إثارة استياء أبي، الذي لا يفقه شيئًا في المصطلحات الخاصّة باللعبة كالأوراق الأقوى، أو الرمي للصدّ، أو الدورات، لدرجة أنّه كان يفضّل الاستماع إلى تبجّحات شقيق زوجته.

كان فايز يسأل:

– هل تعلمون كم كيلوغرامًا من السكّر استهلك فندق مهرجان العام الماضي؟

عندما يُجيب الحاضرون برقم ما، وهو ليس الصحيح طبعًا، يقهقه قبل أن يدلي بالإجابة الصحيحة، التي استقاها من مصدر موثوق. مَن غير السيّد ليفي-حنّور يمكنه أن يكشف له وبمثل تلك الدقّة طلبيّات مطعم الفندق من السكّر أو اللحم؟ أو عدد المناشف أو الشراشف أو أغطية الوسائد التي نظّفتها المصبغة؟ بالمقابل، إذا ما سُئل خالنا عن مداخيل مهرجان أو أرباحه، ترتسم على وجهه إمارات الغموض وكأنّه مؤتمن على سرّ. الواقع أنّ معرفة فايز بمدير الفندق وصاحبه تعود إلى حين كان هذا الأخير موظّفا في المصرف، ويُدعى ليفي فقط.

أمّا لوقا، الأصغر بين أخوالي، فكان يدخل فندق مهرجان أيضًا، ولكن في غير ساعات الذروة، وعبر باب الخدمة. كان يدير متجرًا متواضعًا للمشروبات، ويتولّى بنفسه تسليم صناديق البيرة أو المشروبات الغازيّة إلى الفندق، مستغلًّا الفرصة ليلقي التحيّة على أحد معارفه، محاسب الفندق آري مالوميان؛ أرمنيّ قصير القامة وسمين، يحتسب الأرقام في مكتب يقع في الطابق الأوسط. كان خالي فايز يقول بلهجة احتقار:

– مالوميان هذا ليس في مستوى فندق مهرجان. ولا أفهم لماذا يستخدمه ليفي-حنّور.

يجب الاعتراف بأنّ مظهر ذلك الأرمنيّ، بستراته الواسعة وسراويله المفرطة الطول وربطات عنقه

المقلّمة التي يعقدها فوق قمصانه ذات المربّعات، لم يكن بمستوى منصبه. كما أنّ زوجته البدينة والمسؤولة عن اختيار ملابسه، لم تكن تفوقه ذوقًا. فهي على ما يبدو، لا تنتمي إلى الجنس الذي تنتمي إليه نيسا ليفي-حنّور، تلك الحسناء الساحرة، والتي كان جمالها يبهرني حتى ولو أنّني لم أرَها وجهًا لوجه.

كان كلٌّ من أخوالي الثلاثة، فايز وحبيب ولوقا، يبلغ مئة وثمانين سنتمترًا من الطول. لكنّ ذلك كان القاسم المشترك الوحيد تقريبًا بينهم.

كان كبيرهم فايز شديد الغيرة على منزلة الابن البكر ولا يتخلّى عنها حتى ولو مقابل مئة طنّ من العدس. على الرغم من أنّه كان مجرّد مراهق عند وفاة والدهم، سرعان ما فرض نفسه رئيسًا على العائلة، مطالبًا شقيقيه وشقيقته بأن يقدّموا إليه كلّ أسبوع دفتر علاماتهم المدرسيّة. كان تلميذًا موهوبًا، فلم يلقَ أيّ صعوبة في نيل إجازة الحقوق، ليدخل بعد ذلك «الاعتماد الأشوريّ»، حيث تمكّن بفضل طموحه الكبير وعمله المتقن أن يرتقي بسرعة في سلّم الوظيفة. سمح له زواجه «الناجح اجتماعيًّا» بحياة رغيدة تتجاوز مستوى قدراته الماليّة الخاصّة. كان رياضيًّا وأنيقًا، يهتمّ بملابسه فلا يرتدي إلّا الأقمشة الإنكليزيّة التي يعهد بها إلى أفضل خيّاطي المدينة. لطالما أعجبتني أناقته المميّزة.

أمّا حبيب فقد ترك دراسته ليعمل أمين مخزن في «مستودعات الشرق». وعند تلك النقطة توقّف مستقبله المهنيّ، إذا جاز التعبير. كان محطّ تقدير الجميع لأنّه لا يشكّل تهديدًا لأحد. ببزّاته الداكنة وربطة عنقه السوداء، يعطي الانطباع بأنّه يقوم بواجب تعزية كلّ يوم. كان حبيب رجل عادات، إن لم نقل رجل روتين رتيب. أيّامه مضبوطة تمامًا كمقطوعات الموسيقى: يخرج من منزله عند السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين، ليعود إليه عند تمام السادسة مساءً، بعد مشوار على الكورنيش. نزهته الصحيّة اليوميّة تلك، كانت تتخلّلها محطّة قصيرة في مقهى أنطونياديس لإلقاء التحيّة على لاعبي الدومينو. كانت زوجة خالي حبيب تقدّر فيه دقّته ومثابرته، غير أنّ الغياب التامّ للأهواء والرغبات لديه كان يُحبطها، لدرجة أنّ جملة – مبتكرة بلا شكّ – قد نُسبت إليها: «مع حبيب، ما من مفاجآت أبدًا، لا سارّة ولا سيّئة. أكاد أتمنّى أحيانًا لو أنّه يخونني».

وأخيرًا لوقا، صغير أخوالي. كان أسمر البشرة كشقيقيه، غير أنّ عينيه الصافيتين وملابسه المهملة كانت لتميّزه عنهم على الفور. بات مختلفًا بعض الشيء، في عامه الأربعين، عن ذلك الفتى اليافع الذي اكتشفته في الألبوم العائليّ: في لباس سباحة أسود ملتصق بصدره البارز العضلات، يعود إلى ما قبل الحرب العالميّة، أو على صهوة حصان في الصحراء، ممسكًا اللجام بكلّ ثقة، وكذلك ببزّة سموكينغ رسميّة بيضاء في حفلة ترفة، يشبه فيها روك هادسون أو كاري غرانت... إكتسب جسده بعض السمنة، وكذلك وجهه، لكنّ تلك الكيلوغرامات الإضافيّة كانت لتضفي عليه المزيد من الكاريسما. كان لوقا خالنا المفضّل، والوحيد الذي يفهم ألعابنا ويتسامح مع انحرافاتنا، كما كان الوحيد الذي لم يُرزق أولادًا. كنّا نعشق استفزازاته، وأحكامه الجارحة والنوادر اللاذعة التي تتّصف بها حكاياته.

هل كانت عزوبيّته ما قرَّبه من أبناء وبنات أشقّائه وشقيقته؟ كان يحبّ صحبتنا، يسألنا رأينا وبدا أنّه يأخذه على محمل الجدّ. كنّا نصبح في عيدٍ حالما نراه قادمًا، لاهثًا بشدّة ويداه مليئتان بالأطايب، فنهبّ لاستقباله بالضحك والصياح. ثمّ ما يلبث أن يسترخي على أريكة، ويطلب شرابًا مثلّجا نتهافت إلى تقديمه، ونحن نتحلّق حوله ونمطره بالأسئلة.

كان لوقا بمثابة وكالة أنباء متنقّلة: يعرف كلّ شيء قبل الجميع، أو أقلّه يوحي بذلك. كما كان راويًا لا يُضاهى، قادرًا بقصصه الخياليّة على أن يشدّ انتباه حتّى المستمعين الأكثر تشكيكًا. بالنسبة إليه مثلًا، كان السيّد ليفي-حنّور مغفّلًا لا فضل له سوى أنّه ورث مهرجان عن حميه، فيما هو لا يفقه شيئًا في

إدارة الفنادق. كان يقول ذلك بحماس شديد وبطرافة مميّزة لدرجة أنّنا ننتهي بتصديقه. وكان هذا النوع من الملاحظات يثير سخط شقيقه فايز، فيردّ صائحًا:

– من أنت لتتكلّم على هذا النحو؟ ما أدراك بإدارة الفنادق؟ ليتني أراك على رأس مؤسّسة بهذه الأهمّية!

أمّا زوجة فايز فكانت تزمّ شفتيها ولا تنبس بكلمة. لكنّنا كنّا نشعر بأنّ أقوال شقيق زوجها الجارحة تثير حنقها الشديد، فيتكهرب الجوّ، ويهدّد الخطر أجواء وليمة يوم الأحد. حينذاك يتدخّل خالي حبيب ليروي لنا حكاية حول قضايا مكتبه لا تثير اهتمام أحد. وما لم ينجح في تغيير مجرى الحديث، تدعو ربّة المنزل المضيف، أي أمّي أو إحدى عمّاتي، الضيوف للجلوس إلى المائدة أو تحضّهم على صبّ طبق ثانٍ لأنّه «يجدر ألّا يبقى ولا حتّى كسرة واحدة».

كان لوقا العازب مرتبطًا بعلاقة غير جدّية مع خيّاطة في حيّ المرفأ تدعى ييلينا. إنّما، نادرًا ما شوهدا معًا. في أيّ حال، كان كلٌّ منهما يعيش على حدة. فالعائلة لم تستقبل «القبرصيّة» قطّ. تظاهرت أمّي بتجاهل هذه العلاقة التي لم تكن تكره طابعها غير الشرعيّ وحسب، بل وأيضًا تتّهم ييلينا بعيب آخر: صحيح أنّها كانت مسيحيّة إلّا أنّها من الطائفة الأورثوذكسيّة. أن يفكّر لوقا في الزواج بها...

لا بدّ من القول بأنّ صفة «المدينة الكوسموبوليتية الجامعة» التي أُطلقت على ناري كانت تقف عند حدود معيّنة. بين أبناء المدينة الأصليّين والأجانب والمندمجين فيها، كما بين المسلمين واليهود والمسيحيّين من شتّى الطوائف، يمكن إقامة صداقات، شراكات، ويمكن أيضًا الدرس والعمل والمرح معًا، ولكن... لا يمكن الذهاب إلى ما هو أبعد. ما خلا بعض الاستثناءات النادرة التي عادةً ما تهدّد بالمآسي، كان هامش الاختلاط يقف عاجزًا عند قاعدة السرير الزوجيّ. نحن كاثوليكيّون، أمّا تلك القبرصيّة فغير كاثوليكيّة.

كيف نقولها...؟ في هذه المدينة المجزّأة والمختلطة جدًّا في الوقت عينه، كنّا نعيش كالجيران. ومع أنّ كلّ طائفة تملك مستشفاها وجمعيّتها الخيريّة، فإنّ أمورًا كثيرة بقيت مشتركة على مستوى كلّ طبقة من طبقات المجتمع: الأغنياء مع الأغنياء، والفقراء مع الفقراء... هناك الشاطئ الخاصّ بفندق مهرجان، والشاطئ الخاضع لرسم الدخول الذي نرتاده نحن، والشاطئ العموميّ الذي لم يفد من أيّ مشروع تحسين. في الواقع، الانشقاق العموديّ بين الطوائف يعوّضه تلاقٍ مدنيّ اجتماعيّ أفقيّ. خير مثال؟ بيت الدعارة في شارع الدبّور. في هذا الممرّ الضيّق والمتاح للجميع، كان منزلان حقيران بشُرفات متداعية يتّصلان بواسطة معبر حديديّ صغير. كان المرور باتّجاه واحد، فيدخل المرء من باب، يدفع المال، يفعل فعلته، ثمّ يخرج من الباب الآخر، من دون أن يضطرّ الى إلقاء التحيّة على أحد. كان بعض أنسبائنا والأكبر منّا سنًّا، وشبّان آخرون من كلّ الانتماءات، يذهبون للترويح عن أنفسهم في شارع الدبّور مع نساء مالطيّات بدينات يستقبلنهم بأسعار مغرية، على ما يبدو.

كانت أرصفة ناري تعبق بنسائم روائح لحم الغنم المشويّ. في متجر البقالة اليونانيّ الكبير حيث نذهب للتموّن، تستقبل الزبائن براميل عابقة برائحة الزيتون الأخّاذة. على الرصيف المقابل، سمكة مجفّفة يعرضها بائع أرمنيّ يسيل لها لُعاب المارّة، تنافسها في ذلك أكوام البهارات المعروضة في متجر قريب. كانت ناري مدينة عاملة، يحيي يوميّاتها النجّارون والسمكريّون والباعة المتجوّلون وجلّاخو السكاكين؛ مدينة صراخ وأبواق سيّارات ونباح. خمس مرّات كلّ يوم كان المؤذّن يذكّرنا بأنّ الله أكبر، فتجيبه أجراس الكنائس، وسط صرير العربات، وضربات السياط، وضجيج درّاجات الفيسبا النارية. أمّا فندق مهرجان البعيد عن الشوارع التجاريّة، فكان بمنأى عن كلّ ذلك الصخب.

في زاوية أخبار المجتمع، تقدّم جريدة ناري وصفًا دقيقًا للسهرات الراقصة التي تُقام في الفندق

مرّتين سنويًّا. كانت تلك الجريدة الناطقة بالفرنسيّة، والتي تقرأها والدتي من السطر الأوّل حتّى السطر الأخير، ملكًا لرجل إيطاليّ. أمّا أبي فما كان بوسعه الاستغناء عن إحدى الجرائد العربيّة الثلاث. فضلًا عن ذلك، تصدر في المدينة جريدة ناطقة باليونانيّة، وأخرى بالأرمنيّة. لم تكن أيّة لغة غريبة تمامًا عن أهل المدينة. كان كلّ شخص يسرق، بدون أن يلاحظ حتّى، كلمات من جيرانه ويضيفها إلى مفرداته الخاصّة. وتساهم لكنة موسيقيّة غنّاء يتشاطرها الجميع، في تخفيف الفروقات بين اللغات.

لم يكن في ناري مكان يُعرف بوسط المدينة، فمكان كهذا لا يتلاءم مع فسيفساء سكّانها. ما معنى الكنيس بالنسبة إلى مسيحيّ أو الجامع الكبير بالنسبة إلى يهوديّ، سوى وسط يخصّ الآخرين، ونقيض لوسطه الخاصّ؟

3

يقوم أبو عمر، سائق فندق مهرجان العجوز، وبصورة منتظمة، برحلة مكّوكيّة بين المرفأ والفندق ومحطّة القطارات، يواكبه حمّال أمتعة. يقود سيّارة بويك بيضاء وزرقاء، من طراز الـ1936، لها بوق متواضع يكاد لا يُسمع صوته، الأمر الذي يثير الاستغراب بالنسبة الى سيّارة بهذه الأُبَّهة.

سيّارة الليموزين هذه، العائدة إلى زمن غابر، والتي رُكّبت على رفرفيها عجلتا طوارئ، لا تحمل حرف الـ«ميم» الذي يرمز إلى الفندق. لكنّ الجميع يعرفها ولو من أبعد المسافات. قد دأب أفراد شرطة السير على غضّ الطرف إذا ما توقّفت حيث الوقوف ممنوع. وعلى ما يبدو، كان حاجز رصيف المرفأ يرتفع من تلقاء نفسه بمجرّد اقترابها. بفضل مقاعدها المتحرّكة، كانت سيّارة الـ«بويك سبيشال» والتي أضيف إلى صندوقها الخلفيّ قفص للحقائب، تتّسع بسهولة لثمانية أو تسعة ركّاب.

ذات مرّة أُتيحت لي ولشقيقي الأصغر فرصة الاقتراب منها في محطّة القطارات. كان سائقها يدخّن سيجارةً، مسندًا ظهره إلى غطاء محرّك سيّارته المركونة. لا شكّ بأنّه كان ينتظر حمّال الأمتعة أو زبائن. كان بوسعه أن يطردنا حالما رآنا نحوم حوله، غير أنّه تمتم بصوتٍ وديع:

– ماذا تريدان؟ الصعود على عتبة باب السيارة؟

وكأنّه قرأ أفكارنا! سبقت أخي بالصعود إلى تلك المنصّة الفولاذيّة ذات النتوءات المانعة للانزلاق، وسرعان ما شدّتني رائحة الجلد القديم التي تسرّبت من النوافذ نصف المفتوحة. منعتني تلك الرائحة المُسكِرة من التمعّن بداخل السيّارة. حين سألني شقيقي البكر، بعد ساعات قليلة، عن لون المقاعد وحجم المقود وحالة لوحة القيادة، لم أقدّم إليه سوى إجابات غامضة. وحده أنفي بقي يتذكّر...

في سجلّ الفندق الذهبيّ، في تاريخ 13 فبراير 1938، كتبت نزيلة تدعى السيّدة هوبكنز تثني على «سيّارة الـ«بويك» السوداء التي أتت لتقلّنا من رصيف المرفأ». سوداء؟ آنذاك لم تكن الليموزين قد طُليت بألوان الفندق. لا بدّ من أنّ السيّدة هوبكنز نزيلة مسنّة لأنّها أضافت: «لم يكن تنقّلي بعربة الجياد حتّى العام الماضي ليخلو من السحر، لكنّني أعترف بأنّ تلك السيّارة مريحة أكثر بكثير».

في بهو الفندق كان السيّد أليكس يستقبل المسافرين بالترحاب. هو شخص على قدر كبير من الأهمّية، ولا شكّ بأنّه الرجل الثاني منزلةً مباشرةً بعد صاحب الفندق ومديره. كان دوره أكبر من مجرّد رئيس فريق موظّفي الاستقبال. كلّ ما قد يثير اهتمام نزلاء الفندق أو قلقهم من قريب أو بعيد، كان منوطًا بذلك الرجل القصير القامة والأشيب الشعر، والذي لم يكن مظهره يشي بأهمّية دوره. هو مَن يوزّع الغرف على النزلاء فور وصولهم إلى الفندق، يجيب على الأسئلة، ويعالج المشاكل كافّة. تمتدّ سلطته إلى أمين الصندوق، عاملة مقسّم الهاتف، حمّالي الأمتعة، السائق، البوّاب، الساعي، وعامل المصعد، وربّما إلى السقاة. حتّى في المطعم وسائر الطوابق، كان يُقصد طلبًا للمشورة أو المساعدة.

غالبًا ما كان مدير الفندق يقول لأحد الموظّفين أو الزبائن:

– سل السيّد أليكس، وهو سيرتّب لك الأمر.

هو نفسه كان ينادي عشر مرّات يوميًّا ذاك المعاون القيّم الذي ورثه عن والد زوجته، مؤسّس الفندق.

كان السيّد أليكس في الستّين من العمر تقريبًا. يقيم في إحدى غرف الطابق الأخير، ويعمل سبعة أيّام

في الأسبوع، من دون أن يأخذ إجازة يومًا. حين يبدي أحد النزلاء دهشته جرّاء ذلك، يهمس مبتسمًا:

– أنا في إجازة دائمة. هل تعرف مكانًا في العالم أجمل من فندق مهرجان؟

كان السيّد أليكس يتكلّم الفرنسيّة بطلاقة، إضافةً إلى العربيّة والإنكليزيّة، بلكنة مدينة ناري الموسيقية. كما يتدبّر أمره بالإيطاليّة واليونانيّة، ويلمّ ببعض الكلمات الألمانيّة، ولا شكّ بأنّه كان يعرف اللغة العبريّة جيِّدا.

بدت بزّته الرماديّة أبدًا، الصوفيّة شتاءً والكتّانيّة صيفًا، وكأنّها مصمَّمة خصِّيصا لإخفائه عن الأنظار. ومع ذلك، لا يرى الواصلون إلى بهو الفندق أحدًا سواه. لم يكن السيد أليكس بحاجة إلى الشارات الذهبيّة المطرّزة على ظهر الهندام الرسميّ الخاصّ بنواطير الفنادق الفخمة، لكي يتميّز ويفرض هيبته.

كان مزيج من الدبلوماسيّة والخيال والقدرة الفائقة على التنظيم يسمح له بتلبية رغبات الزبائن مهما كانت، وباستباقها أحيانًا. لم يكن يرفض طلبًا قطّ. يُروى أنّ زوجة رجل أعمال نمساويّ، وكانت حاملًا، توحَّمت مرّة، عند منتصف الليل، فاشتهت أن تأكل لحم العجل المحشوّ على طريقة جنوى. نزل زوجها الذي كان يخشى معاكستها، إلى مكتب الاستقبال، وقد غمره الهلع. حضر السيّد أليكس بعدما استدعاه موظّف الاستقبال الليليّ، وأصغى إلى الرجل بكلّ انتباه. ثمّ بدأ بالاتّصال هاتفيًّا بهذا وذاك، قالبًا الدنيا رأسًا على عقب. لم يكن هناك مَن يعرف طريقة تحضير ذلك الطبق. بعد نصف الساعة من المشاورات الحثيثة، انطلقت سيّارة الـ«بويك» مسرعةً، لتحضر طاهي القنصليّة الإيطاليّة، الذي أوقِظ من نومه، فيما كانت نار الفرن في الطابق السفليّ توقَد...

إختار أحد التجّار البرتغاليين في ناري، وهو عازب ومتقاعد، أن يقيم بصورة دائمة في فندق مهرجان. استأجر ببدل سنويّ الغرفة رقم 28 التي أعيد ترتيبها بحسب ذوقه ووُضعت فيها قطع أثاث ولوحات تخصّه. حتّى أنّ السيّد كرافيلو زرع أزهارًا على شرفة غرفته. كذلك كُلّفت خادمات الفندق بمهمّة يوميّة: تبديل ماء عصفور الكنار المغرّد في القفص. حين كان البرتغاليّ يُسأل عن سبب إقامته الدائمة في الفندق، كان يجيب:

– لديّ هنا فريق موظّفين بأكمله في خدمتي. لا هموم منزليّة بعد الآن! ليس عليّ الاهتمام لا بوجبات الطعام، ولا بالسمكريّ ولا بفواتير الكهرباء. ثم إنني بمخالطتي سيَّاحا من جنسيّات مختلفة ينطقون بشتّى اللغات، أشعر بأنّني في سفر متواصل.

كان كلبٌ مسالمٌ ذو أذنين متدلّيتين ووبر حريريّ الملمس يرافقه في كلّ مكان. حتّى أنّه سمح لهذا الكلب السَّبنيَليّ بدخول الصالون الإنكليزيّ، ليرقد بهدوء إزاء كرسيّ سيّده. كان كلبًا صامتًا لم يُسمع نباحه قطّ.

إعتاد السيّد كرافيلو أن يدردش مع السيّد أليكس في فترات بعد الظهر الهادئة، فيقدّم له رئيس موظّفي الاستقبال كرسيًّا خلف مكتبه ويطلب لكليهما قهوة تركيّة. كانا يتجاذبان أطراف الأحاديث، ويتبادلان الأفكار حول أحوال العالم، أو يناقشان قائمة أطباق المطعم، أو الملابس، أو نزوات أحد النزلاء الجدد.

كان في الفندق حاجب شابّ يدعى أحمد وكان من أبرز معاوني السيّد أليكس. لم يكن هذا الفتى الرشيق ليستكين أو يعرف الهدوء، وكأنّما تحت قدميه نوابض. كان ينجز وبسرعة البرق شتّى أنواع المهامّ الموكلة إليه من كلّ حدب وصوب: يتّجه إلى الشاطئ لتسليم رسالة؛ إلى محطّة القطارات لتغيير تذكرة؛ إلى مكتب البريد لإيداع رزمة أو استلام أخرى؛ إلى بائع الجرائد، أو بائع الزهور أو

الإسكافيّ... كان ملزمًا بانتعال خُفّين في داخل الفندق – لا يحقّ لأيّ موظّف بالسير حافي القدمين ما خلا البستانيّين – غير أنّ أحمد كان يحملهما لينجز مهامّه الخارجيّة بسهولة أكبر. لُقّب بأحمد «الغزال». كم من مرّة سُمع رئيس موظّفي الاستقبال يقول لإحدى عاملات الغرف:

– آلو؟ تريدين مفتاح الغرفة رقم 6؟ إبقي مكانك، سأرسل لك الغزال.

كان لوقا يضحكنا كثيرًا عندما يقلّد، بالصوت والصورة، الأحاديث التي تدور بين السيّدين أليكس وكرافيلو خلف مكتب الاستقبال. معه يتحوّل غداء الأحد إلى لقاء ممتع ومرح. كان وصفه لأهالي ناري وكلماتهم وأفعالهم، يثير قهقهة الجميع، حتّى خالي فايز وزوجته الواجمين عادةً. أمّا أمّي فكانت تحملق بشقيقها جاحظة العينين حين يروي لنا قصصًا غير مناسبة للأولاد، ولا نفهمها تمامًا. كان لوقا ينبوعًا لا يجفّ من أخبار الخيانات الزوجيّة المتعدّدة التي تعيشها السيّدة كارامانيان، زوجة نائب مدير «الاعتماد الأشوريّ»، أو الطريقة المزعومة التي يعالج بها الدكتور زيتون حالات العجز الجنسيّ لدى الرجال.

– توقّف! سأموت من الضحك! كانت عمّتي جورجينا تقول بين حازوقة وأخرى.

لا شكّ بأنّها كانت تذهب للاعتراف عند الكاهن تكفيرًا عن إصغائها إلى تلك القصص اللاذعة التي تشهّر بسمعة الأشخاص، أو تخدش حياء خادمةٍ للربّ، بقيت بدون زواج.

غير أنّني كنت ألاحظ أحيانًا طيف كآبة يغطّي فجأة عينَي لوقا. ذلك الرجل المرح عادةً، كان لينقلب بين لحظة وأخرى إلى شخص حزين. ذات يوم وبعدما ألمَحَ خالي فايز إلى أمرٍ لم أفهمه، بقي لوقا صامتًا لا ينبس ببنت شفة طيلة فترة الغداء.

لم تكن والدتي لتتحمّل تقلّبات شقيقها المزاجيّة.

– لكلّ امرئ طبعه، كان أبي يقول حين تتذمّر من ذلك.

– كلا، هذه ليست مسألة طبع، كانت تجيبه بحماسة، أنت تعرف جيِّدا أنّه لم يكن كذلك.

كانت أمّي تعتبر القبرصيّة مصدر تقلّب مزاج لوقا. أو على الأقلّ، تُحمّلها مسؤوليّة ملابسه المهملة.

– ما النفع في أن تكون المرأة خيّاطة ما لم تهتمّ بملابس...

فتقطع جملتها، لعجزها عن التفوّه بكلمة «عشيق»، أو عن تقديم وصف ما لتلك العلاقة التي تثير استياءها الشديد.

4

ذات يوم أحد، وصل لوقا إلى منزل عمّاتي مشرق الوجه، وسارع حتّى قبل الجلوس إلى المائدة، إلى إعلان الخبر السارّ: شروعه بإنتاج وتسويق مشروب غازيّ.

– كرّر ما قلت من فضلك! قال له فايز.

– سمعتَني جيِّدا، أجابه لوقا بابتسامة عريضة، سجُّلت الماركة لدى السلطات المختصَّة، وسأطلق مشروب «نياغارا» بالتعاون مع صديق لي.

الصديق المذكور كان دافلوروس؛ يونانيّ مجاز في الصيدلة، لم ينشىء صيدليّته الخاصّة بعد إتمامه دراسته. لكنَّ عائلته كانت تستثمر مجموعة من البساتين في مكان يبعد كيلومترات قليلة عن ناري. هو الذي أعدّ تركيبة المشروب الجديد.

بدأ القلق يعصف بخالي حبيب:

– ولكن، هل تعرف ما معنى ذلك؟... عليك أن تستثمر مالًا، وتؤسّس شركة، وتواجه المنافسين، وتقنع المستهلكين...

لكنّ لوقا كان يملك جوابًا لكلّ شيء، وكأنّما أمضى سنوات طوال في دراسة الملفّ. من الناحية التجاريّة بدا تحليله منطقيًّا: المشروب الذي يُنتَج محليًّا أقلّ تكلفة من الكوكا-كولا، أو البيبسي، أو السينالكو، أو السفن-أب، لأنّه معفى من أعباء النقل ورسوم استصدار ترخيص ببضاعة أجنبيّة. لذلك يمكن بيعه بسعر تنافسيّ.

تدخلّ أبي قائلًا:

– أذكّرك، إن كنتَ قد نسيت، أنّ في السوق مشروبًا غازيًّا محليًّا، وهو يصارع للبقاء.

– طبعًا، وهذا أمر بديهيّ، فتلك الليموناضة الرديئة المعبّأة في زجاجة كالحة المظهر لا يمكنها أن تجتذب كثيرين! أجاب لوقا.

أمّا «نياغارا»، فستملك كلّ المواصفات المطلوبة. إلى جانب سعرها الزهيد، ستقدّم مذاقًا جديدًا يجذب المستهلكين. كانت التجارب التي قام بها دافلوروس دامغة وحاسمة على ما يبدو. أمّا التركيبة الدقيقة لهذا الخليط من الماء المشبَع بالغاز، وعصائر الحمضيّات، وسكّر القصب، والزيوت العطريّة والنكهات المختلفة، فيجب أن تبقى سرّية كتركيبة الكوكا-كولا.

– المهمّ هو التغليف أو التوضيب كما يُقال في أميركا، أضاف لوقا مفسِّرا.

بالنسبة إليه، لقد أخفق المشروب الألمانيّ سينالكو في تحقيق غايته لأنّ المستهلك لم يكن يعلم بأنّ اسمه مشتقّ من التعبير اللاتينيّ « sine alcohole»، أي «بدون كحول». في المقابل، كانت ماركة شويبس، المستوحاة من اسم المؤسّس، يوهان جاكوب شويب، فكرة دعائيّة ممتازة: حرف السين الذي ينتهي به الاسم يذكّر بصوت الغاز المضغوط الذي ينفلت من الزجاجة عندما تُنزَع سدادتها.

– لكنّ ذلك لا ينطبق على السفن-أب، تابع لوقا. لو نوى مبتكرو الماركة فعلًا أن يستثمروا مفهوم «الصعود إلى سابع سماء»، فقد باءت محاولتهم بالفشل. يجب أن يعبِّر الاسم التجاري عن نفسه بنفسه. «نياغارا» اسم غريب ومألوف في الوقت عينه. صورة الشلّالات الشهيرة حاضرة في أذهان الجميع. هذه الماركة تذكّر بحركة ديناميكيّة لا تقاوَم.

ثمّ استرسل في وصف غزارة الصناديق التي ستتدفّق من مصنعه وتُغرق السوق. قال إنَّ السينما هي التي أوحت إليه بهذا الاسم الفيّاض، إذ كان يتذكّر بكثير من التأثّر، فيلم «نياغارا»، حيث خرجت ماريلين مونرو من حمّامها لتدخل الأسطورة...

أمّا بالنسبة إلى التوضيب، فلم يستبعد لوقا أيّة فكرة جريئة: قيل له إنّ ثمة منتَجًا فرنسيًّا لا يُباع في ناري، يُعبَّأ في قناني تذكّر بالبرتقال أو الليمون الحامض، بوسطها المنتفخ وملمس زجاجها الحُبيبيّ. كما لم يكن متردِّدا في الذهاب إلى ما هو أبعد:

– أدرس إمكانيّة اعتماد زجاجة مستطيلة. نعم، أعني شكلًا متوازي المستطيلات، لكسب مساحة إضافية، وتخزين أسهل.

كان ارتباك البالغين يتناقض تمامًا مع الحماسة المسيطرة حول مائدة الأولاد. سرعان ما استحوذنا على المشروع ورحنا نقترح كلّ ما يمرّ ببالنا.

– ولِمَ لا تكون الزجاجة على شكل إجاصة، يا خالي لوقا؟

– أو مع عنقين، هذا أفضل.

– أو زجاجة مثلّثة الشكل، عريضة في الأسفل، وضيّقة في الأعلى.

– ولِمَ لا؟ كان لوقا يُجيب. لعلّها فكرة حسنة. سأسجّلها. لا تتكلّموا كلّكم في آن واحد...

ربّما كان لوقا متردِّدًا بشأن شكل الزجاجات التي سيصنعها، لكنّه كان واثقًا من لونها: ستكون بلون الخزامى الأزرق، أي مثل أبواب مهرجان ونوافذه. إكتشفتُ لاحقًا الصلة الوثيقة بين «نياغارا» والفندق، في تصوُّر لوقا. هل كان ينتظر من الفندق بادرة عرفان بالجميل، كما حدث لشركة شويبس، التي أصبحت المورّد الرسميّ للقصر الملكيّ الإنكليزيّ؟ أم يحاول فقط لفت الأنظار بعمل باهر ما؟

– مرّة أخرى، يُتحِفنا شقيقكِ باختراع شيء جديد، هتف أبي مساء ذلك اليوم، مسرورًا جدًّا بمشروع «نياغارا».

لم تجِب والدتي، فقد كانت مغامرات لوقا تقلقها أكثر ممّا تسلّيها. كان شقيقها يحتاج إلى زوجة وحسب: إمرأة قديرة وواقعيّة تسانده لتحول دون التشتّت الذي يعيشه. عبثًا حاولت أمّي أن تثير اهتمامه بنسيبة بعيدة، تدعى نيفين، كانت مغرمة سرًّا به. تلك المرأة العزباء التي تتمتّع بالكثير من الصفات الحميدة هي معاونة راشيل الشهيرة، مدبّرة فندق مهرجان. كانت الفرصة تُتاح لأمّي للقائها مرّة أو اثنتين في السنة، فتحصل من مصدر موثوق على معلومات حول سير عمل الفندق.

كانت راشيل نسخة طبق الأصل عن السيّد أليكس وإنّما في طوابق الفندق العليا. تلك الخمسينيّة النحيلة فقدت ابتسامتها نهائيًّا إثر وفاة زوجها وولديها في حادث مأساويّ على طريق الصحراء. هي لم تكن في السيّارة التي احترقت في نوفمبر من العام 1940، بعدما اصطدمت بأحد البراميل عند الممرّ الجانبيّ للطريق واختلّ توازنها. إنتشل المسعفون ثلاث جثث مشوّهة من بين حطام السيارة المحترق. لم يكن هذا الحادث المُميت الأوّل الذي يتسبّب به أحد البراميل الصدئة المُستخدَمة بمثابة نقاط استدلال. دأبت جريدة «أخبار ناري» وجرائد أخرى على المطالبة بتحسين ذلك الطريق الخطر، لكنّها بقيت كصراخ في الوادي... لا حياة لمَن تنادي.

منذ تلك المأساة، باتت حياة راشيل تختزل بفندق مهرجان. كانت نظاميّة في عملها بل ذات نزعة مرضيّة إلى الكمال وطبع صارم بعض الشيء، فأدارت بيد من حديد، كتيبةً من خادمات الغرف، وعاملات الغسل، والخدم، وعمّال الصيانة. أمّا معاونتها نيفين فكانت تلطّف بما تستطيعه من قسوة هذا

النظام شبه العسكريّ.

كانت سلطة راشيل تتجسّد بمفتاح عموميّ للغرف يسمح لها بحملات تفتيش مفاجئة ودقيقة، بعد انتهاء مهمّة الخادمات فيها. كانت تقول لمعاونتها:

– عندما تتحقّقين من النظافة والترتيب في غرفة ما، يجدر بكِ الاستعانة بحواسّك الخمسة: أن تراقبي، وتصغي، وتشمّي وتلمسي... لا تنسي أيضًا أن تتذوّقي الحلويات قبل تقديمها الى غرف كبار الشخصيّات.

لم يكن تعبير «كبار الشخصيّات» يقتصر على المشاهير أو أصحاب النفوذ، بل شمل أيضًا النزلاء العاديّين الذين يحجزون الغرفة عينها في كلّ عام. قبل وصول هؤلاء، يجب تعديل أمكنة الأثاث وفقًا لطلبهم، ووضع الملابس أو الأغراض الخاصّة التي يتركونها بعهدة الفندق في أماكنها الصحيحة. من أشهر النزلاء الدائمين، مصرفيّ ألمانيّ اعتاد الوصول من ميونخ بحقيبة سفر واحدة. حتّى أنّه كان يستبقي ألبسة السباحة الخاصّة به في الفندق. وكان على ثقة بأنّه سيجد على الطاولة بجانب السرير، منبّهه مضبوطًا على الساعة الصحيحة، وموضوعًا حيث يمكنه أن يراه.

حتّى المدبّرة نفسها، كانت مسؤولة بدورها أمام السيّدة ليفي-حنّور الصارمة في مسألة ترتيب الغرف وتزيينها. فزوجة المدير تعلّق أهمّية استثنائيّة على باقات الزهور التي ترحِّب بالنزلاء. لذا وجب اختيار الإناء المناسب، والحرص على تناسق الألوان، وتجنّب العطور الحادّة...

لم يكن أيّ جزء من الفندق بمنأى عن تأثيرها اللبق. لطالما رآها السيّد أليكس تتدخّل حتّى في ردهة الفندق، فتسأله بصوت خافت عمّا إذا كان بوسع أحد الحجّاب أن يعيد مقعدًا إلى مكانه الصحيح، أو يجمع جرائد منسيّة على إحدى الطاولات، أو تعدِّل في طريقها مكان باقة زهور تنعكس صورتها في المرآة الكبيرة، لتمنحها عمقًا أبعد. كان روّاد فندق مهرجان يتحدّثون بإعجاب عن «لمسة نيسا ليفي-حنّور».

كان الصالون الإنكليزيّ في الطابق الأرضيّ من أجمل قاعات الفندق، تحجب أبوابه الزجاجيّة المطلّة على البحر غلالات من القماش الموصليّ الأبيض، وتحيط بها ستائر سميكة موشّاة برسوم الأزهار في خليط رائع من الزهريّ والرمليّ والأخضر الباهت.

كان ذلك الصالون بأنواره الخافتة، زاوية خلوة وصمت، المكان الأمثل للقراءة. لا يدخله الساقي إلّا لتقديم كأس شراب أو فنجان شاي، ليعود ويتوارى كما دخل، عبر باب جانبيّ لا يلفت الأنظار. كان يمكن للضيف طلب مشروب كوكتيل مهرجان، الذي وضع المرحوم إيلي حنّور تركيبته وأقرّها نهائيًا في العام 1921.

لا أزال أتذكّر خالي فايز وهو يقول بلهجة المجتمع الراقي:

– لا شيء يضاهي كأس ويسكي فاخرة. لا أحبّ الكوكتيلات، لكنْ، عليّ الاعتراف بأنّ كوكتيل مهرجان استثنائيّ!

في الصالون الإنكليزيّ مقاعد من طراز تشسترفيلد بالجلد المشمّع، وأخرى من طراز النوادي الإنكليزيّة، بلون الكونياك، وذات مساند مستديرة للذراعين. في الشتاء، يكسو السجّاد العجميّ أرضيّته المنظّفة بالفرشاة. مكتبة ضخمة تحتلُّ جدارًا كاملًا منه، مقدِّمةً للضيف كتب أدلّة سياحيّة، بعض ألبومات الصور حول البحر المتوسّط، مجموعة من روايات أغاتا كريستي، وكتاب «ناريبوليس» لفورينبيك بثلاث أو أربع لغات، إضافةً إلى مؤلّفات مختلفة تركها أصحابها، ليسعد بها قرّاء آخرون.

يُقال بأنَّ ساعة المدفأة المصنوعة من البرونز المشغول كانت قبل الحرب العالميّة الأولى، ملكَ أمير من سلالة هوهنزوليرن الألمانيّة. والحقيقة أنّ أحدًا لا يعرف الظروف الحقيقيّة التي أحاطت باقتنائها، كما لم يعد بالإمكان استيضاح الأمر من مؤسّس الفندق لأنه بات في دنيا الحقّ. عيبها الوحيد أنّها تدقّ عند انتصاف الساعة لا عند تمامها. ومع ذلك فإنّ أحدًا لم يكن يجرؤ على المساس بتروسها، خشيةً من تعطيلها نهائيًّا.

في إحدى زوايا القاعة، مكتب من خشب الكرز البرّي، يدعى «طاولة المراسلة»، إذ اعتاد نزلاء الفندق استعماله لكتابة رسائلهم أو بطاقاتهم البريديّة. أقيم على ذلك المكتب، سجلّ فندق مهرجان الذهبيّ، والذي صنع أحد حِرَفيّي العاصمة غلافَه من جلد النعام. كان معظم الذين يوقّعونه يكتبون فيه عبارات من قبيل «شكرًا لهذا الاستقبال الرائع»، أو «لديّ أمنية واحدة فقط، وهي العودة إلى هنا». كانت نيسا ليفي-حنّور التي يَرِدُ ذكرها غالبًا، تحظى بأطيب الثناء. حتّى أنّ أحد النزلاء، ولم يكن شاعرًا في مستوى فيرلين أو موسيه، نظم لها قصيدة يقول فيها:

لئن كان هذا الفندق من أروع العجائب،

وجنّة لا تضاهيها الجنان

فهو كذلك بفضلك، يا زهرة متفتّحة لا تذوي أبدًا

يا أميرة مهرجان...

الواقع أنّ هذا المجلّد هو الجزء الثاني من السجلّ الذهبيّ، وقد وُضع قيد الاستخدام في العام 1939 بعد وفاة المؤسّس. أمّا الجزء الأوّل فكان محفوظًا في خزانة مقفلة. يُقال إنّه يحتوي على رسم ملوّن لبيكاسو تظهر فيه امرأة تستحمّ في البحر عارية الثديين، يلتفّ شعرها الأشقر الطويل حول مظلّة ذات شرّابات. لم يُمضِ الرسّام إلّا ليلة واحدة فقط في فندق مهرجان أثناء رحلة سياحيّة خاصّة في مارس 192. غير أنّ المَنظر الذي تطلّ عليه الشرفة قد فتنه، فكان أن جعل الرسم الذي يحمل توقيعه، من ذلك السجلّ، سجلًّا ذهبيًّا بامتياز.

5

من الواضح أنّ بيكاسو قد استوحى رسمه من أسطورة ناري، والتي انبثق اسمها العربيّ من كلمة «نار» مضافة إليها ياء المتكلّم.

يُحكى للأطفال أنّ أميرًا شاعرًا حكم المنطقة في قديم الزمان وكان متيَّما بحبّ أميرة أجنبيّة. لكنّ الأميرة ذات الشعر الأشقر الرائع غرقت في أحد الأيّام بعدما رغبت في السباحة بعيدًا عن الشاطئ. فبنى الأمير المفجوع مدينة لتخليد ذكراها، يرمز اسمها إلى النار التي تكوي قلبه المكسور.

لطالما أسعدتني تلك الحكاية. لكنّني كنتُ أشعر بالأسف لموت الفتاة، وأتساءل: ألم يكن ممكنًا أن يتزوَّجا وينجبا أولادًا كثيرين كما في الحكايات.

لكنَّ بعض سكّان ناري يعزو التسمية إلى سبب أقلّ رومنسيّة، ولكن ليس أكثر دقّة. يقولون إنّ المدينة تدين باسمها لمنارة شاهقة، لم يبقَ منها أيّ أثر، وكان أحد الحكّام قد أمر ببنائها في القرن التاسع لإرشاد السفن والحؤول دون اصطدامها بالصخور البحريّة القريبة. كانت تلك المنارة مشتعلةً ليلًا نهارًا، فتُشاهَد نارها، التي توقد باستمرار، من مسافة اثني عشر كيلومترًا. هذا ما جعل الأمير الفخور جدًّا بعمله يقول: ناري...

مهما يكن، فإنَّ مدينة ناري عادت وبعد فترة انحطاط طويلة، إلى الحياة في أربعينيّات القرن التاسع عشر، بوصفها مدينة كوسموبوليتية جامعة. ما لبث الازدهار والنظام اللذان بدآ يسيطران على البلد، أن استقطبا المهاجرين من شمال البحر المتوسّط وشرقه. كانت ناري كنايةً عن شرق أقصى صغير، بعيد عن قسوة الغرب الأقصى الأميركي. بفضل موقع مرفأها الملائم والذي ترسو فيه المراكب الأجنبيّة باستمرار، كانت ناري أكثر مدعاة للطمأنينة من مدن الداخل: إذا وقعت اضطرابات أو تفشّت أمراض، فالهروب عبر البحر مُتاحٌ دائمًا.

هكذا، على مرّ العقود، نشأت عدّة مستعمرات – على أنّ هذه التسمية لا تمتّ في معناها بصلة إلى الاستعمار – ولكلّ منها وضعية مختلفة عن سواها. فمن بين هؤلاء الأشخاص المتوافدين من أماكن شتّى، هناك مَن اكتسب جنسيّة البلد، فيما حافظ آخرون على جنسيّاتهم الأجنبيّة، أو كانوا ككثيرين من اليهود، بلا جنسيّة. أحد فرعَيْ عائلتي، وتتحدّر أصوله من سوريّا، كان من الفئة الأولى. أمّا الفرع الآخر ونحن منه، فكان فخورًا بانتمائه إلى هذا البلد منذ زمن بعيد: لم نكن أجانب ولا بدون جنسيّة. ومع ذلك، لم نكن مواطنين بحقوق كاملة. في الواقع، لاكتساب هذه الميزة كان على أجدادنا أن يعتنقوا الإسلام.

ثمّة صحراء تفصل بين ناري والعاصمة. كنّا ندير ظهورنا للصحراء، وعيوننا شاخصة إلى البحر المتوسّط، وكأنّما نستطيع أن نشاهد الضفّة الأخرى. كانت فرنسا على وجه التحديد تسحرنا، كونها نصّبت نفسها، منذ عهود بعيدة، حاميةً لمسيحيّي الشرق. فرنسا تلك، المألوفة والبعيدة، لم نكن نعرفها إلّا من خلال الكتب. في المدرسة، كنّا ندرس بالتسلسل التاريخيّ كلّ ملوكها، من لويس الحادي عشر الشرّير الذي دأب على حبس خصومه في أقفاص، إلى المسكين لويس السادس عشر، الذي افتُضح أمره في فارين وسيق إلى المقصلة. كانت فرنسا، فرنسا ديلوا المتسوّل الطيّب، والفتيات الصغيرات المثاليّات في روايات الكونتيسة دي سيغور. فرنسا الريفيّة القديمة المجسّدة في لوحات باهتة الألوان على جدران صفوفنا. كنّا نرى في تلك اللوحات باحات مزراع، سقوفًا من القشّ، وأبقارًا سمينة... كان ذلك الريف يبدو واقعيًّا أكثر من ريف بلدنا، الذي تأوي منازله المبنيّة بالطين فلّاحين حفاة وحميرًا وجمالًا. في المدرسة، كنّا نتلقّى تعليمنا كلّه تقريبًا بالفرنسيّة. طبعًا كنّا نتكلّم العربيّة، ونتعلّمها، غير أنّنا

كنّا نحلم بالفرنسيّة.

كان رهبان المدارس المسيحيّة وراهبات الراعي الصالح أوّل من بادروا إلى تأسيس مدارس للصبيان والبنات في المدينة. تلتها بعد ذلك ثانويّة البعثة العلمانيّة الفرنسيّة. ضمّت تلك المدارس طلّابًا من أصول وطنيّة شتّى، ومن ديانات شتّى. تعلّم ابنا ليفي-حنّور، أرييل ودافيد، في المدارس حيث تعلّمنا، وجلسنا وإيّاهما على المقاعد عينها. وكنّا نحسدهم على العودة كلّ مساء إلى مملكة فندق مهرجان الساحرة.

نشأتُ في بيئة مُطَمئِنة، وممّا عزّز شعوري بهذه الطمأنينة أنّ تركيبتنا العائليّة انطوت على موازاة شبه كاملة: كان لأبي أربع شقيقات ولأمّي ثلاثة أشقّاء. أي، كان لنا عمّات وأخوال. حتّى عامي السادس أو السابع، كنت مقتنعًا بأنّ نموذج عائلتنا ينطبق على كلّ العائلات: أي أنّه لا يمكن وجود سوى أخوال وعمّات.

في بيئتنا لم تُتَحْ فرصة السفر إلى أوروبا إلّا لبعض المحظوظين القلائل، كعمّتي زوزو (واسمها زينة في سجلّات النفوس). عملت زوزو قبل الحرب العالمية الثانية لمدّة شهر مرافِقة لفرنسيّة ثمانينيّة من أثرياء ناري، تدعى السيّدة بومون لاتور. أبحرت زوزو معها على متن سفينة سانتا لوتشيا في أبريل 1937. أمضتا ليلة في مرسيليا قبل أن تستقلّا القطار إلى باريس. حملت عمّتي من تلك الرحلة الوجيزة قصصًا لا تكفي حياة بأكملها لروايتها، خصوصًا أنّها كانت تُدخِل عليها باستمرار بعض التعديلات والتحسينات. كانت أبسط الأشياء وأبسط الأفكار تكفي لحملها على ذكر تلك الرحلة، وإدراجها في سياق أيّ حديث. تلتقط أيّة كلمة يتلفّظ بها أحدهم، لتنتقل بالحديث إلى باريس أو إلى سفينة سانتا لوتشيا، غير مبالية بتكرار الأقوال نفسها، ومن دون أن تفطن إلى أنّها قد قصّت الرواية عينها على المستمعين أنفسهم عشرات المرّات.

كنّا نعتبر عمّاتنا بمثابة جدّات لأنهنّ يكبرن أبي بما يتراوح بين العشر سنوات والخمس عشرة سنة. رُزق جدّي بأربع فتيات على التوالي، ما أحزنه كثيرًا. بات أضحوكة محيطه حتّى أنّه لُقِّب بـ«أبي البنات». رفض لسنوات طوال معاشرة زوجته التي انتهى بها الأمر بأن شكته للأرشمندريت، فأعاده هذا الأخير إلى واجباته الزوجيّة. وكم كانت فرحته كبيرة لمّا أنجب صبيًّا بعد عقد من الزمن! غير أنّ اللقب لم يفارقه. فأبو البنات كان له أربع بنات، لم يلبثن أن أصبحن أربع عانسات.

كانت الأخت الكبرى، وتُدعى مريم، مسؤولة بقدر كبير عن هذه الكارثة الإضافيّة. إخفاقها في العثور على زوج حرم شقيقاتها الزواج. كانت التراتبيّة العائليّة من الأمور الواجب احترامها. بيد أنّ مريم صاحبة النزوات والمتطلّبة جدًّا، راحت ترفض طالبي الزواج ممّن تقدَّموا إليها، الواحد تلو الآخر. في النهاية، أدرك الملل العائلات الصديقة الساعية إلى تزويج أبنائها، وتوقّف توافد العرسان.

بعد موت الوالدين، بقيت الشقيقات الأربع في المنزل، وكبِرْن فيه. شيئًا فشيئًا انتظمت حياتهنّ المشتركة كعازبات. كنّ يذهبن إلى القدّاس معًا كلّ صباح، ومعًا يتحلّقن حول مدفأة تعمل بالوقود، للخياطة أو التطريز أو الحياكة. ما كنّا لنتخيّل اجتماعًا عائليًّا بدون حضور الأربعة معًا. كنّ «العمّات» بالنسبة إلى الجميع، حتّى بالنسبة إلى أخوالي فايز وحبيب ولوقا، الذين لا تربطهم بهنّ صلة نسب مباشرة.

الأخت الصغرى، وتُدعى وردة، كانت الأكثر نشاطًا بينهنّ: تجيب على الهاتف، تنظّم عمل الخادمة، تناقش التجّار وتجمع صور العائلة في ألبومات قديمة تعود إلى ما قبل الحرب وذات قفل معدنيّ.

– وكأنّ للألبومات أحزمة عفّة، كان لوقا يقول، مستمتعًا برؤية خدود عمّاتي تتورّد خجلًا.

بلغت الجرأة بوردة أن نالت رخصة لقيادة السيّارات في العام 1945، حين لم يكن عدد السائقات الإناث يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. كانت تنقل شقيقاتها الثلاث في سيّارة بيجو 202 سوداء صغيرة، تلقّب «بالسيّارة الحولاء»، لأنّ مصباحيها الأماميّين كانا متلاصقين تحت واقية بيضويّة الشكل.

غالبًا ما كان غداء الأحد يُقام في شقّة عمّاتي الكبيرة التي بقيت بدون تعديل يذكر منذ زواج والديهنّ، حيث نجد في استقبالنا عند المدخل المظلم طاولتين رخاميّتين ثقيلتين، تعلو كلًّا منهما مرآة تنعكس فيها صورة صليب كبير من خشب الإبنوس، فيما تنبعث من المطبخ روائح اللحم المشويّ المتبّل بالكمّون والقرفة.

كان وصول لوقا بمثابة إعصار يوقظ من سباته هذا العالم المُغلق، ويهزّه هزًّا.

– كيف حال النِعَم الأربع؟ كان يسأل بصوت جهور. أين هنّ لأقبّلهنّ؟

ثمّ يعانق كلًّا من عمّاتي، ويشدّهنّ إلى صدره حتّى يكاد يخنقهنّ. في الواقع، كنّ يعشقن هذا العناق اللصيق رغم صيحات الاحتجاج التي كنَّ يُطلِقْنَها.

بعد ذلك، ندخل قاعة الطعام المضاءة بثريّا مزيّنة بحبال بلّورية متدليّة، لا شكّ بأنّها تعود إلى زمن اختراع الكهرباء. في القاعة، واجهات تضمّ أغراضًا كثيرة: أطقم فناجين القهوة، وفناجين الشاي، كؤوس الشراب المصنوعة من الكريستال، وفناجين بورسلين ليموج المزيّنة بزهور البنفسج والمرجان...

بعد صلاة سريعة تتمتم بها عمّتي وردة، وتختمها شقيقاتها الثلاث والأتقياء من بين المدعوّين برسم إشارة الصليب، تُصَفّ الكراسي ويجلس الجميع متلاصقين بعض الشيء. بفضل طرفَي الطاولة القابلين للطيّ، واللذين عادةً ما يُبسَطان للمناسبة، يستطيع عشرون شخصًا الجلوس حول مائدة الطعام ذات القوائم المضلّعة، والتي ألحقت بها طاولة للأولاد.

طبعًا لا بدّ من أن يتخلّل الحديث كلام حول فندق مهرجان، كأن يكون أحدهم قد رأى سيّارة ال-«بويك» البيضاء والزرقاء تخرج من المدينة سالكة طريق الصحراء، فنتساءل جميعنا عن السبب، أو كأن يتحدّث خالي فايز عن نتيجته في لعبة البريدج، أو عن الاستعدادات لحفلة نهاية العام الراقصة. كان لوقا ينتقد طريقة السيّد حنّور في الإدارة، فيعترض فايز عليه، ويحاول حبيب تأجيل الخلاف، فيضيع التفاهم.

6

في أحد أيّام الأحد، وصل لوقا إلى منزل عمّاتي وهو في قمّة النشاط، حاملًا حقيبة صغيرة، وقال:

– هذا يوم التذوّق. ستكونون أوّل مَن يجرّب مشروب نياغارا! نحتاج إلى أكواب. يا أولاد أحضروا أكوابًا!

هرعنا إلى خزانة الآنية في غرفة الخدمة، تتبعنا عمّتي وردة.

– لا تبالوا بالقناني، قال لوقا، فهي ليست سوى زجاجات مختبر. القناني التي أنوي استخدامها أكثر أناقة من هذه بكثير، ولها سدادات كزجاجات البيبسي أو الكوكا-كولا.

ما كاد يزيل غطاء الزجاجة الأولى حتّى سُمع صوت انفجار وفارت كمّية كبيرة من الرغوة.

– هذا طبيعيّ، قال لوقا مطمئنًا، ما كان يجب أن تبرد الصودا بهذا القدر.

ثمّ قال لشقيقه حبيب وهو يصبّ له سائلًا متلألئًا، بلون البنّي الغامق:

– تذوّق مشروب نياغارا هذا بطعم البطّيخ!

– البطّيخ؟

أمام دهشة حبيب، قال لوقا مسرورًا:

– نعم. لا نجد في السوق سوى صودا بطعم الليمون الحامض أو البرتقال. يجب التجديد والخروج عن المألوف. لاحقًا، تتذوّق نياغارا بمذاق الغوافة.

هزّ خالي حبيب رأسه بقلق بادٍ، متعجّبا من لون السائل وقال:

– ألا يفترض أن يكون مشروب بمذاق البطّيخ أقرب إلى اللون الورديّ؟

– لا بدّ من أنّ دافلوروس بالغ قليلًا في إضافة الكراميل، شرح لوقا. لا بأس. سنعالج الأمر.

ما إن قرّبت عمّتي مريم الكوب من شفتيها بشيء من الحذر، حتّى ارتسمت على وجهها تكشيرة شديدة وقالت:

– إنّه لاذع...

– نعم، إنّها الفقاقيع! يجب أن تلذع. هذا ليس مشروبا حلوًا يا عزيزتي، بل صودا. تقول دراسة أميركيّة إنّ الإحساس بالوخز في اللسان يشكّل تسعة وعشرين بالمئة من لذّة التذوّق.

– لا نشعر بمذاق الغوافة كثيرًا، قالت عمّتي جورجينا التي لم تُصغِ إلى الشرح.

– طبعًا، فهذا بطّيخ! نياغارا بمذاق الغوافة سيأتي لاحقًا.

أمّا بالنسبة لنا نحن الأولاد فقد أثار المشروب الغازيّ الذي يُبتكر أمام عيوننا حماسة كبيرة. لم يسبق لأيّ شخص بالغ آخر أن أشركنا في عمله على هذا النحو الملموس. ما من مجريات مهمّة أبدًا في «مستودعات الشرق»، حيث يعمل خالي حبيب، وأمّا ما يدور خلف جدران مصرف «الاعتماد الأشوريّ»، حيث يعمل خالي فايز، فلا نفهم منه شيئًا.

– نياغارا بمذاق البطّيخ ليس حلوًا كفاية، قال شقيقي الأكبر.

– على العكس. أجده حلوًا كثيرًا. ردّت ابنة خالي حبيب الثانية.

فجأة التمعت عينا لوقا الذي كان يصغي إلينا باهتمام، وقال:

– أنتم تعطونني فكرة أيّها الأولاد. يمكننا صنع نوعين من النياغارا. حتّى أربعة، كأصناف القهوة التركيّة: قهوة بدون سكّر، قهوة بسكّر قليل، قهوة «مظبوطة»، وقهوة حلوة. أربعة منتجات بدلًا من منتج واحد!

هذا المنظور الجديد للإنتاج أثار حماسته، فتابع يقول:

– نعم، نعم، أرى هذا بوضوح. نياغارا بالبطّيخ بأربع نكهات، ونياغارا بالغوافة بأربع نكهات، لكلّ منها تسمية وعلامة. سأكلّم دافلوروس في الأمر هذا المساء.

شغَلَتنا عمليّة تطوير المشروب لأشهر عديدة: تتالت سلسلة من المصاعب غير المتوقّعة، والتي وجب حلّها الواحدة تلو الأخرى. كان كلٌّ من المكوّنات التي تدخل في تركيبة نياغارا، وأوّلها الماء، مشكلة بحدّ ذاته.

– تبيّن لنا أنّ الماء كلسيّ جدًّا، أوضح لنا لوقا. لكنّ الحلّ سهل: يكفي أن نصفّيه. دافلوروس يدرس جهازًا بسيطًا جدًّا للترشيح، لكنّه يتطلّب أحواضًا مناسبة.

صحيح أنّ البطّيخ المزروع في بساتين اليونانيّ كان لذيذًا، لكنّ الغوافة غالبًا ما كان لها مذاق الخيار.

– موسم الغوافة هذا العام غير ناجح، قال لوقا. قرّرنا تأجيل إنتاج هذا النوع، والتركيز في الوقت الحاليّ على البطّيخ.

على صعيد آخر، فكّر لوقا في الإعلانات المناسبة لهذه الفاكهة، وأحضر لنا رسومها حيث يظهر رجل باسم ذو شاربين معتمِرًا نصف بطّيخة، وخلفه شلّالات نياغارا.

قال له خالي حبيب بصوت متهدّج:

– أحقًّا تنوي الترويج لمشروبك بهذه الصورة؟

– ليس بالضرورة. قد أستبدل الرجل ذا الشاربين بامرأة شقراء فاتنة. أو ربّما بصهباء. نعم، صهباء طويلة الشعر تذكّر بالأسطورة! كيف لم أفكّر في الأمر من قبل!

بعد بضعة أسابيع، بدا بوضوح أنّ خليط الماء وغاز الكربون والغلوكوز والبطّيخ لم ينجح. لم تستطع النكهات المُضافة التعويض عن المذاق الباهت. كما أنّ زيادة مقادير المكوّنات أكسبت المشروب مذاقًا كيميائيًّا كريهًا جدًّا.

ما كان من لوقا الذي لم يفقد الأمل، إلّا أن اتّخذ قرارًا شجاعًا. بالاتّفاق مع شريكه، أعيد مؤقّتا توجيه التجارب نحو المنتجات العادية التي تفيض بها بساتين عائلة دافلوروس. بدأت التجارب على نياغارا بمذاق البرتقال، ونياغارا بمذاق الليمون الحامض. أمّا البطّيخ فما عليه سوى الانتظار.

7

بعد ظهر أحد أيّام مارس أو أبريل من العام 1955، وكنت آنذاك في سنّ العاشرة، خرجتُ إلى الشرفة حيث كان أبي يدخّن متّكئا بمرفقيه إلى الدرابزين، وقلت له:

– هذا ليس عدلًا! أنا لم أذهب إلى فندق مهرجان يومًا.

أجابني بصوت حالم، من دون أن يلتفت إليّ:

– مهرجان هو مُلك الذين ينظرون إليه.

في البعيد، كانت قبّة الفندق تتلألأ كعادتها في مثل هذه الساعة. لبثتُ صامتًا بقرب أبي، متأمّلًا في تلك الجملة الغريبة، مفتونًا برائحة سيجارته.

كان المسبح البحري غير المجّاني الذي نرتاده من مايو حتّى أكتوبر، متاخمًا لمسبح الفندق. لم يكن ما يفصل بين هاتين المنطقتين مجرّد شبكة حديديّة فحسب، بل ما يشبه الممرّ البالغ طوله ثلاثين مترًا، تكدّس فيه المؤسّسة الكراسي الطويلة، القوارب ذات المجاذيف، الفرش القابلة للنفخ، وأشياء مختلفة أخرى. أي أنّني لم أكن أرى المظلّات ذات الشراريب والناس السعداء الذين ينعمون بفيئها، إلّا من مسافة بعيدة نسبيًّا، وجبيني ملتصق بقضبان الشبكة الحديديّة.

غير أنّني ورفاقي في اللعب اكتشفنا طريقة أخرى للاقتراب من تلك الجنّة المحظورة: درب ترابيّة تملأها النتوءات والأخاديد، تفصل بين حديقة مهرجان وبعض منازل ناري الجميلة، وكنّا نسلكها بالدرّاجات. أسميناها «درب آكلي لحوم البشر»، وكأنّما كان ممكنًا في أيّة لحظة أن تهاجم قافلتَنا كائناتٌ خطرة تخرج من بين تلك الأجمات. كان من الممكن أيضًا أن ندعوها «درب الهنود الحمر»، بعدما سحرَنا جون واين في فيلم «كانت تضع شريطة صفراء» بالتكنيكولور. على صهوة درّاجاتنا- الأحصنة، كنّا نمزج بين ألعاب عدّة، غير عابئين لا بالتاريخ ولا بالجغرافيا. حينذاك، كنت أنتمي إلى مجموعة «الفرسان الثلاثة» – تتألّف من أربعة فرسان كما في الرواية التي اكتشفناها في كتاب مصوّر للأطفال. أنا كنتُ أراميس. وسبيرو، أحد أحفاد صاحب مقهى أنطونياديس، كان دارتانيان. أمّا أتوس وبورتوس، فقد أدّى دوريهما اثنان من رفاقنا في الصفّ: ميشا اليهوديّ وطارق المسلم. هذا الأخير كان يثير إعجابنا بالتزامه الصارم بصيام شهر رمضان. لقد دُعيت وأشقّائي ذات مرّة إلى إفطار في منزله، كما أتى هو مرّتين أو ثلاث للّعب في شقّتنا. كانت تلك الزيارات، من كلتا الجهتين، بمثابة الدخول إلى أرض مجهولة.

إعتدنا أن نتوقّف في منتصف درب آكلي لحوم البشر، ونسند درّاجاتنا إلى جدار حجريّ. قد يصادف أحيانًا أن تتبعث رائحة نتنة من جيفة حيوان صغير، فنبعدها بقطعة من الخشب إلى حفرة حفرناها، ثمّ نسارع إلى طمرها، فلا تتبقّى في الهواء سوى عطور النعناع والآس وإكليل الجبل.

بعد سنوات، سيكتشف أولاد آخرون، على الدرب عينها، جثّة أخرى... لكن دعونا الآن من هذه الفكرة، فهذا ليس بالوقت المناسب. لِمَ القفز فوق السنوات، وحرق المراحل، وخلط الليل بالنهار؟

كان على تلك الدرب المذكورة، بابٌ يُفترَض أن يؤدّي إلى حديقة فندق مهرجان، غير أنّه كان مقفلًا، ولم يُستعمل منذ عهد بعيد، كما تشهد على ذلك بقع الصدأ والنباتات المعرِّشة التي غطّته حتّى نصفه. كنّا نلمح من خلال قضبانه، كوخًا خشبيًّا صغيرًا يدير لنا ظهره. لطالما تساءلنا جميعنا حول الهدف منه. كان ميشا وسبيرو مقتنعَيْن بأنّها زنزانة، فيما رجّح طارق أن يكون مخبأً للعشّاق. أمّا أنا فتخيّلت ذلك الكوخ مكانًا تقصده نيسا ليفي-حنّور الغامضة لتحلم، لكنّني تحفّظت عن البوح بذلك

للفرسان الآخرين.

كنّا نتبادل الحديث همسًا خشيةً من أن يفاجئنا أحد. قد يسمعنا بستانيّ ما ويفضح أمرنا، فنفقد موقع المراقبة هذا، حتّى ولو لم يتسنَّ لنا أن نراقب إلّا القليل من خلاله. من وقت إلى آخر، كانت فرقعة غصن يسقط، أو حفيف أجنحة عصفور يطير، يثيران فينا رعبًا شديدًا، تليه رعشات لذيذة. لكنّني لا أذكر أنّ أحد زعماء الهنود الحمر، أو أحد فرسان الفايكينغ، أو أحد موظّفي الفندق قد كشف أمرنا يومًا...

كانت في الحديقة، شجرة تين تمدّ أغصانها فوق الجدار. للوصول إليها، كان علينا أن نقف، الواحد على كتفَيْ الآخر. كنّا نقطف ثمارها، ونتذوّقها ببطء مغمضي العينين. كان مذاقها لذيذًا... لا مثيل له. مذاق تين ينمو في أرض مهرجان.

كانت ألعاب طفولتنا بعيدة كلّ البعد عمّا يجري في الساحة السياسيّة الإقليميّة. البالغون أنفسهم بدوا غير آبهين بذلك، على رغم إشارات التحذير المتزايدة. لم يشأ أحد التصديق أنَّ بلدًا كبلدنا، وخصوصًا مدينة مثل ناري، قد يتغيّران يومًا. صحيح أنَّ قيام دولة إسرائيل في العام 1948 والهزيمة المذلّة التي ألحقتها بالجيوش العربيّة، وضعا يهود المدينة في وضع حرِج، لكنّنا كنّا نرفض الخلط بينهم وبين الصهاينة. حتّى الانقلاب العسكريّ الذي أطاح بالنظام الملَكيّ بعَد بضع سنوات، لم يزعزع أسس هذا المجتمع التعدُّديّ.

كأنَّما ناري كانت تمرّ بين قطرات المطر أو تتسلّل من بين المآسي سالمةً، فقد اجتازت حربين عالميّتين ولم يلحق بها أيّ سوء. وكأنَّ الحروب صُنعت للآخرين. ومع ذلك، كان في كنف عائلتنا غراب شؤم: خالي حبيب الذي لطالما رأى أنّنا نقف على فوهة بركان.

ذات يوم أحد من العام 1955، هتف حال وصوله إلى منزل عمّاتي:

– هل رأيتم ما الذي يُعدّ للبلد؟

بيد أنّ أحدًا لم يفهم ما يعنيه.

– ما بالكم، ألا تقرأون الجرائد؟ ألا ترون أنّهم يتّجهون إلى إلغاء المحاكم الخاصّة بالطوائف في البلد؟

– كلّ هذا؟! قالت عمّتي زوزو. ما هذه القصّة الآن؟ إسكبْ لنفسك كأس عرق يا حبيب.

لكنّ حبيب لم يكن راغبًا في الشراب، فقد آلمه انعدام ردّ الفعل لدى رجال العائلة الذين يُفترض بهم الاهتمام بالشؤون العامّة.

– ألا ترون أنّ الحكومة قرّرت سحب قضايا الأحوال الشخصيّة من يد الطوائف؟

– إشرح، أرجوك اشرح لنا! قالت زوزو بدافع الأدب، لا الاهتمام.

– الأمر بسيط! قضايا الزواج والإرث لم تعد من اختصاص محاكم الطوائف، بل المحاكم المدنيّة، أي القضاة المسلمين!

أجابه شقيقه فايز الذي كان مطَّلعا على مشروع الحكومة، بكلّ هدوء:

– نسيتَ أن توضح أنّ تلك المحاكم المدنيّة ملزمة بأن تطبّق على المسيحيّين واليهود القوانين الخاصّة بهم.

– هذا مجرّد نصّ مكتوب! ردّ حبيب وهو يحرّك بعصبيّة مكعّبات الثلج في كأسه. أتتخّيل أولئك القضاة يدرسون اثني عشر تشريعًا مختلفًا ويطبّقونها؟ كيف سيتدبّرون أمرهم وسط تلك القوانين المعقّدة؟ فالقوانين ليست كلّها مكتوبة، وغالبًا ما تكون مجرّد أعراف. ثمّ، مَن يؤكّد بأنّ الأمور ستقف عند هذا الحدّ؟ لعلّ إلغاء محاكم الطوائف ليس سوى تمهيد لتغييرات أخرى، أخطر بكثير.

– أرجوك، توقّف! صاح به فايز. كفاكَ تذمُّرًا من العواصف والسماء زرقاء! إنّك تسبّب لنفسك الألم وتسبّب لنا الصداع.

كان طبع حبيب القلق والحذِر يُضحك لوقا، فقال:

– شقيقي يسير في هذه الحياة تحت مظلّة، معتمرًا خوذة إطفائيّ، ومرتديًا سترة مقاومة للرصاص. لكنّني أظنّ أنّ القناع الواقي من الغاز الذي يحتمي به هو ما يجعله يرى الأمور كلّها قاتمة.

بعد أشهر قليلة، لم يعد الأمر مدعاة للمزاح، بحيث اعترض مجهولون موظّفا يهوديًّا في «مخازن داغاليك الكبرى»، ونعتوه بالصهيونيّ، وأبرحوه ضربًا وسط الشارع. بناء على أوامر السلطات، لم تخصّص جريدة «أخبار ناري» والجرائد الأخرى لذلك الحادث سوى خبر صغير في أسفل الصفحة. لكنّ تلك التغطية الخجولة العابرة لم تفعل سوى إثارة هلع القرّاء بدلًا من طمأنتهم. كانت غيوم الشؤم تتلبّد في السماء.

8

عبر لوقا بسرعة فائقة شارع الفنار. حين وصل أمام مقهى «داميانوس» توقّف لحظات لالتقاط أنفاسه، قبل أن يطلق لساقيه العنان مجدَّدا ويجتاز الكيلومتر الأخير. رأته إحدى الجارات يدخل مبنانا الصغير قافزًا درجات السلّم أربعًا أربعًا، وصولًا إلى الطابق الثالث.

– سيُطرَدون من البلد! صاح حتّى بدون إلقاء التحيّة، قبل أن يتهاوى على أوّل مقعد رآه، وهو يمسح وجهه بمنديل كبير.

مَن سيُطرَد كان الفرنسيّون والإنكليزيّون، وخصوصًا اليهود، وما أكثرهم في ناري.

نظر أبي إلى شقيق زوجته نظرة شكّ، متسائلًا عمّا يختلقه هذه المرّة.

– سيُطردون! سيُرحَّلون عن البلد! أُمهِلوا فقط اثنتان وسبعون ساعة لجمع أمتعتهم.

بعد نشوب أزمة السويس كان الانتقام، بشكل أو بآخر، متوقَّعًا. أمّا اليهود والذين لطالما عاشوا بوئام مع مسلمي المدينة ومسيحيّيها طوال أجيال، فقد بات اسمهم مربوطًا أكثر فأكثر بالكيان الإسرائيليّ. وجاءت المواجهة العسكريّة الأخيرة لتسمِّم الأجواء.

بعدما رأت لوقا يصل لاهثًا، قرَّرت جارتنا المجيء لتسقّط لأخبار. وجدت لنفسها عذرًا لكي تطرق بابنا. وما هي إلّا دقائق حتّى أخذت تعلِّق على موضوع طرد اليهود:

– كم أفكّر في تلك المسكينة توليا!

وأضافت أمي:

– وروزي أيضًا!

– أوه، روزي هذه... لكنّني أقسم لكِ بأنّني أتألّم لأجل توليا. اثنتان وسبعون ساعة، أتدركين ذلك؟!

عندما يبدأ البالغون بقَسَم اليمين على هذا النحو، غالبًا ما يدعو ذلك للريبة. حتّى القَسَم بالشرف لم يكن أكثر صدقًا. في ناري لا يمكن تصديق كلام أحد، إلّا إذا أقسم برحمة والدته، أو بصحّة أولاده.

يومها، لم يكفّ الهاتف عن الرنين. فيما كان بعض أفراد العائلة، الذين لا يعلَم إلّا الله كيف بلغهم الأمر، يؤكّدون الخبر، راح آخرون يضيفون إليه معلومات دقيقة: صودِرَت أملاك المطرودين ووُضِعت تحت الحراسة القضائيّة.

صرخت أمّي:

– تحت الحراسة القضائيّة؟ ومهرجان؟

كنت في الحادية عشرة وأجهل ما هو الطرد، وما معنى عبارة «حراسة قضائيّة». خرجت إلى الشرفة مستطلعًا الأفق، ولم أرَ سوى حديقة الفندق غارقة حتى نصفها في الضباب.

راح الأخوال والعمّات والأنسباء والأصدقاء يصلون الواحد بعد الآخر، والحماسة المفرطة بادية عليهم. كان كلّ منهم يضيف إلى الخبر تفاصيل جديدة. قيل إنّ رئيس مصرف «الاعتماد الأشوريّ» تعرّض لأزمة قلبيّة، وإنّ زوجته مينا المرهوبة من الجميع، راحت تطلق الشتائم بأعلى صوتها، أمام خدّامها المبهوتين...

كان خالي حبيب جالسًا في زاويته مهمومًا ومتجهِّمًا أكثر من أيّ وقت مضى. لا شكّ بأنّه راح يتخيّل كيف ستكون الكارثة المقبلة.

العجيب في الأمر أنّ لوقا لم يقُل شيئًا. كان هو مَن نقل إلينا الخبر، لكنّه وقف هناك وبيده كأس، شاردًا في أفكاره، وكأنّما الحدث قد أفقده الوعي، أو كأنّما تدبير طرد اليهود يطاله شخصيًّا. لم يسبق لي قطّ أن رأيت هذا القدر من الحزن والتعاسة في عينيه.

في اليوم التالي، اكتفت جريدة «أخبار ناري» بنشر البيان الحكوميّ من دون أيّ تعليق. كانت المدينة تضجّ بالشائعات. من بين الحكايات التي انتشرت حينذاك، حكاية موظّف استقبال فندق مهرجان الذي أصيب باضطراب شديد، وتغيّرت ملامحه حتّى كاد لا يُعرَف.

– مطرود؟ قال السيّد أليكس لروّاد الفندق المعتادين. كيف يمكن أن يُطرد المرء من دياره؟ والداي، أجدادي، وأجداد أجدادي وُلدوا ودُفنوا في ناري. أين تريدونني أن أذهب؟

بعد ثلاثة أيّام، كنّا كلّنا على رصيف المرفأ نشاهد رحيل اليهود. الحقيقة أنّنا لم نأتِ كلّنا، لأنّ خالي فايز رفض مرافقتنا ومنع زوجته وأولاده من الظهور أمام الناس. كان يرى أن لا شأن لنا بتلك القضيّة، التي لن تولِّد سوى المتاعب لمسيحيّي البلد:

– كلّما قام الغرب بعمل عسكريّ في المنطقة، لا يعود الناس يفرّقون بيننا وبين أولئك الغربيّين المخبولين، ونُتَّهم بالتواطؤ معهم. بدأ ذلك مع الحروب الصليبيّة...

كنت واقفًا بجانب لوقا الذي أمسك بيدي. كان حبلان يحدّان الممرّ الطويل الذي وجب على المرحَّلين سلوكه باتّجاه الجسر المؤدّي إلى مركب بروفيدانس. راح رجال الشرطة يستعجلونهم بحركات وإشارات من أيديهم للتقدّم بسرعة، غير أنّ المسافرين تجاهلوهم وتابعوا سيرهم، أنظارهم شاخصة إلى الأمام. ثمّة أمر بدا لي غير لائق في صفّ المسافرين هذا، أو ربّما في حضورنا إلى هذا المكان. شعرتُ وكأنّنا باغتنا هؤلاء الأشخاص في عقر دارهم بعدما انهدّت جدرانها بفعل زلزال عنيف. لقد تبدَّلوا: أصبحوا أضعف ولكن أقوى تأثيرًا في الوقت عينه.

إبتعدنا متهامسين مُفسِحين في المجال أمام مجموعة صغيرة. رأيت السيّد ليفي-حنّور يسير منقبضًا، وخلفه زوجته التي كانت تحاول عبثًا إخفاء دموعها. كانت ترتدي فستانًا أخضر وقبّعة بيضاء تتناسب مع حذائها ذي الكعب العالي. وجهها المتجهّم جعلها أجمل ممّا كنت أخالها. إلتفتت في اتّجاهي، وتوقّفت لبرهة. خلت حقًّا أنّها تبحث عنّي. نيسا! شاهدتُها في أحلام يقظتي منذ عدّة أيّام تنحني نحوي، وتلامس وجهي بيديها السمرواين الطويلتين، وتسألني:

– مَن أنت؟

– أنت لا تعرفينني، أجبتها بصوت خجول، لكنّني أعرفك. رأيتك في مهرجان.

– في مهرجان؟ يا لحسن حظّك!

– ولكن... أنت تقيمين هناك، أليس كذلك؟

– صحيح، لكنّني لم أرَ مهرجان من الخارج يومًا. ليفي يمنعني من ذلك. إنّه وحش. كم أنت محظوظ بأن يكون عندك شرفة بدرابزين!

ولكن... هناك، على رصيف المرفأ، لم يكن ما يجري حلم يقظة. لأقسمتُ بأنّ نيسا ليفي-حنّور تمهّلت للحظة والتفتت إليّ.

كان ولداها يسيران خلفها بملامح لا تدلّ إلى أنّ ما يجري يعنيهما. إستغربتُ ذلك. هل كانا أصغر من أن يقدّرا خطورة ما يحدث؟ أم أنّهما يتخيّلان نفسيهما وقد وصلا إلى أوروبّا التي لا شكّ تجتذبهما بقدر ما تجتذبنا؟

بادرت عمّتي زوزو بمخاطبة مجهولين يقفون بقربها:

– تخيّلوا بأنّني في العام 37، اجتزتُ البحر المتوسّط على متن سانتا لوتشيا! كنت أرافق سيّدة فرنسيّة، وهي السيّدة بومون لاتور، في طريقها إلى باريس. سافرنا في الدرجة الأولى. قادنا إلى مقصورتنا حاجبان شابّان بلباس أحمر...

لكنّ أحدًا لم يصغِ إليها، فكلّ الأنظار متّجهة إلى مركب بروفينداس، الذي بدأت محرّكاته بالهدير.

كانت راشيل، مديّرة فندق مهرجان، تسير متّكئة إلى ذراع السيّد أليكس. لكن في الحقيقة، هذا الأخير هو مَن كان يتّكئ إليها. كان رئيس موظّفي الاستقبال، بملامحه المهزومة ومحيّاه الذاهل، وبزّته الرماديّة التي فقدت أناقتها، يوحي بأنّه يجهل إلى أين يُقاد. أمّا راشيل فكانت تسير كعادتها بخطًى واثقة، لا تلتفت يُمنةً ولا يُسرَةً. يُقال إنّها أصرّت قبل رحيلها على تفتيش غرف الفندق، واحدة تلو الأخرى، وتوبيخ الموظّفات اللواتي لم يطوينَ بشكل متقن غطاء سرير، أو يلمّعن مقبض الباب.

تعرَّفتُ بين المسافرين على عددٍ من رفاقي في المدرسة. بدا معظمهم مسرورًا إذ يبحر لأوّل مرّة على متن مركب. لكنّ ميشا، المعروف بأتوس، كان يبكي بعدما سقط أرضًا وسال الدم من ركبته، فلُفّت بمنديل بانتظار تطهير الجرح على متن المركب. فارسٌ من الفرسان الأربعة كان يبكي... ابتعد عنّي، وبلغ قاعدة جسر السفينة. غضبتُ من نفسي لأنّني لم أسارع إلى امتطاء حصاني وأهبّ لنجدته.

كان بين الجمع المُغادِر الكثير من الوجوه التي لا أعرفها، ووجوه أخرى لم أظنّني سألتقيها هناك. لا سيّما إسكافيّ شارع الفنار، الذي كنت أحسبه مسلمًا. بطبيعة الحال، لا يمكن التعرّف إلى اليهود من مظهرهم!

كان شلومو، عازف البيانو، آخر السائرين، وقد حمل حقيبة قديمة زنّرها برباط جلديّ. كان ينظر متعجّبًا إلى أولاد يدندنون لحن «سعادة الحبّ». خلف الحقيبة، سار هرّ أعرج، ذو وبر طويل وناعم. ذاك الهرّ... إذًا شلومو هو صاحب هذا الحيوان المتعثّر؟

حين اقترب عازف البيانو منّا، ترك لوقا يدي فجأة واتّجه إليه مناديًا إيّاه باسمه. رآه شلومو فوضع حقيبته أرضًا وتعانق الرجلان فوق الحبل المشدود على ارتفاع متر عن الأرض.

حين عاد لوقا إلينا، كانت عيناه دامعتين. صدمني هذا المشهد، فلم أتخيّل خالي قادرًا على البكاء، كما كنت أجهل أنّ عازف البيانو صديقه.

تجمّع موظّفو الفندق غير اليهود على رصيف المرفأ، وقد ابتعدوا بعض الشيء، وارتسمت على وجوههم ملامح الذهول والقلق. ماذا سيحلّ بهم؟ كلّ تراتبيّة الأمس قد تداعت؛ وقفت خادمات الغرف يتكلّمن مع مدير المطعم، الذي ظهر للمرّة الأولى من دون ربطة عنق، فيما راح الغزال وقد تجلّى الاضطراب في حركاته، يلقي خطابًا حاسمًا على السيّد مالوميان. إلّا أنّ المحاسب الأرمنيّ الشارد الذهن لم يكن ليستمع إليه كما يبدو. لأوّل مرّة كان أبو عمر السّائق العجوز في المرفأ من دون الـ«بويك». بعدما غسل السيّارة ونظّفها، كما يفعل كلّ صباح، ركنها في موقف الفندق. لمّا لم يكنْ يدري لمن يعطي مفاتيحها، فضّل الاحتفاظ بها مؤقّتًا.

صعد الركّاب جميعًا إلى السفينة. خلنا أنّنا لن نراهم ثانيةً. لكّنهم راحوا بعد عشر دقائق، يظهرون

فوجًا بعد فوج على السطح الأعلى للمركب. حين رُفِعت المراسي، تجمّعوا على طول الحاجز الحديديّ ناحية الرصيف. بحثتُ بنظري عن نيسا ليفي-حنّور، ولكن بلا جدوى. لعلّها كانت تقف عند الجهة الأخرى، تشخص ببصرها إلى البحر الواسع...

غادرت بروفينداس المرفأ مطلقةً أبواقها. تمايلت المناديل، فيما لوّح بعض الركّاب بأيديهم. لم أدرِ قطّ إن كانوا يلقون التحيّة علينا نحن أو على المدينة خلفنا. كان يهود ناري المنحنون بأجسادهم على ارتفاع خمسة عشر مترًا فوق الرصيف، يستحوذون على تفكيرنا... للمرّة الأخيرة.

– مساكين، برغم كلّ شيء! قالت عمّتي جورجينا وقد ترقرقت عيناها بالدمع.

لم يقل لوقا شيئًا. لكن، حين اتّجهت بروفينداس نحو عرض البحر، شدّ بقبضته على يدي قليلًا، وقادني إلى طريق العودة.

لم تمرّ معانقة شلومو بدون لفت الانتباه. رأى كثيرون أنّ لوقا تهوّر في ظهوره العلنيّ مع يهوديّ بهذا الشكل أمام رجال الشرطة، في الوقت الذي كانت الصحافة الرسميّة تهاجم «الصهاينة» بعنف أكثر من أيّ وقت مضى. لكنّ لوقا لم يكن ليبالي.

حين علم فايز في اليوم التالي بما حدث، فقد أعصابه واستشاط غضبًا:

– أتدرك ما فعلته؟ أنت مجنون تمامًا!

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يوحي فيها لوقا بأنّه يجازف بحياته. بعد وفاة ربّ الأسرة، غالبًا ما تدخّل فايز وهو لا يزال في سنّ المراهقة – بصفته ربّ العائلة الجديد – لتوبيخ شقيقه وإعادته إلى صوابه. لكنّ لوقا لم يكن ليعير كلام فايز اهتمامًا. هذه المرّة أيضًا، أصغى إليه بدون أن ينبس ببنت شفة، قبل أن يستدير على عقبيه وينصرف.

9

خُتمت بوّابة مهرجان بالشمع الأحمر. تقاطر الناس من أنحاء المدينة كلّها لملامستها بأطراف أصابعهم، إذ عجزوا عن تصديق الأمر. هكذا أُقفِل الفندق، لكنّ المفارقة أنّ الوصول إلى جنّة عدن تلك، بات الآن سهل المنال.

راح الجميع يروي ما يعرفه أو ما يظنّ بأنّه يعرفه عن هذا الفندق. أكّد أحد جيراننا جازمًا، وبما يتناقض مع كلّ منطق معماريّ، بأنّ الفندق كان قصرًا عثمانيًّا قديمًا... أمّا أنا فلم أفهم تاريخ فندق مهرجان حقًّا حتّى بلغت عامي الخامس والعشرين، حين وقعتُ على مفكّرة إيلي حنّور الشهيرة. تلك الصفحات المئتان، المجلّدة بقماش زغبي أزرق، كانت كنزًا لا يُقدَّر بثمن. لم يكتفِ مؤسّس الفندق بأن عرض مشروعه في تلك المفكّرة، مع بعض الرسوم، بل عرض أيضًا القواعد الأساسيّة التي تعلّمها في المدرسة الفندقيّة في لوزان. كما تحفل أوراق هذه المفكرة بملاحظات وأفكار دُوِّنت يومًا فيوم، في خضمّ العمل، من خلال مراقبة الزبائن.

ينتمي إيلي حنّور المولود في ناري إلى عائلة يهوديّة تعود أصولها إلى إزمير. كان مقدَّرًا له أن يتولّى ذات يوم إدارة متجر المجوهرات الذي يملكه أبوه. غير أنّ فكرة راسخة تملّكته، وهي تأسيس فندق. فندق أبيض بأبواب ونوافذ بلون الخزامى الأزرق، اسمه فندق مهرجان. لم يكن المعنى الاحتفاليّ للكلمة هو ما أوحى إليه بالاسم، بل رنّتها الجهوريّة، فكلمة مهرجان تخفق لدى لفظها كراية مرفرفة. ألا تذكّر كلمة مهرجان بأمراء الهند، ورحلات صيد النمور، والقصور الفخمة التي غذّت أحلام طفولته؟ راح إيلي يتخيّل حروف الميم الكبيرة، مطرّزة بالخطوط المزخرفة على بياضات مؤسّسته المستقبليّة.

بذل إيلي حنّور جهدًا كبيرًا في إقناع أبيه بأنّه سيكون جواهريًّا عديم المهارة بامتياز، بينما أشقّاؤه الصغار لا يتمنّون أكثر من أن ينعموا بالثروة وسط بريق الذهب والماس. في العام 1905، وبعد إلحاح شديد، حظي من والده بالمبلغ المطلوب لإكمال دراسته في المدرسة الفندقيّة في لوزان، في سويسرا. في تلك المؤسّسة التي سبقتها شهرتها، تعلّم حسن استقبال النزلاء، وكيفيّة ترتيب الأسِرَّة بشكل صحيح، وإعداد صلصة بشاميل ناجحة، ووضع لائحة الطعام... وفي تلك المدرسة تعلّم أيضًا المحاسبة، والتاريخ، والجغرافيا، والمراسلة، وفنّ الخطّ، والآداب العامّة، وآداب السلوك، وحتّى الرقص، كما تشهد مفكّرته الزرقاء الشهيرة التي غدت بمثابة كتاب مقدّس بالنسبة إلى صهره ووريثه. إضافةً، دوّنت فيها ملاحظات تنبيهيّة صغيرة، مثلًا: «يجب ألّا ننسى الابتسام عند التكلّم بالهاتف، فالابتسامة تُسمَع».

بعد فترة تدريبيّة دامت ثلاثة أشهر في أحد فنادق زوريخ الفخمة، عاد إيلي حنّور إلى ناري في العام 1908، أكثر عزمًا وتصميمًا على تحقيق مشروعه من أيّ وقت مضى. لم تكن المدينة تعدّ حينذاك سوى أربعين ألف نسمة في غير موسم السياحة، ولم يكن فيها سوى فندقين من الدرجة الأولى. جرت العادة في تلك الحقبة أن يأتي أجانب أثرياء، يرافقهم خادم، لقضاء قسم كبير من فصل الشتاء في البلاد.

ألحّ إيلي على أبيه لنيل حصّته من الإرث، ثمّ ألحّ على «الاعتماد الأشوريّ» للحصول على قرض. كان قد اختار أرضًا بورًا واسعة محاذية للبحر، لا يمكن الإفادة منها إلّا إذا أُلحِق بها شاطئ رملي ناعم. كان الجميع ينصحونه بألّا يشيّد فندقه خارج المدينة، لكن بدون جدوى. كان المبنى الذي كُلِّف بتشييده مهندس معماريّ من أنسبائه، غير متناسق. كان ضيِّقًا جدًّا بالنسبة لطوابقه الأربعة، ولا يحمل سوى حرف «ميم» بسيط فوق مدخله. لكنّ هذا المبنى لم يكن، وفقًا لخرائط إيلي حنّور، سوى الجزء

الأوسط من الفندق، ولا يتضمّن سوى القاعات المشتركة واثنتي عشرة غرفة. أمّا الجناحان الآخران فيأتي دورهما لاحقًا.

كان عدد روّاد الفندق من الأجانب وسكّان المدينة يتزايد باستمرار. شيئًا فشيئًا فرضت تلك المؤسّسة المنظّمة على الطريقة السويسريّة نفسها، بصفتها أفضل فندق في المنطقة. بُني الجناح الأيسر في العام 1912، تلاه الجناح الأيمن بعد فترة قصيرة.

لم يكن التصميم المرسوم على عجل على ورقات المفكّرة الزرقاء من عمل مهندس معماريّ. كما أنّه لا يتطابق مع ما أصبح الفندق عليه بعد إنجاز بنائه، غير أنّ الخطوط العريضة للمشروع كانت ظاهرة فيه. أراد إيلي حنّور مبنًى أوسط تعلوه قبّة، يحيط به من الجانبَيْن جناحان أدنى ارتفاعًا، يتراجعان عنه قليلًا، ولهما شرفات تحيط بها حواجز من أعمدة حجريّة. كانت الواجهة المبنيّة على الطراز النيوكلاسيكيّ بسيطة للغاية، وشبه خالية من الزخرفة، لا يتخلّلها سوى بعض الأطناف والأفاريز المنحوتة.

كانت الصالة المركزيّة بارتفاع المبنى، وهي بمثابة باحة داخليّة تحيط بها الأروقة في كلّ من الطوابق. يقود إليها درج منحنٍ ضخم يتألّف من قوسين متقابلين من الدرجات. حرص المعماريّون على إقامة المصعد في أحد جوانب الصالة لعدم إفساد منظرها العامّ. كان ذلك المصعد أحد المصاعد الأولى التي صنعتها شركة أوتيس الكهربائيّة، وهو مزوّد بأزرار أتوتوماتيكيّة ذات نوابض.

بعد اجتياز البوّابة، يؤدّي ممرّ مفروش بالحصى إلى مستديرة مزروعة بالأزهار تلتفّ حولها السيّارات للوصول إلى درج مدخل الفندق. عند الجهة الأخرى، مقابل البحر، شرفة للتَنَزُّه تعلو فوق الشاطئ بقليل بفعل انحدار الأرض بعض الشيء. الأمر الذي سمح للمهندس المعماريّ بتصميم طابق سفليّ نصف غارق في الأرض، يضمّ المطبخ وغرف الصيانة.

في العام 1913، في طريق العودة من القسطنطينيّة، أقام بيار لوتي لفترة قصيرة في ناري. من مكان إقامته في حيّ المرفأ، وصف بأقسى العبارات فندق مهرجان الذي كان يقتصر حينذاك على المبنى الأوسط. في إحدى روايات أسفاره، هاجم مؤلّف «صيّاد إيسلندا» بكلمات جارحة «هذا البناء البشع، الذي ظهر فجأةً كثؤلول دخيل، لا هدف منه سوى كسب المال وتشويه منظر هذه المدينة الصغيرة الجميلة».

من الواضح أنّه كان يجب تجنّب الإشادة بمواهب بيار لوتي الأدبيّة أمام إيلي حنّور! صاحب مهرجان لم يكنّ سوى الاحتقار للنقيب البحريّ السابق والذي أصبح عضوًا في الأكاديميّة الفرنسيّة. كما لم يفوّت فرصة ليروي على نزلاء فندقه قصّة المؤلّف الذي استلم ذات يوم بطاقة بريديّة موجّهة إلى «بيار لوتو، القضيب البحريّ السابق». كانت تلك طريقته في الإشارة إلى أنّ ذلك الكاتب الرديء يسدّد ضرباته «ما دون الحزام»... هكذا كان إيلي حنّور الذي جرفته مشاعر الكره يتحدّث عن عادات عدوّه «المخالفة للطبيعة»:

– الجميع يعرف أنّ هذا البحّار الذي يمشي كالمرأة، صاحب ميول جنسيّة مزدوجة.

لو أنّ لوتي الذي مات في العام 1923 عاش لفترة أطول، للاحظ أمرًا عجيبًا: تحوّلت فنادق المرفأ القديمة إلى مبانٍ معاصرة، إسمنتيّة بأكملها وذات واجهات زجاجيّة، في حين أنّ فندق مهرجان الذي أضيف إليه جناحان وحديقة رائعة، يبدو وسطها كجوهرة نادرة، ويكاد يكون نصبًا تاريخيًّا! لقد كان يجسّد حقبة زمنية أخرى، أكثر رقّة وأناقة. في مدينة تخلو من المعالم الأثريّة الكبرى، لم يكن الفندق مجرّد محطّة إلزاميّة لعدد من السيّاح، بل كاد أن يكون غايةً في حدّ ذاته. تُذكر في هذا السياق كلمات سيّدة أرستقراطيّة متقدّمة في السنّ من اللوكسمبورغ:

– أنا لا آتي إلى مهرجان لأزور ناري، بل آتي إلى ناري لأقيم في مهرجان.

على رغم مظهره الجذّاب، لم يكن مؤسّس فندق مهرجان مثال الوسامة. لكنّ نسيبته الشابّة التي اقترن بها في العام 1915، كانت قد انتُخبت ملكة جمال ناري قبل ذلك بعام. وعنها ورثت نيسا وجهها الناعم وقوامها الباهر.

عاشت الطفلة الصغيرة في الفندق وعرفت كلّ زاوية فيه. منذ عامها السادس عشر أظهرت مَيلًا إلى فنّ الديكور، وذوقًا مرهفًا لا يخطئ. لم يكن إيلي حنّور ليباشر بأيّ عمل في الفندق من دون استشارتها مسبقًا. ممّا يدين به الفندق لنيسا: ستائر الصالون الإنكليزيّ، أثاث الشرفة وتموّجات الألوان الخزفيّة في الحمّامات المجدَّدة.

كان عدد لا بأس به من شبّان ناري يحلم بالزواج بابنة صاحب مهرجان الوحيدة. أمّا أن يطلب حاييم ليفي يدها، وهو ابن عائلة غير ثريّة، فأمر لا يخلو من الجسارة. بيد أنّ الشابّ الثلاثينيّ تميّز بمعرفته الواسعة لعالم الأعمال، بصفته أحد مستشارَي «الاعتماد الأشوريّ». كان كبار زبائن المصرف يقدّرون فيه كفاءته ودقّته، وتهذيبه الذي يليق بمدير مراسم ملكيّة، ما زاده مزايا على مزايا.

وجد إيلي حنّور الذي بدأ يشعر ببوادر الشيخوخة، في ذلك الشابّ البالغ الأناقة، خلفًا له. احتُفل بزواج حاييم ليفي ونيسا حنّور في 12 سبتمبر 1937، تلته حفلة استقبال كبرى في الفندق بحضور أهالي ناري كلّهم.

دخل المصرفيّ الشابّ إلى مهرجان كمَن يدخل إلى دير، فيخضع لقواعده من دون أن يبحث في تعديلها. كانت قواعد الفندق دستورًا غير مكتوب يتمّ تناقله شفويًّا، وينطبع في سلوك الموظّفين بالتأثير المتبادل.

ما كاد ينقضي عام واحد على زواج ابنته حتّى أُصيب إيلي حنّور بسكتة دماغيّة، فسقط بين ذراعَي مُحاسِبِهِ، الذي كان قد أتاه ليعرض عليه النتائج الماليّة الممتازة لموسم الصيف. حين وصل الطبيب الذي استُدعي على عجل إلى الفندق، كان الأوان قد فات. أُعلِن الحداد ثلاثة أيّام في الفندق، من دون أن يكون لذلك كبير أثر على روّاده. اقتصر الأمر على توقّف ناقوس المطعم عن الرنين، وأشرطة سوداء طوّقت أذرع الخدم.

دُفن إيلي حنّور في مدافن اليهود في ناري، بحضور معظم أعيان المدينة من كافّة الطوائف. حتّى حاكم المدينة حضر مراسم الدفن. جلست نيسا بفستان أسود، وبِلا حُليّ، تتقبّل التعازي بجانب والدتها وزوجها. كانت حاملًا في شهرها الخامس، من دون أن يبدو حمْلُها واضحًا للعيان. ظهر حاييم الذي أطلق على نفسه شهرة ليفي-حنّور منذ زواجه، بملامح رجل متجّهم تلقّى صفعة قاسية من القدر. في الأسبوع التالي، تولّى إدارة مهرجان من دون أن يتسنّى له الوقت الكافي للاستعداد التامّ.

– إدارة الفنادق لا تُرتَجل! كان لوقا يقول، وكأنّه هو نفسه تابع دراسته في معهد عالٍ لإدارة المقاهي والمؤسّسات السياحيّة.

كذلك لم يكن خالي أكثر تسامحًا مع صاحِبَي فندق آخر من الفئة عينها، ألا وهو ال-«سافير بالاس». كان أحدث من فندق مهرجان وأبعد منه عن الأحياء التجاريّة، وله أيضًا شاطئه الخاصّ. من الواضح أنّ مؤسِّسيه، الشقيقين إسكندر – وهما مسيحيّان مثلنا – قد تماديا في اعتماد غرائب الزخرفة والديكور. تميّز فندقهما بالمبالغة في استخدام المرمر الأخضر، والمنجورات الخشبيّة المرصّعة بعروق اللؤلؤ وشتّى أنواع رسوم الأرابسك. شملت هذه الزخرفة الشرقيّة «الصعبة الهضم» كلّ صنابير المياه ومقابض الأبواب، فلقّب لوقا فندقهم ب-«سوق بالاس». لا بدّ من القول بأنّ خالي لم يغفر «للإسكندر

الأكبر» «والإسكندر الأصغر» كما كانا يُلقّبان، استعانتهما بمورّد مشروبات غيره.

لم يكن الشقيقان اسكندر حاضرَيْن على رصيف المرفأ عند رحيل اليهود. ولماذا يحضران؟ فقد أسعدهما وضع فندق مهرجان تحت الحراسة القضائيّة. فبانتظار مداولات القضاء والإدارة وتحديد قيمة التعويض... كانت شركة غربيّة قد خضعت لعقوبة مماثلة قبل عامين بسبب بيعها عتادًا عسكريًّا لإسرائيل وهي لا تزال حتّى الآن تنتظر حلّ قضيّتها. مع ختم فندق مهرجان بالشمع الأحمر، لم يعد هناك منافس لفندق سافير بالاس.

10

في صباح اليوم الذي تلى رحيل اليهود، ارتدى آري مالوميان أجمل قمصانه ذات المربّعات، وبزّة بلون القرفة وانتعل حذاءً أسود وأبيض، وقصد الحلّاق الأرمنيّ في شارع الفنار. عند نحو الحادية عشرة وصل محاسب فندق مهرجان، بذقن حليقة وبشرة معطّرة مرشوشة بالبودرة، إلى مركز المحافظة، وطلب مقابلة حاكم المنطقة. مكث ينتظر حتّى الظهر وسط رواق معتم، بدون أن يُقال له إن كان المحافظ سيستقبله أم لا.

كان المحافظ المعيّن لفترة غير محدودة الآمر الناهي في ناري، وفي جزء من ساحل تلك المنطقة المطلّ على البحر المتوسّط.

– إنّه رجل ذو وزن، سمعْتُهم يقولون. هل يعنون كيلوغراماته المئة والعشرين التي تظهر يوميًّا بحجّة أو بأخرى على صفحات جريدة «أخبار ناري»؟

بعد انتظار طويل، أُدخل المحاسب إلى قاعة مكتب المحافظ الواسعة، حيث وجب عليه أن ينتظر مجدَّدًا ريثما يُنهي سعادته مخابرته الهاتفيّة. أخيرًا، عندما استطاع أن يلقي بردفيه على حافّة كرسيّ وقبّعته الباناما بين ركبتيه ليغمغم طلبه بكلمات هامسة معسولة، كانت الساعة تناهز الثانية عشرة.

– سعادة المحافظ، الدوائر الرسمية التابعة لكم تعرفني، فأنا أملك مبنيين بالقرب من المرفأ، ومبلغًا ادّخرته بطريقة شرعيّة في مصرف «الاعتماد الأشوريّ»، وخبرة كبيرة في إدارة الفنادق، وولاءً تامًّا. دعني أستعيد فندق مهرجان. سأجعله زهرة المؤسّسات في ريف محافظتك، فينعكس مجده على شخصكم الكريم.

نظر المحافظ شزرًا إلى هذا الأرمنيّ القصير القامة، والذي لا يعرفه إلّا من خلال تقارير الشرطة، قبل أن ينفجر غاضبًا. مهرجان؟ وماذا أيضًا! ولماذا لا تطلب «مستودعات الشرق» أيضًا؟ والمصرف، ما دمتَ هنا؟

راح الأرمنيّ يقدّم العذر تلو الآخر. نعم، صحيح. ما كان عليه أبدًا القدوم لإزعاج سعادة المحافظ، فوقته ثمين جدًا. يا لهذا الخطأ! يا لهذا التصرّف غير الواعي! وراح يثني على بُعد نظر المحافظ، وحسن رعاية هذا الحاكم الحكيم الذي وهبنا إيّاه العليّ القدير...

هدأ المحافظ تدريجًا وانتهى به الأمر بأن عبّر للمحاسب عن شعوره بالإحراج. اليهود، الله يعلم إن كانوا يستحقّون الطرد! لكن لا يجوز أن يتمّ هذا الأمر بغتة، ومن دون استشارته أو حتّى إبلاغه، هو المسؤول عن المنطقة! لقد تمادى أولئك السادة كثيرًا في العاصمة.

– لا شكّ بأنّ هذا الأمر محرج جدًّا لسعادتك، غمغم الأرمنيّ. لأنّ السيّاح، وعلى رغم تناقص عددهم منذ الأحداث الأخيرة، ما زالوا يأتون إلى ناري. أمس، وصل عشرون سائحًا بالسّفينة وطلب عدد منهم الذهاب إلى مهرجان فوجدوا أبوابه موصدة. يا ليتكَ رأيتَ حنقهم يا سعادة المحافظ! قد لا يعودون إلى مدينتنا أبدًا. طبعًا إلّا إذا كانت سلطات العاصمة قد تحسّبت لذلك...

– آه، العاصمة! قال المحافظ، وكأنّه لا يريد سماع شيء يتعلّق بأولئك المهرّجين عديمي المسؤولية.

قال ذلك واستغرق في التفكير. ثمّ قرع ناقوسًا فأسرع إليه خادم لتغيير إبريق الشاي.

حمل المحافظ كوبه بين إبهامه والسبّابة، وشفط الشاي بصوت يشبه المضخّة، وكأنّه نسي زائره. حلّ على الغرفة صمت ثقيل لا يعكّره سوى طنين المروحة.

بعد عشر دقائق، عقد صاحب السعادة حاجبيه، وجّه نحو المحاسب إصبعًا مهدِّدة، وقال:

– سيّد مالوميان، لك الإذن بشراء مهرجان. سنحدّد لك السعر لاحقًا. سيكون الفندق من فئة الخمس نجوم من الآن فصاعدًا، وبذلك تعلو مكانته ومكانة ريفنا.

راح المحاسب يُمطِر المحافظ بكلمات الشكر. ثمّ وقف حاملًا قبّعته بيده، وانحنى للمرّة الأخيرة أمام المحافظ، بفم التوى امتنانًا، مستعدًّا ليلثم يد صاحب السعادة.

خرج آري مالوميان من المبنى بعد قليل مرفوع الرأس، بارق العينين، يتبختر كالباشا. شاهده أصحاب الدكاكين في شارع الفنار، الذين كانوا يهمّون بإخفاض ستارات متاجرهم الحديديّة تمهيدًا لاستراحة الظهيرة، وهو يجتاز الشارع بخطوات بطيئة ووجه أمبراطوريّ، مملّسا شاربه الشبيه بشارب الفأر.

بعدها، راجت روايات كثيرة حول ما حدث. لم يشأ أحد التصديق أنّ خطاب مالوميان كان كافيًا لإقناع المحافظ. أكّد بعضهم أنّه وضع بكلّ لباقة وأدب، ظرفًا كبيرًا على مكتب سعادته. لكنّ تلك الفرضيّة غير منطقيّة، فالمحاسب خبير بالعادات المحليّة ولن يجازف بإهانة شخصيّة كالمحافظ. إضافةً إلى ذلك، ثمّة أشكال أخرى للشكر، أكثر أناقةً وكتمانًا، علمًا بأنّ المحافظ يتقاضى عمولة «من تحت الطاولة» لقاء كلّ من الصفقات المهمّة. عند شراء مصرف «الاعتماد الأشوريّ» مثلًا، بلغت حصّته خمسة بالمئة من المبلغ الذي حدّدته اللجنة الوطنية للأملاك الخاضعة للحراسة القضائيّة.

كذلك الأمر، نظريّة الابتزاز بعيدة عن المنطق والواقعية. من الصّعب تخيّل السيّد مالوميان يقول للمحافظ ما معناه: «سيكون مؤسفًا يا سعادة المحافظ، أن تعرف السلطات العليا كم كان على إدارة مهرجان أن تدفع لك سنويًّا لضمان تجديد رخصة الفندق». لم يكن من الوارد التفكير حتّى بتلميح ولو غير مباشر إلى تلك الرشوة. بالفعل، قد تمّت تصفية ثرثارين لأسباب أكثر تفاهة.

التفسير المعقول الوحيد هو أنّ المحافظ شعر بالحرج. في الحقيقة، كان فندق مهرجان يثير إعجابه وارتباكه. قدمه لم تطأه قطّ، بل كان يكتفي باستلام مبلغ شهريّ من السيّد ليفي-حنّور، بواسطة حساب مصرفيّ تحت اسم مستعار. أمّا هذا الأرمنيّ فقد هبط عليه من السماء.

لم يكن أحد في المدينة لينكر أنّ آري مالوميان يعرف دقائق الفندق تمامًا. أما كان يتولّى ومنذ سنوات طوال شؤون المحاسبة وإدارة الأموال والرواتب والتصاريح الضريبيّة؟ بالفعل، كانت كلّ الفواتير والإيصالات تمرّ بين يديه.

ولكن، هل يملك حقًّا المال الكافي لشراء مهرجان؟ لم تلبث الشائعات أن قدّمت جوابًا معقولًا: لن يمتلك المحاسب سوى ثلث الحصص، أمّا الباقي فيتقاسمه عدد من الأفراد المحيطين به. على أيّة حال، بات لأشهر فندق في المنطقة ربّ عمل جديد، وهو السيّد مالوميان.

11

فتح مهرجان أبوابه من جديد في الأسبوع التالي. أُضيفت نجمة خامسة، أكثر بريقًا من الأربع الأخريات، على اللوحة البرونزيّة المثبّتة عند مدخل الفندق. سُمّيت «نجمة المحافظ»، واعتاد الناس أن يتمنّوا، حين يرونها، تحقيق أمنية ما.

كان لوقا في الموقع الأفضل لإطلاعنا على ما يجري في الفندق. خلال غداءات الأحد كنّا نمطره بالأسئلة، كبارًا وصغارًا. كان يملك جوابًا لكلّ شيء، حتّى ولو حملته مخيّلته الواسعة أحيانًا إلى استباق الأمور والإعلان بكثير من التفاصيل عن تغيير وشيك لن يحصل على الإطلاق.

وجب على آري مالوميان إيجاد موظّفين يحلّون محلّ اليهود المرحَّلين. لم يطرح تأمين مدبّرة جديدة للفندق أيّة مشكلة، فقد كُلِّفت بالوظيفة نيفين، معاونة راشيل، والتي يقدّر موظّفو الطوابق لباقتها ورشاقتها.

– المسكينة، هي تستحقّ هذا المنصب! هتفت أمّي، من دون أن تحدّد طبيعة عذابات نسيبتها.

لكنّ تلك كانت مجرّد عادة في الكلام، فأمّي يروقها الحديث عن «المسكينة وردة»، و«المسكين حبيب»، وحتّى عن «الأرشمندريت المسكين»، مع أنّه مكتنز... لعلّها كانت تلمّح إلى الجهود المضنية التي بذلتها نيفين في مدرسة ليفي-حنّور، مرغمة بلا شكّ، لضبط عملها على الإيقاع السويسريّ.

لكنّ المشكلة كمنت في تعيين رئيس موظّفي الاستقبال. كان للسيّد أليكس الكثير من المعاونين، ولم يكن له من نائب. وهل يتّصف شخص واحد في ناري بمهارات السيّد أليكس ومزاياه؟ لعدم توافر خيار أفضل، عهد آري مالوميان بالمنصب إلى أحد أنسبائه، مدير قسم لوازم الخياطة لدى «متاجر داغاليك الكبرى». سافاكيان هذا، لائق المظهر، ويَرطن بعدّة لغات. لم يكن يفقه شيئًا في إدارة الفنادق، لكنّه مشهور بسرعة تلقّنه.

في المطعم والمطبخ، بقي عدد الموظّفين كاملًا. لم يكن من داعٍ لاستبدال المسلمين أو المسيحيّين الذين يقومون بعملهم على أكمل وجه. يوم إعادة الافتتاح، أوقد خَليل، رئيس الطهاة، أفران مطبخه وكأنّ شيئًا لم يكن. كما باشر ممدوح، رئيس النُدُل، عمله كالمعتاد، ببزّة سوداء وربطة عنق بشكل فراشة. أمّا أفراد فريق عملهما والذين اطمأنّوا بعدما خشوا خسارة وظائفهم، فقد راحوا يعملون بطاقةٍ مضاعفة.

بأناقة كاملة طوال أيّام الأسبوع، وشعر ملمّع بال-«بريانتين»، كان السيّد مالوميان يشعّ اعتزازًا وفخرًا، يصدر أمرًا كلّ دقيقة بثقة وحزم قلّ مثيلهما.

– إنّه مدير على الطريقة الأميركيّة، قال لوقا، الذي لا يعرف من أميركا غير الأفلام المترجمة بالعربيّة والفرنسيّة، والتي تُعرض في سينما روكسي.

كان المحاسب السابق يستقبل النزلاء شخصيًّا، ويفاصل المورّدين بنفسه، ويتنقّل بين الغرف ساعة التنظيفات، أو يدخل بغتةً إلى المطبخ ليتذوّق عابسًا حساء اليوم، أو يتحقّق من طهو عجائن الحلوى.

لا بدّ من القول إنّ الظروف سهّلت مهمّته، ففي الأسابيع التي تلت طرد اليهود، تضاءلت حركة السياحة بشكل ملحوظ. لم يزُر ناري سوى بعض المسافرين وكانوا يعامَلون بدلال فائق كما لو أنّهم أطفال مرضى. حال وصولهم إلى الفندق، يسارع إلى سيّارة ال-«بويك» خادمان لمساعدتهم على الترجّل منها، ويتقاسم ثلاثة آخرون حقائبهم. أمّا خدمة المطعم فأشبه بقدّاس يحتفل به جمع من رجال

الدين: يقف المحتفلون بجانب موائد الزبائن، يترصّدون أدنى حركاتهم. ما إن يُشرب بضع قطرات من الكأس، حتّى يُعاد ملأه حتّى الشفة، وما إن يَفرغ طبق حتّى يُخطف من أمام الزبون قبل أن يضع هذا الأخير الشوكة من يده. كان السيّد مالوميان يقوم بجولات مكّوكية بين الطاولات، ويسأل الزبائن عمّا إذا كان الطعام جيِّدا ولذيذًا وكافيًا.

في الحقيقة، هذا التدنّي في عدد السيّاح لا بدّ من أن يكون مؤقّتا. لذا، استغلّ المدير شغور نصف الغرف ليأمر بإعادة طلاء المصاريع كافّة باللون الأخضر. سرعان ما قسمت هذه المبادرة عائلتنا إلى فريقين: الفريق الأزرق (لوقا، حبيب، وردة...) مقابل الفريق الأخضر (فايز، زوزو، أمّي...). سبق لفندق مهرجان أن عرف فترات مماثلة من تراجع الإقبال، فتُسْتَحان الفرصة كلّ مرّة للمباشرة بأعمال صيانة. هكذا، تمّ تركيب الستارة الكبيرة فوق الشرفة، في عهد السيّد ليفي-حنّور، أثناء الحرب. لا شكّ بأنّ العمليّة قد أثارت جدالًا بين روّاد الفندق، كما يشهد على ذلك السجلّ الذهبيّ. في 24 مارس من العام 1945، كتب شخص من بيروت يُدعى البروفسور بستاني: «الخدمة ممتازة، كما كانت دائمًا. لكن اسمحوا لزبون قديم بأن يأسف على (كلمة غير مفهومة) السماء من الشرفة...» كتب الرجل تلك الكلمات بخطّ يشبه خط الأطبّاء في كتابة وصفاتهم. فهل عنى «زرقة» أم «قبّة»؟

منذ تأسيس مهرجان، لم تحمل واجهة الفندق اسمه، بل ظهر فقط حرف «ميم» كبير بالخطّ القوطيّ على مستوى الطابق الثالث. قرّر آري مالوميان استبداله بلافتة حقيقيّة، فأتى عمّال من أحد مشاغل النجارة في ناري، لتركيب أحد عشر حرفًا باللون الأخضر على كامل عرض المبنى الأوسط: «مهرجان بالاس». لقد تمّ احتساب حجم الحروف بدقّة، كما شرح لنا لوقا: بحسب دراسة أميركيّة، يجب أن يكون عرض اللافتة مترًا لكي تُقرأ من مسافة أربعمئة متر.

– مع لافتة كهذه، علّق أبي ساخرًا، لا مجال لإخطائه. لا يمكن لأحد أن يخلط بين مهرجان والجامع أو محطّة الوقود.

إضافة كلمة «بالاس» إنّما كانت تهدف إلى منافسة مؤسّسة الشقيقين إسكندر. لم يكن هناك من سبب لترك فندق «سافير» يحتكر هذه الصفة. كادت الأحرف الإضافيّة الخمس أن تضاعف فاتورة النجّار، علاوةً على مطبوعات الفندق التي لا بدّ من تجديدها، لكنّ السيّد مالوميان كان يأمل أن يحقق مزيدًا من العائدات جرّاء ذلك.

لقد عانى السيّد كرافيلو، البرتغاليّ المقيم في مهرجان، بفعل الأحداث الأخيرة. ها هو يعود إلى الفندق مع كلبه وكناره بعد قضاء بضعة أيّام في المدينة، فيسرّ إلى المدبّرة نيفين:

– أشعر بأنّني عائد من رحلة طويلة، لم يُمَسّ بأي شيء، لكن، يبدو لي وكأنّ كلّ الأمور تبدّلت.

الأمر الأوّل الذي فاجأه هو اختفاء صورة لإيلي حنّور من بهو المدخل. كان أحد أفضل رسّامي البلد قد خلّد مؤسِّس الفندق في نحو عامه الخمسين. ذلك الوجه القاسي الذي يعترضه شارب كبير، كان ليولِّد عند ناظريه انطباعًا بأنّه يراقب حسن سير العمل في الفندق. على الجدار، بقي أثر اللوحة التي رأى السيّد مالوميان أنّه من الحكمة إزالتها لعدم إتاحة المجال أمام احتمال اتّهامه بالصهيونيّة. ولمّا لم يدرِ بما يستبدلها، اشترى لوحة تجريديّة خلال يانصيب النادي الأرمنيّ الخيريّ. الحسنة الوحيدة لتلك اللوحة المؤلّفة من مستطيلات ومعيّنات متداخلة أنها تخلو من أي معنى.

خسر السيّد كرافيلو محاوره اليوميّ، السيّد أليكس، بعدما صارا من أعزّ الأصدقاء. وحتمًا لن يستطيع بعد الظهر محادثة موظّف الاستقبال الجديد الغارق في عمله. على الأرجح، سيدخل الصالون الإنكليزيّ ليسترخي في مقعد وثير، والكلب السَّبنيَليّ عند قدميه. ولمؤاساة نفسه، قد يطلب كوكتيل مهرجان من الساقي.

ناري بدون يهود، هل تبقى ناري؟ سأل كرافيلو نيفين.

12

لم تنقضِ أشهر قليلة حتّى استعادت السياحة نشاطها. كان للمواقع الأثريّة في البلد ما يكفي من الجاذبية ليعود السيّاح، وتعود معهم الأمور عاجلًا أم آجلًا إلى مجراها الطبيعيّ. كما أنّ قرار الحكومة بمنح تأشيرات الدخول مجانًا ساهم في اجتذاب الزوّار الأجانب.

صبّ طرد اليهود في مصلحة الكثيرين في ناري. في مكاتب «مستودعات الشرق» والمصرف والمدارس، شغر عدد من الوظائف. حظي بعض الأشخاص بترقية، وأحيانًا بأكثر. أصبح خالنا فايز الذي حلّ محلّ رئيسه في العمل، مديرًا لقسم الشؤون القانونيّة لدى مصرف «الاعتماد الأشوريّ». بات في منزله ثلاثة خدّام: رجلان وامرأة، إضافة إلى سائق.

– شقيقي في صراع قديم مع البساطة، كان لوقا يقول.

إستفاد أبي أيضًا من ترقية لدى «مستودعات الشرق» ترافقت مع زيادة على الراتب. في المقابل، كان خالي حبيب أشدّ تعلّقًا بعاداته من أن يرغب في ترك وظيفته كأمين مخزن، والتي يشغلها منذ سنوات. لم يقبل إلّا مرغمًا، وبعد إلحاح زوجته، بوظيفة جديدة أعلى راتبًا في القسم عينه. كان تخلّيه عن قسائم تخزين المنتجات الواردة، لتأمين أوامر الطلب الخاصّة بالمنتجات الصادرة، بمثابة تحوّل عاشه بكثير من الألم.

في المدرسة، الأمر سيّان، فقد استفدنا نحن التلاميذ من الفراغ الذي خلّفه بعض الأوائل في الصفّ. في الملعب، احتلّ أبطال جدد في رمي الكلّة مثلّثات اللعب، فراحوا يهدمون أهرام الكلل من مسافة خمسة أمتار، ويحقّقون مكاسب كبيرة باللعب على الطريقة الفرنسيّة أو الإنكليزيّة. على سبيل المزاح والضحك، كنّا ننعتهم باليهود.

برحيل ميشا، افتقدنا فارسًا. لم يكن طارق-بورتوس وسبيرو-دارتانيان يقلّان عنّي حيرة بشأن البديل الذي علينا تأمينه. فنحن لم نفقد أتوس، بل ميشا. بنظرنا، لم يكن أيّ مرشّح قادرًا على أن يحلّ محلّه. في النهاية، قرّرنا البقاء على ما نحن عليه. لن يكون الفرسان سوى ثلاثة.

إنعكس رحيل اليهود المباغت إعفاءً من بعض الديون فشُطب بعضها بغياب الدائنين. لم يأسف أحد لطرد بناروش، والذي راجت حوله شائعات كثيرة. كان ذلك المُرابي عديم الأخلاق يقرض الأموال بفوائد تزيد عن الثلاثين بالمئة، لا يعرف الشفقة ولا الرحمة مع زبائنه، بعدما يرغمهم على توقيع سندات تحمل الكثير من الأفخاخ. وقع كثيرون من أفراد عائلتنا ضحايا له في الماضي، لكنّ ذلك كان من المواضيع المحرّمة التي لا يجوز ذكرها أمام الأطفال.

لم يستطِع لوقا الحصول على قرض مصرفيّ لإطلاق مشروع نياغارا، فوقع على الأرجح في حبائل بناروش الرهيب.

– هل تريد أن يتورّط «الاعتماد المصرفيّ» في مشروع بهذه الهشاشة، بدون أيّة ضمانة؟ سأله فايز.

كان مركزه الوظيفي يسمح له بالتوسّط لدى القسم المختصّ بتقديم القروض، فهو رئيس قسم الشؤون القانونيّة، لكنّ نزاهته العالية تحول دون أن يوصي بمشروع لا يثق به. لعلّها كانت الفرصة لإقناع أخيه بتغيير مهنته، فهو يعتبر أنّ لوقا يستحقّ أكثر بكثير من أن ينقل صناديق المشروبات من مكان إلى آخر. كان قد اقترح عليه قبل بضعة أشهر تقديم طلب توظيف لدى «متاجر داغاليك الكبرى»:

– هم يريدون تطوير قسم بيع الأسرّة لديهم. أعرف مسؤول المبيعات هناك، ربّما يعرض عليك وظيفة جيّدة.

– إما مدير عامّ أو لا شيء! أجاب لوقا ممازحًا، فقد كان يفضّل البقاء مفلِسًا على الخضوع لقيود عمل مأجور.

أُطلِق مشروب نياغارا برأسمال جدّ ضئيل في يناير من العام 1957، معبَّأ في زجاجات عاديّة، باللون البنّي لنكهة البرتقال، واللون الأخضر لنكهة الحامض. لم يستطِع لوقا أن يحصل من المصنع على زجاجة بلون الخزامى الذي كان يفضّله.

توخًّيا للتوفير، اقتصرت الحملة الإعلانيّة على وريقات صغيرة وزّعتها جرائد ناري على مدى ثلاثة أيّام. أمّا شعار «نياغارا، طعم جديد»، فلم يكن نافعًا. كان بوسع لوقا الاعتماد على أبناء شقيقيه وشقيقته للتغنّي بصفات ماركته في ملعب المدرسة، لكنّ ذلك لم يكن كافيًا لإحداث هزّة في سوق المشروبات الغازيّة. لم ينجح إلّا في تمرير بعض صناديق المشروب، من جملة صناديق المشروبات الأخرى، إلى زبائنه وبسعر زهيد. ومع ذلك، بقي متفائلًا، ومتمسَّكا بحجج قويّة:

– كوكا-كولا بدأت صغيرة أيضًا.

كثرت تعليقات أفراد العائلة. راح خالي حبيب ينتف شعره، فيما أخذ أبي الذي كان يتسلّى بمراقبة فشل مشروع شقيق زوجته، يتحدّث عن «نضوب شلّالات نياغارا». أمّا أنا فقد رفضت الاعتراف بفشل خالي المفضّل، وتعهُّدت بألّا أشرب غير النياغارا.

13

بعد ظهر أحد الأيّام، رنّ لوقا جرس المنزل مرّات عدّة، ليعلن لنا بسرور كبير:

– أدعوكم جميعًا إلى مهرجان.

قوبل هذا الاقتراح بصمت ذاهل قطعه صوت أمّي:

– هل جننت؟ ستجرّ على نفسك الإفلاس!

إبتسم لوقا ابتسامة رجل شديد الاعتداد بنفسه ويدرك تمامًا ماذا يفعل.

– إنتظرني ريثما أرتدي ملابسي على الأقلّ، رجته أمّي، ودع الوقت للأولاد ليغتسلوا...

إلى مهرجان! سنذهب إلى فندق مهرجان! سرعان ما ساد الهرج والمرج. تعاقبنا على الاستحمام، وارتدينا قمصاننا القصيرة الأكمام، وسراويلنا البيضاء الخاصّة بيوم الأحد.

كيف لي أن أنسى دخولنا إلى باحة الفندق؟ البوّابة المفتوحة، صرير الحصى تحت نعالنا، خرير النوافير، والنسيم الدافئ المعطّر برائحة الياسمين...

وقف السيّد مالوميان يمدّ ذراعيه نحونا بتصنّع، من دون أن ندري ما إذا كان ذلك يعني «أهلًا وسهلًا بكم» أو «لا، إيّاكم والدخول». لكنّنا اجتزنا البوّابة، وبتنا في الداخل، حائمين كقفير من النحل حول لوقا، الذي راح يوزّعنا بكلّ ثقة وعزم على المقاعد.

كانت المقاعد من الحديد المخرّم، تغطّيها وسائد حريريّة الملمس. تمدَّد خالي على أحدها كالباشا، حتّى ليظنّ المرء أنّه أمضى حياته كلّها في مهرجان، مع أنّ أصابعه المذهولة لم تتفكّ تتلمّس تطريزات غطاء المائدة. بلهجة صاحب سلطة، طلب للجميع زجاجات نياغارا، وصلت على صينيّة من الفضّة. حين أحضر النادل المرصبان ومقرمشات السمسم لنتناولها مع الشراب، قالت أمّي قلقةً:

– لكنّك يا لوقا لم تطلب...

إبتسم النادل وسار مبتعدًا.

ثمّ فوجئنا بسماع عزف على الأكورديون. كانت الآنسة باتانيان، أمينة سرّ النادي الأرمنيّ، ذات الشاربين، قد استهلّت لحن بولكا صاخبًا على آلتها الموسيقية المعلّقة بكتفيها. بعد انحسار المفاجأة، جعلَنا ذلك الصخَب نشعر بالارتياح. بات بوسعنا أن نزيح كراسينا، ونضحك ونتكلّم من دون أن يلازمنا الشعور بأنّنا ندنّس كاتدرائيّة.

جِلتُ بناظري بحثًا عن بيانو «بلايل» الذي سمعت عنه الكثير. قال لنا لوقا إنّ مالكه تغيّر، وإنّ غطاءه القماشيّ لم يُرفع عنه منذ رحيل شلومو. في الواقع، حين علم سعد عبد الحميد السيّد برغبة السيّد مالوميان في بيع البيانو، عرض عليه سعرًا مُغرِيًا. سُرّ الأرمنيّ بالعرض وأمر بتسليمه البيانو في اليوم عينه، فتمّ نقلُه إلى الفيلا الخلّابة التي يقطنها سليل النبيّ محمّد عند الجهة الأخرى من درب «آكلي لحوم البشر».

كان لثروة سعد عبد الحميد السيّد صلة مؤكّدة بالاحترام العميق الذي يوحي به للبالغين في محيطي. وقد قيل إنّه «ابن عائلة كبيرة»، «ابن أصول».

لكنّ «كبيرة» هنا لم تكن تعني عدد الأولاد ولا عراقة السلالة، بل حجم الأملاك وضخامة الحساب

المصرفيّ. كما أنّ لا علاقة لكلمة «أصول» بجذور الشخص وإنّما بما يمتلكه من أصول وأملاك.

تاريخ العائلة هو المسؤول جزئيًّا عن هذا التقدير لكبار الأثرياء. لثلاثة أو أربعة أجيال عرفت عائلتنا، إن من جهة الأب أو من جهة الأمّ، تقلّبات واضحة في الأحوال الماديّة. كانت الفترات العِجاف ترغمنا على تغيير عاداتنا، ممّا يولّد شعورًا عميقًا بالألم، لا سيّما وأنّنا ننتمي إلى طائفة من الأقليّات، حيث يلعب المال دورًا أساسيًّا. حين تنتمي عائلة ما إلى جماعة صغيرة، فعليها أن تبدو بصورة أكبر من صورتها الحقيقية.

ذلك كلّه كان يستتبع سلوكيّات متناقضة تحول دون تصنيف هذا الفرد أو ذاك بالمستوى الاجتماعيّ الصحيح. كان الخوف من العوز يمتزج بحبّ الظهور وإثارة إعجاب الآخرين. في حين كان انعدام الأمان وضيق الحال يدفع بعض الأشخاص إلى الحذر والادّخار، كان البعض الآخر ينفقون كلّ ما يكسبون. يجب حفظ القرش الأبيض لليوم الأسود... ومع ذلك، برغم الإفلاس، كان البعض يقيمون الولائم، ويبالغون في الإنفاق بهدف لفت الأنظار. برغم الديون، كان البعض يصرّون على الاختيال كالباشاوات.

14

لعلّ لوقا حطّم الأرقام القياسيّة في الخفّة والنَّزَق والرغبات العابرة، إلّا أنّه لم يكن الوحيد الذي يتَّصف باللامبالاة. مع مرور الزمن، صار سلوك البالغين المحيطين بنا يُحيّرني. كانوا يعيشون في قوقعتهم الخاصّة، قوقعة كوسموبوليتيّة مختلطة، ولكنّها تبقى قوقعة. أم أنّهم يعيشون مصرّين على تجاهل جزء من الحقيقة. وخير دليل، تقييمهم لرواية فورينبيك. تلك الرواية الآسرة، التي حاولتُ أثناء مراهقتي قراءتها ولم أوَفَّق، والتي لم أستطع الإمعان في صفحاتها إلّا بعد وقت طويل.

لقد أقام ذلك الكاتب البلجيكيّ الشابّ بضعة أسابيع في ناري سنة 1936، حقبة زاهية آنذاك. بين البحر والصحراء كانت ناري مدينة خضراء، تزيّنها الزهور. مدينة مَرِحة ومفتوحة على العالم. لطالما شعرت الأقليّات المقيمة فيها بالأمان. كان المسيحيّون والمسلمون واليهود، سواء من أبناء المدينة الأصليّين أم من الأجانب أم بدون جنسيّة، يعرفون بعضهم بعضًا، يتصاحبون ويتبادلون الاحترام.

غير أنّ فورينبيك رسم ناري مدينةً محمومة ومضطربة، تقطّع أوصالَها حدودٌ تكاد تكون محكمة الإغلاق. منذ الصفحات الأولى لرواية «ناريبوليس» التي تنتهي بمأساة، يخيّم عنفٌ صامت. نجد فيها عميانًا، كسحاء، أطفالًا معذّبين، سكّيرين، حشّاشين، نصّابين، مهلوسين يزعمون أنّهم يرون الله، متعصّبين دينيًّا، رجالًا يبيعون أرواحهم للشيطان، ونساء يبعْنَ أجسادهنّ لقاء لقمة خبز... فهل استوحى فورينبيك روايته هذه من أزقّة البؤس في المدينة حيث قضى أوقاتًا كثيرة؟

أغاظت رواية فورينبيك الناريين فاتّهموا كاتبها بأنّه رسم عنهم صورة من البغاء والطمع وعدم التسامح. أعني الناريين الذين قرأوا الرواية... كان والدي شديد القسوة في حكمه على هذا الكتاب الضخم الذي يتألّف من ستّمئة وخمسين صفحة، والذي اكتفى منه بتقليب أوراقه لا أكثر. أمّا خالي فايز، فقد أعلن بصوت مسرحيّ:

– محال أن يدخل هذا الكتاب التافه المنزل! لا أريد أن يقرأ أولادي هذه الترّهات!

المدهش أنّ لوقا كان أكثر اعتدالًا، واكتفى بوصف الرواية بالمضجرة. كما أكّد أنّه لم يستطع تجاوز صفحاتها الخمسين الأولى. أمّا عمّاتي فلم يجرؤن قطّ على شراء ذلك الكتاب الذي حرّم سلف الأرشمندريت الحاليّ قراءته، منذ صدوره. غير أنّني شبه متأكّد من أنّ وردة تدبّرت أمرها لقراءته، ولو كلّفها ذلك صدمة تلو الصدمة.

شكّل ماخور شارع دبّور إطارًا لعدّة مشاهد في رواية «ناريبوليس». إذ تُخبرنا الرواية مثلًا بأنّ قوّادة تلك الحقبة، والسابقة لعصرها، كانت تُشرِك نزيلاتها بالمداخيل الماليّة، ما يضاعف من حماستهنّ في العمل، على ما يبدو. لكنّنا غير مضطرّين إلى تصديق هذا الخبر.

أكثر ما كان يزعج الناريين الأشدّ تقليدًا للغرب في سلوكهم، هو دقّة وصف ذلك البلجيكيّ اللعين لهم، وبالتحديد احتقارهم الحقيقيّ أو المتصنّع تجاه مسلمي الدخل المحدود، والذين كانوا يطلقون عليهم تسمية «العرب» في أوساطهم. لكنّ رواية «ناريبوليس» لم توفّر المسلمين أكثر من اليهود أو المسيحيّين على اختلاف مشاربهم. على مرّ صفحاتها، بدا أنّ كلّ طائفة تخشى الأخرى، بمزيج من الغيرة والنفور، إن لم نقل بمزيج من المقت والكراهية.

أصرّ منتقدو فورينبيك على الأخطاء التي يتضمّنها كتابه، ظنًّا منهم بأنّهم يستطيعون بذلك التقليل من أهميّة الكتاب وقيمته. لم تسلم ولا حتى شخصيّة واحدة من مجهرهم الذي كشف المغالطات التاريخيّة، أو الترجمات غير الدقيقة للتعابير العربيّة، أو الأخطاء في تهجئة أسماء الشوارع. لكنّ

«ناريبوليس» ليست دراسة في علم الاجتماع أو تقريرًا صحفيًّا. فالكاتب رأى ما أراد رؤيته، وتخيّل الباقي. ليس من قبيل المصادفة أن يثير عمله الأدبيّ الذي نُشر في باريس وتُرجم إلى عدّة لغات، حماسة الكثير من القرّاء الأوروبّيين. لامست تلك الرواية التي زيّنها أسلوب رائع في الكتابة، حدودَ الأدب الخياليّ، حيث تبرز مدينة ناري بدور الشخصيّة الرئيسيّة.

لم يؤلّف فورينبيك سوى كتاب واحد، فقد أدركته المنيّة في ربيع العام 1940، بعد أقلّ من عامين على نشر «ناريبوليس». جاء في المقال الذي نعاه في جريدة «أخبار ناري» أنّ الكاتب، وهو ابن أحد صناعيي شارلروا، قد عاش كالرحّالة في آسيا قبل أن يقيم في ناري، وقد توفّي في بروكسل وهو لم يبلغ عامه السابع والعشرين بعد. أضاف المقال بشيءٍ من المراعاة: «لقد أسهم كتابه في تعريف العالم بمدينتنا، حتى ولو صَعُب على المدينة أن تتعرَّف على نفسها في ما كتبه». ومع ذلك فقد استهجن بعض القرّاء هذا المقال، وكتبوا إلى الجريدة مستنكرين.

وصف فورينبيك وبأدقّ التفاصيل، مقهى «دميانوس» حيث تدور مشاهد عدّة من روايته. قدّم صورة حقيقيّة للكراسي ذات الخشب المنحني، والنقوش والرسوم على بلاط الأرض، والآليّة الفريدة لمروحة المقهى.

فور وصولهم إلى ناري، كان السيّاح ممّن قرأوا الرواية، يطلبون الذهاب إلى مقهى «دميانوس». حين يُقال لهم إنّ ذلك المقهى لا وجود له، يُصابون بخيبة أمل كبرى. حتّى أنّ قارئًا سويسريًّا وجّه رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى كاتب الرواية، يطالبه فيها بتعويضه نفقات السفر إلى ناري...

خطرت لأحد يونانيّي المدينة فكرة تأسيس مقهى باسم «دميانوس»، مطابق تمامًا للأوصاف الواردة في الرواية. إنّه العالَم مقلوب رأسًا على عقب: الحقيقة تستلهم الخيال. لم يجد صاحب المقهى صعوبة في العثور على قطع الأثاث والبلاط المذكورة في الرواية. لكنّ الصعوبة كانت في المروحة التي اخترع لها الكاتب شكلًا فريدًا، فاكتفى اليونانيّ بمروحة عاديّة ذات شفرات ثلاث. إحتلّت جداريّة بحريّة حملت توقيع رسّام من المدينة، حائطًا بكامله، وقد رُسمت فيها اللقاءات السرّية بين صموئيل وحنان بطلَي الرواية. ولا يظهر في تلك اللوحة سوى ظلّيهما خلف الحصن.

إفتُتح مقهى «دميانوس» في العام 1946، عند المستديرة الأولى من شارع الفنار، وسرعان ما أصبح محطّة ضروريّة للسيّاح الأجانب الراغبين في تخليد اللحظة. قلائل هم السيّاح الذين غامروا بقراءة صفحات الرواية الستّمئة والخمسين. لكنّ أدلّاء السياحة الذين ليس لديهم الكثير ممّا يثيرون به اهتمام الأجانب في ناري، كانوا يذكرون مقهى «دميانوس» من بين الأماكن التي يجب عدم تفويتها، شأنه شأن المعبد الإغريقيّ الصغير، أو الحصن العربيّ، أو فندق مهرجان. هذا ما جعل المقهى يستقطب عددًا من السيّاح يفوق عدد قرّاء «ناريبوليس».

لم يطأ أحد من أفراد عائلتنا ذلك المقهى.

– كلّ شيء في مقهى «دميانوس» زائف، كان أبي يقول: حتّى إنّني أُرجِّح أن تكون معجّناته مصنوعة من الورق.

15

صار لوقا يتردّد مرّات عدّة في الأسبوع إلى مهرجان، غالبًا في فترة العصر. لم تكن زيارته إلى الفندق زيارة مورّد اعتياديّ أو زبون كسائر الزبائن. فما إن يجتاز العتبة، حتّى يوحي بأنّه في منزله: يحادث الحارس، أو يقترح أمرًا ما على البستانيّ، أو يطلب إلى الخادم إزاحة مقعد أو جمع طاولتين... كان السيّد مالوميان يراقب هذه المشاهد من درج المدخل، راسمًا ابتسامة على وجهه أو ملوِّحًا بإشارة ودّيّة من يده، لكنّ حركاته كانت تشي بانزعاجه.

إعتاد والداي اصطحابنا إلى فندق مهرجان، حتّى من دون لوقا، بعدما تحسّن وضع أبي الماليّ، وانخفضت أسعار المشروبات. بات ممكنًا شراء تذاكر تسمح للأولاد بالذهاب إلى المسبح، شرط أن يعتمروا قبّعة استحمام وأن يُحسنوا التصرّف. منحتنا السباحة في المياه الحلوة أحاسيس جديدة، فعلى عكس اليود الذي لطالما مدح أبي مزاياه، كان للكلور رائحة تكاد تُلمس، وأصبحتُ أربط بين هذه الرائحة وبين فندق مهرجان.

شيئًا فشيئًا، أصبحت حديقة الفندق ملعبنا. كان مكاننا المفضَّل الجزء الشماليّ منها، الجزء الذي لطالما تلصَّصنا عليه من خلال قضبان الباب الصغير. بات علينا الاعتراف بالأمر الواقع، فالكوخ الخشبيّ الشهير الذي لطالما ألهب مخيّلاتنا، لم يكن سوى مستودع للعدّة مهجور منذ سنوات. جعله الأصغر سنًّا بيننا قلعةً، يدافع عنها بعضهم ويحاصرها بعضهم الآخر. فيما وجد فيه رفاقنا الأكبر سنًا، فتيانًا وفتيات، مخبأً يختبرون فيه قبلاتهم الأولى. لقد أجمع الجميع على أنّ ماريتزا، وهي إحدى بنات شقيق سافاكيان رئيس موظّفي الاستقبال، هي صاحبة القبلة الأفضل. غير أنّني لم أقدّر كثيرًا أسلوبها في ملاصقتي، وهي تمدّ شفتيها وتغمض عينيها نصف إغماضة. أمّا أنا، فكنت من هواة الحبّ العذريّ. لم تفارقني ذكرى نيسا ليفي-حنّور الباهرة يوم رحيلها عن ناري، بفستانها الأخضر وقبّعتها البيضاء، وكم تخيّلتها تخرج من بين المسافرين وتأتي إليّ...

إمتنع خالي فايز لأسابيع عدّة عن الذهاب إلى مهرجان، استهجانًا للمنصب الرفيع الذي بلغه السيّد مالوميان. إلّا أنّه اضطرّ في النهاية إلى الإذعان، فالحياة الاجتماعيّة بدأت تستعيد مجراها. في غياب اليهود، نشأت توازنات اجتماعيّة جديدة حول بعض الشخصيّات مثل سعد عبد الحميد السيّد. حماسة سليل النبيّ في لعب البريدج لم تفتر، وبقي مرجعًا في مجال الأناقة.

هكذا، عاد فايز وزوجته للظهور في الفندق، حتّى ولو كان وجود أفراد العائلة الآخرين ليزعجهما. لكنّهما كانا يتعمّدان عدم المجيء إلّا في أوقات معيّنة للعب البريدج أو كرة المضرب، أو لشرب الشاي مع أشخاص من عالمهما، أو تناول العشاء في المطعم.

منذ ذلك الوقت، انقسم فندق مهرجان إلى قسمين، أو درجتين إذا جاز التعبير: درجة أولى مخصّصة للزبائن القادرين على دفع ثمن أغلى، ودرجة ثانية، أقلّ تكلفة، لاجتذاب زبائن جدد. هكذا، كانت الجهة الغربيّة من المسبح تجمع أبناء الطبقة «الراقية» كخالي فايز وزوجته، في حين كنّا نحن نرتاد الجهة المقابلة. لم تخلُ الدرجة الثانية من بعض الامتيازات والفوائد، إذ كنّا نستطيع أن نشتري السندويشات والمشروبات بأنفسنا من البار، ونعود بها إلى مائدتنا. أمّا زبائن الدرجة الأولى فكُلِّف بخدمتهم أحد عاملَي البار، غير أنّه كان مضطرًّا في كلّ مرّة أن يلتفّ حول المسبح حاملًا صينية واحدة، لكي يصل إليهم. كان ذلك أقلّ سرعة وأكثر تكلفة في آنٍ معًا.

كذلك الأمر، برزت قواعد تفرقة شبيهة على شاطئ البحر. نأى الأثرياء بأنفسهم تلقائيًّا عند آخر الشاطئ. ولمّا كان الخادم المختصّ يوليهم عنايته الكاملة، لم يكن ينقصهم لا كرسيّ طويل ولا مظلّة

ذات شراريب.

باختصار، لم تعد الحدود تفصل فندق مهرجان عن العالم الخارجيّ، بل باتت تعبره.

طوى الزمن عبارات الاحتقار التي كان خالي فايز يتلفّظ بها بحقّ السيّد مالوميان. فقد تعرّف بالمدير الجديد، وبات يحادثه بانتظام، ويشيد بمهاراته الإداريّة. في خلال الغداء، ذات يوم أحد، سمعناه يقول بنبرة غامضة:

– مالوميان بعيد النظر. إنّه صاحب مشاريع.

سألناه بإلحاح مستوضحين، لكنّه لم يشأ أن يبوح بشيء.

قامت عمّاتي بزيارتهنّ الأولى إلى فندق مهرجان بعد ظهر يوم من أيّام يونيو، على متن سيّارة ال-«بيجو» السوداء الصغيرة التي تقودها وردة. إلتفّت السيّارة ثلاث مرّات حول المستديرة الرئيسيّة، وكأنّها تبحث عن طريقها، لتتوقّف متحشرجةً في الموقف. إنقضت دقائق عدّة قبل أن تخرج راكباتها، ربّما لكي يسرِّحْنَ شعورهنّ مرّة أخيرة قبل الظهور على الملأ. كانت النساء الأربع يرتدين فساتين ذات أزهار، وكأنّها قُصَّت من قطعة قماش واحدة.

– أنتنّ باقة رائعة يا عزيزاتي! هتف لوقا الذي أسرع لملاقاتهنّ.

كان شقيقه فايز يراقب هذا المشهد من الضفّة الغربيّة لحوض السباحة، متجهّم الوجه. لقد بات مهرجان يستقبل أيًّا كان! لا شكّ في أنّه اعتبر وجود هؤلاء المتزمّتات الأربع، الزاهرات الفساتين، أمرًا غير لائق البتّة.

ما كادت مريم، كبرى عمّاتي، تطأ الأرض حتّى انكسر كعب حذائها على الحصى، فتلقّفها لوقا في اللحظة الأخيرة قبل سقوطها. مرَّت الحادثة على خير ما يرام، لكنّها فضّلت الاتّكاء إلى ذراعه لبلوغ الجهة الشرقيّة من المسبح، بأمان وسلامة.

– هذا ذكّرني بسقطة السيّدة بومون لاتور على متن «سانتا لوتشيا» في العام 1937، قالت زوزو حالما جلسنَ إلى الطاولة. كنّا نشاهد يومذاك شبَّانا يمارسون لعبة قفز الحجلة تحت إشراف معاون بحريّ، وفجأةً...

كانت تروي تلك القصّة للمرّة المئة، مضيفةً إليها عناصر جديدة. لكنّ شقيقاتها الثلاث بقينَ جامدات كالصخر، وكأنَّ سمّاعاتهنّ تعطّلت فجأةً. وحده لوقا استطاع إيقاف الأسطوانة بعبارةٍ فظّة جعلت زوزو تحمرّ خجلًا واضطرابًا.

حين عادت عمّاتي إلى موقف السيّارات الصغير، كانت مريم تسير بصورة طبيعيّة. أثناء وجودهنّ في الفندق، عُهِد بالحذاء المكسور الكعب إلى أحمد الغزال الذي هرع إلى المدينة لتصليحه: لقد ظلّ مهرجان محافظًا على شهرة التميّز التي لطالما تمتّع بها. وذلك وفق توصيات إيلي ليفي-حنّور في المفكّرة الزغبيّة الزرقاء: «يجب ألّا يحتفظ الزبون ولو بأدنى ذكرى سيّئة عن زيارته للفندق. إذا شاء سوء الحظّ أن يقع ضحيّة حادث غير سارّ، فيجب بذل كلّ جهد ممكن لتحويل هذه التجربة السيّئة إلى ذكرى جميلة لا تُنسى».

في الواقع، قد تسنّى لخالي فايز أن يتحقّق بنفسه من الأمر. أثناء حفلة عشاء، قذفت حركة خرقاء من جاره بمحتوى كأس النبيذ الأحمر على سترته الساتان البيضاء. على الفور حضر رئيس النُدل وأخذها منه، ثمّ استدعى المدبّرة التي أرسلت السترة المتّسخة إلى مصبغة الفندق. وما هي إلّا نصف الساعة حتّى عاد فايز لارتداء سترة ناصعة البياض. كان فايز يروي تلك الحادثة باستعلائه المعهود:

– لَكَم كان مؤسفًا لو أنّني خسرتُ سترة أنيقة من هذا النوع. لو تعرفون سعر هذا القماش...
– لقد أعادوها جديدة لك، كان لوقا يعلّق ساخرًا. ليتك استغلّيت الفرصة لتعطيهم سروالك أيضًا.

16

في شتاء ذلك العام، ظهرت عندي تأتأةٌ خفيفة لم أفطن إليها في الحال. كلّفني هذا العيب في النطق سخرية رفاقي في المدرسة ولكنّني غالبًا ما كنت أنجح في إخفائه متجنِّبا التلفّظ ببعض الكلمات. على سبيل المثال، بدلًا من قول كلمة «إفطار»، وخوفًا من تعثّري بالمقطع اللفظيّ الأوّل فيها، أقول «طعام»، أو ألجأ إلى التورية والتلميح. كان هذا التمرين المضني يرغمني على البقاء دائمًا في حالة تيقُّظ، وأن أزِنَ كلامي مطوَّلًا قبل النطق به. «أن أزِنَ كلامي»... لم يسبق أن بدا أيّ قول في محلّه بهذا القدر.

النتيجة الإيجابيّة الوحيدة لتلك التأتأة المرعبة، كانت أنّني أغنيت مفرداتي. دأبتُ على البحث عن مترادفات أو السعي لابتكار صيغ بديلة. قد يظنّ مَن كان يسمعني أنّني أفتقر إلى المفردات. لكنّ العكس هو الصحيح تمامًا، فقد كنت أملك احتياطيًّا كبيرًا منها كي لا أصطدم بصعوبة على الإطلاق.

وذات يوم أحدٍ، حيث كنّا مع والدي أمام «مخازن داغاليك الكبرى»، أتى أحد معارفه لإلقاء التحيّة. كان يُتأتئ. لم أحتمل ذلك. شعرت بالخجل نيابةً عنه، ولمجرّد التفكير في أن أُقارَن به. أحسستُ بالدم يتدفّق إلى وجنتيّ.

كنت أواجه صعوبة في لفظ الحروف الصامتة، في الصفّ خصوصًا، حين يُطلب إليّ التعبير أمام رفاقي. قبل ذلك، كنت طالبًا بارعًا، لكنّني بدأت أتهرّب من الأسئلة الشفهيّة بأعذار مختلفة، وهذا ما كلّفني عددًا كبيرًا من العلامات السيّئة. كنت أعوّض عنها في الإنشاء والرسم والرياضة.

لم يعد واردًا بالنسبة إليّ أن أشارك في المسرحيّة التي ستُقدَّم في نهاية العام المدرسيّ. لكي أتجنَّب التمارين وأتخلّى عن دوري رحتُ أتذرّع بصداع أو ببحّة. حتّى أنّني تظاهرت ذات مرّة بالسقوط على السلالم، مؤكّدا بذلك مواهبي في التمثيل، والتي لن أبلغ بها خشبة المسرح، لسوء الحظّ...

كنت أتعثّر بخاصّة في الكلمات الطويلة. بدءًا بكلمة «مهرجان»، والتي استبدلتُها نهائيًّا بكلمة «الفندق». صحيح أنّه ليس في ذهني سوى فندق واحد، لكنّ نكهة الاسم كلّها كانت تضيع بهذا الاستبدال، وهو ما أضفى على جملي إيقاعًا مضحكًا كنت أوّل من شعر به.

لم أبُح بحقيقة معاناتي لأحد، كما حنقت على والديّ لأنّهما لم يلاحظاها، أو لم يفعلا شيئًا لتخليصي من تلك العاهة. كانا يقولان لي: «كفى غمغمة!» أو «كفى تلعثمًا! تكلّم بوضوح». لكنّهما لم يتلفّظا أبدًا بكلمة «تأتأة».

ربّما كان لصمتي أن يمرّ من دون أن يلاحظه أحد تقريبًا لو أنّني وسط أناس يتّصفون بالرزانة وقلّة الثرثرة. لكنّنا كُنّا نعيش في عالم طلق اللسان وذي حيويّة مفرطة. فالكلام كان أوّل الفنون الجميلة في عائلاتنا. كلّ شخص لديه ما يقوله، ويتفنّن في المشاركة بالحديث الدائر. لوقا كان الأوّل بامتياز في هذا الفنّ. في جعبته دومًا ما يجتذب به الانتباه، كأن يروي مثلًا قصّة مدهشة أو غير معروفة، وبذلك يفرض كاريسمه بسهولة على جمهور مستمعيه. لطالما جذبتني رخامة صوته وانسياب كلامه، وكنت مستعدًّا للتضحية بأيّ شيء من أجل التشبّه به.

– كفى تأتأة! صاح بي طارق-بورتوس بانزعاج شديد، في أحد الأيّام.

ظنّ أنّني أتصنّع، لكنّه شيئًا فشيئًا أدرك أنّ الأمر أقوى منّي. لاحظتُ أنّه يتأتئ أحيانًا هو الآخر حين نكون وحدنا معًا، وكأنّما للتخفيف من وطأة ما أعانيه. تأثّرت لبادرة الصداقة هذه، وشعرت بالمهانة لأنّني السبب.

في نهاية أحد الأسابيع، ظننتُ أنّني وجدتُ الحلّ الناجع في «أخبار ناري». كانت الجريدة تخصّص كلّ أسبوع، زاوية للأولاد، تتألّف من ألغاز وأحاج وبعض أخبار الرياضة. لكنّ مقالًا في الصفحة المقابلة هو ما لفت انتباهي يومذاك. كان يتناول «أشهر المتأتئين في التاريخ». شعرت ببعض السلوى حين عرفت أنّ أشخاصًا لامعين مثل تشرشل، نيوتن، أينشتاين، روسو، ونابوليون قد عانوا ما أعانيه. كذلك تحدّثت الجريدة عن إغريقيّ يدعى ديموستين، لم أدرِ بوجوده من قبل، وقد تميّز في العصور القديمة بخطبه السياسيّة. كان ديموستين يعاني عيبًا في النطق – لم يحدِّد المقال طبيعته – لكنّه تغلّب عليه بتدريب نفسه على إلقاء خطابات بكاملها وهو يضع في فمه حصى.

على الفور ركبت درّاجتي وقصدت «درب آكلي لحوم البشر»، حيث كنت واثقًا من أنّني سأجد المادّة المطلوبة. لم أكلّف نفسي حتّى عناء غسل الحصوات الصغيرة التي لملمتها من هنا وهناك. حاولت أن أتلو قصيدة «البحيرة» للامارتين، والحصى في فمي. ما كدت أبدأ بالمقطع الأوّل حتّى تخلّيت عن الأمر لأنّني أوشكتُ التقيّؤ. كانت تلك التجربة الكارثيّة مصيبة أخرى تضاف إلى محنتي.

17

غالبًا ما كانت الأحاديث العائليّة تدور حول تدابير مكافحة الهدر التي شرع بها السيّد مالوميان. بحسب خالي فايز، الذي «لم يعد يقسم إلّا باسم» الرجل الأرمنيّ، فإنّ هذا الأخير كان يكرّس لياليه لاحتساب «أهداف المردوديّة»:

– بدأ بتشريح لائحة الطعام. كان ذلك الهاوي ليفي-حنّور قد حدّد الأسعار اعتباطيًّا. أمّا مالوميان فيريد أن يعرف وبدقّة كلفة كلّ طبق وهامش الربح الناتج عنه.

بعد ذلك، قدّم فايز شرحًا معقّدًا لكلفة ساعة العمل، ومتوسّط مدّة الإنتاج، والنفقات الثابتة والمتغيّرة، والأعباء في الحصّة الواحدة من الطعام... بالنسبة إلى مدير قسم الشؤون القانونيّة لدى مصرف «الاعتماد الأشوريّ»، كان ذلك أمرًا مألوفًا، لكنّ عرضه الرائع أضجرنا، فقد كنّا نفضّل قصص لوقا المضحكة.

لتخفيض عبء الأجور، ألغى السيّد مالوميان بعض الوظائف. قرّر مثلًا أنّ المصعد ليس بحاجة إلى حاجب خاصّ، فالناس راشدون ويستطيعون أن يفتحوا الباب بأنفسهم ويضغطوا زرّ الطابق الذي يقصدونه.

تمَّ خفض عدد أُجَراء مهرجان باعتماد مبدأ «تعدّد المهمّات». بات يُطلب إلى الموظّفين الجمع بين أعمال عدّة. هكذا، وما بين جولتَي تنظيف في الغرف، يمكن إيكال خادمة الغرف بكيّ البياضات؛ كما طُلب إلى الحجّاب أو حمّالي الحقائب تقديم بعض المساعدة في المطعم. وبات على أحمد الغزال، أن يركض صباح كلّ يوم من مكان إلى آخر على الشاطئ، لتركيب المظلّات ووضع الكراسي الطويلة، فيما يقوم عامل الشاطئ، الذي كان عمله يقتصر على خدمة الشاطئ لا غير، بتنظيف المسبح.

لكنّ مبدأ تعدّد المهمّات المالوميانيّ عقّد كثيرًا من مهمّة نيفين، مدبِّرة الفندق.

– المدير الجديد مهووس بالتوفير، أسرّت نيفين لأمّي. توفير في نفقات الموظّفين، وتوفير في شراء الأثاث، وتوفير في مصروف الكهرباء، وتوفير في كلّ مكان. وجب عليّ أن أخوض معركة لنستمرّ في تغيير بياضات الغرف كلّ يوم.

بيد أنّ مبدأ تعدّد المهمّات واجه معارضة حازمة من «أبو عمر»: رفض السائق العجوز أن يترك سيّارته في ساعات معيّنة من النهار ليسدّ نقصًا ما في قسم الصيانة. قال لمالوميان:

– أنا سائق ولست سمكريًّا! أعرف أن أُبدّل السرعات لا الصنابير. لن أسمح لأيّ حاجب أو أيّ طاهٍ بقيادة سيّارة ال-«بويك سبيشيال». فليهتمّ كلّ عامل بشؤونه!

لم يلحّ المدير. أبو عمر شخصيّة محترمة في ناري وأقْدم موظّفي مهرجان. كما لا يمكن لومه على شيء. كان يقضي وقت فراغه في تنظيف سيّارة الفندق، أو تلميعها. في ساعات معيّنة من النهار، وما لم يكن مكلَّفا بمهمّة معيّنة في المدينة، يبسط بدرايةٍ سجّادة الصلاة، ويركع ميمِّما وجهه شطر مكّة. كان الجميع يسمّونه «الحاجّ»، مع أنَّ الظروف لم تسنح له بإتمام فريضة الحجّ. كان رجلًا ذا قيمة كبيرة وحسَّاسا جدًّا، ولا يمكن المجازفة بمعاكسته.

لم تكن عبارة «مبلغ ضئيل لا يستحقّ ادّخاره» واردةً في قاموس السيّد مالوميان. أمر باستبدال باقات الزهور في الغرف كما في البهو، بورود وأزهار التوليب الاصطناعيّة.

– إنّها حقيقيّة أكثر من الزهور الطبيعيّة، قال لوقا مازحًا. حتّى النحلات تخطئ بها!

بعدما حدّد بدقّة مدّة التنظيف التي تتطلّبها كلّ غرفة، وكلفة غسل البياضات بالساعة، قرّر السيّد مالوميان تسديد ضربة كبيرة، فصرف ثلث موظّفي التنظيف والمصبغة. لكنّ تراجع نوعيّة الخدمات لم يلبث أن ظهر، فراح بعض الزبائن يحتجّون لدى سافاكيان موظّف الاستقبال. بدلًا من الإصغاء إلى شكاواهم، كان هذا الأخير يفقد أعصابه ويوبّخهم بحدّة. حين يردّ على الهاتف، كان يقول «آلو» بطريقة يبدو أنّها تعني «وماذا أيضًا؟» وإذا اقترب زبون من مكتبه، تظاهر بأنّه لا يراه... حتّى أنّ الجميع بات يشعر بأنّه يزعج ذلك المسؤول السابق عن قسم أدوات الخياطة لدى «مخازن داغاليك الكبرى».

– سافاكيان هذا أحمق، كان لوقا يقول. لم يفهم أنّ الفندق ليس مؤسّسة تجاريّة كسائر المؤسّسات. فالزبون يسكن فيه، ويشعر بأنّه في منزله، ويستنكر ما لم يكن موظّفو الفندق في خدمته أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. يمكن للمرء أن يتحمّل ألّا يكون البائع في خدمته، أو أن يكون البائع غليظًا في معاملته، إلّا أنّه لا يتقبّل ذلك من فندقيّ.

مع العلم بأنّ السيّد مالوميان كان يدرك جيِّدًا أنّ صيت مهرجان يتوقّف على التميّز في الخدمات، واحترام بعض التقاليد. كان يقول لخالي فايز:

– أنا مُدافع شرس عن التقاليد التي لا تكلّف مالًا.

هكذا، ظلّ ناقوس الفندق يرنّ مرّتين قبل العشاء: مرّة أولى ليذكّر النزلاء بأنّ موعد ارتداء ملابسهم قد حان، ومرّة ثانية، بعد خمس وعشرين دقيقة، ليعلن عن فتح أبواب المطعم.

غير أنّ التقاليد استمرّت على بعض المستويات. ظلّ قدامى النزلاء يخرجون إلى الشرفة كما عهدوا في الماضي، لمشاهدة المغيب، لكنّ هذا التقليد اقتصر على بعض المبادرات الفرديّة، والبعيدة كلّ البعد عن الموكب الأنيق الذي كانت تتقدّمه نيسا ليفي-حنّور.

مع حلول موعد الشاي، كان يُسمح للآنسة باتانيان، ما بين معزوفتَي فالس، بترك أكورديونها جانبًا لمحادثة أحدهم. كان لوقا يؤكّد أنّ موهبتها بمثابة حبّة رمل مقابل بحر مهارات شلومو، عازف البيانو القديم. لكنّ هذا الحُكْمَ كان مربوطًا بصداقة الرجلين لا بمعرفته الفنّية الخاصّة، فخالي لا يجيد سوى النشاز ولا يستطيع التمييز بين النوطة والنقطة.

من وقتٍ إلى آخر، كان السيّد مالوميان يوكل إلى أحد جواسيسه مهمّة اختبار نوعيّة الخدمة في الفندق. يختار عمومًا أحد سكّان العاصمة والذي يحجز غرفة لمدّة أسبوع ثمّ يقدّم إليه تقريرًا مفصّلًا عن النقائص التي لاحظها. لكن، بما أنّ الجاسوس كان دائمًا أرمنيّ الأصل، ويسرف في طلب كلّ ما يقدّمه مهرجان، سرعان ما اكتشف الموظّفون الحيلة.

كان لوقا يُضحكنا كثيرًا حين يقصّ علينا المغامرات الحقيقيّة أو المختَلَقة للجاسوس ذي الشاربين والذي لقّبه باسم «ماتا هاريان». إذا أردنا تصديق كلام لوقا، فإنّ ذلك المُخبر كان يأخذ دوره بكثير من الجدّية، أو يبالغ في استغلاله لأغراضه الشخصيّة.

– ذات مساء، غادر الصالون الإنكليزيّ مترنِّحا، بعدما أراد أن يتذوّق أنواع الويسكي التسعة المعروضة...

غير أنّ عمليّة التجسّس هذه لم تكن لِتروق أبدًا للمدبّرة نيفين. قالت يومًا بامتعاض شديد لمالوميان، أمام عدد من الموظّفين:

ما هذه الأساليب البوليسيّة؟ وهل أمرتَ أيضًا بتركيب أجهزة تنصُّت في قاعة طعام الموظّفين!

كانت تلك المرّة الأولى التي تخاطب فيها المدير بهذه النبرة. عرف الفندق كلّه بالأمر. حين تناهى

خبر الحادثة إلى مسامع خالي حبيب، قال متأفّفا:

ذلك يعني بأنّ فندق مهرجان كسِبَ نجمة، لكنّ مستواه انخفض درجة.

18

لم أستطع دخول الفندق بالمعنى الحقيقيّ للكلمة إلّا بفضل أحد رفاقي من سكّان العاصمة، والذي أتى برفقة والديه لقضاء أحد أشهر الصيف في مهرجان. قبل ذلك، كنت أرتاد مسبح الفندق وحدائقه فحسب.

شغلت عائلة صديقي الغرفة رقم 27 في الطابق الثاني. عندما دخلتُ إليها، أصابتني دهشة عظيمة. كانت تلك الغرفة الرحبة المفتوحة على شرفة، تطلّ على البحر. لكنّه بحر يبهر الأبصار، أشدّ زرقة، وأكثر نعومة وشفافية من الذي أعرفه. كما أنّ الرمل أشدّ بياضًا من رمل الشاطئ المجاور الذي نقصده. امّا المظلّات ذات الشراريب والألوان الزاهية فتضفي اللمسة الأخيرة على هذه اللوحة الفاتنة والتي لم أستطع إزاحة بصري عنها.

جرّني صديقي إلى الطابق الأوسط الصغير، حيث انهمك نحو اثني عشر ولدًا في مثل عمرنا بألعاب شتّى: كرة الطاولة، رمي السهام، الشطرنج، المونوبولي... لم تمضِ ساعة حتّى بتُّ من كبار الأثرياء، ونسيت تأتأتي. ربحت محطّتي قطار وشركتَي الماء والكهرباء، وقطع الأرض الحمراء والزرقاء والبرتقالية، التي تغطّيها الفنادق... تلتْ تلك الجولة جولات كثيرة أخرى خلال الصيف.

لم أكن بحاجة حتّى لإثبات هويّتي من أجل دخول بهو مهرجان. كان صديقي ينتظرني على درج المدخل في بداية النهار، فأسير خلفه مطمئنًّا من دون أن ألقي نظرة واحدة على السيّد سافاكيان، موظّف الاستقبال، الغارق في مشاغل أكبر من أن تجعله يهتمّ بنا.

كنّا نهبط من الشرفة إلى الشاطئ عبر دَرَج صغير. لا، لم يكن الرمل أكثر بياضًا من ذلك الذي نطأه عند الجهة الأخرى من الحاجز الحديديّ، بل أكثر نظافة. كان أحد موظّفي الفندق يتولّى تنظيفه بمنتهى الدقّة، أصيل كلّ يوم بعد انصراف آخر المستحمّين. وثمّة مقصورات ذات أبواب حُفر فيها حرف «ميم» صغير تسمح لزبائن مهرجان بتبديل ملابسهم، ثمّ يختار كلٌّ منهم مظلّة يتّسع فيؤها لكرسيّين طويلين أو ثلاثة.

كنّا نلعب بكرة المضرب أو نركب البحر بمجذافيّة، قبل التوجُّه إلى بار المسبح لتناول غداء يتألّف من سندويش ومشروب غازيّ. تلك كانت مناسبة للاستحمام من جديد، بالمياه الحلوة هذه المرّة، بعد دشّ في الهواء الطلق. لم نكن نمرّ عبر الفندق للذهاب من الشاطئ إلى المسبح، بل نسلك دربًا بمحاذاة المبنى. تلك الدرب الترابيّة التي تحفُّ بجانبيها شجيرات، كانت توحي بأنّها تصل بحرًا بآخر. وقد أطلقنا عليها تسمية «قناة السويس».

بات مبنى الفندق ملعبنا. كنّا نعبره في كلّ الاتّجاهات أثناء جولات الغُمَّيضة، حيث نكتشف كواليسه الخلفيّة. لم يكن علينا إلّا تجنّب إثارة الضجيج أو الركض في الأروقة.

كانت المصبغة تجتذبنا على نحو خاصّ، بقاعاتها المتتالية التي تعبق بروائح البخار والصابون والنشاء. لم تكن العاملات يبالينَ بوجودنا شرط ألّا نعرقل مرورهنّ. كانت بياضات الفندق المتّسخة تصل في سلالٍ كبيرة من القصب، فتفرز ثمّ تُعدُّ وتُزان. توضع الشراشف، والأغطية، وواقيات الفرش، وأثواب الحمّام، والمناشف في غسّالات ضخمة، فيما تُخصّص الآلات الأخرى للقطع الصغيرة وملابس الزبائن. كان الاقتراب من غرف التنشيف محظَّرًا علينا.

كان قاطع منيع يفصل بين البياضات الوسخة والبياضات النظيفة. ذلك أحد هواجس المؤسس إيلي حنّور والذي لطالما خشي التلوُّث سواء بالتلامس أو بالهواء. لذلك، قُسمت العربات إلى لونَين، والغاسلات إلى فريقين منفصلين، «الوسخات» و«النظيفات»، وهو ما أفسح في المجال أمام دعابات

متنوِّعة.

– ماذا كنت تفعلين أمس يا وسخة؟ تسأل إحدى العاملات عبر الفاصل.

– كنت في الحمّامات مع زوجك يا حلوة، تجيبها أخرى بنبرة هازئة.

كانت أسئلتنا مَدْعاةَ تسلية للموظفات، فيُعاجِلْنَنا بإجابات ملفَّقة ليهزأنَ بنا في سرّهنّ. ذات مرّة، زعَمْن مثلًا أنّ القِطع الممزّقة أو التالفة تُستعمل في صناعة أشرعة المراكب. أمّا نحن فقد صدّقنا ذلك طيلة فصل كامل، قبل أن نكتشف أنّ مشغل الرتي كان يحوّلها إلى قفّازات للحمّامات وخِرق للمسح.

كان قسمٌ من الموظّفين يقيم في الفندق. أدناهم رتبة في الطابق السفليّ، وأعلاهم رتبة في الطابق الرابع والأخير. كان المطبخ العابق بروائح الطعام يقع في الطابق السفليّ، ويتّصل بالمطعم بواسطة مصعد للبضائع. كان الدخول إليه ممنوعًا، فنختبئ في زوايا الممشى ونكتفي بمشاهدة مرور قوافل الخدم بمآزرهم، حاملين قطع اللحم، وسلال الخضر وصناديق المشروبات.

للصعود إلى الطوابق لم نكن نستخدم البتّة مصعد أوتيس القديم ذا الباب الصفّاق والذي يحتوي مقعدًا من المخمل الأحمر. كذلك كنّا نتجنّب السلمّ الكبير المؤدّي إلى الغرف بواسطة ممرّات وأروقة، لأنّ درجاته العميقة والقليلة الارتفاع والمصنوعة من الرخام الورديّ اللون، شديدة الانزلاق تحت الأقدام. بدا أنّها صُمِّمت لنساء نحيفات وممشوقات القوام يجب الحرص على عدم إجهادهنّ. وحدها سلالم الخدمة كانت لتتحمّل صولاتنا وجولاتنا.

دأبت كونتيسة نمساويّة متقدّمة في السنّ على المجيء لقضاء الصيف كلّ عام في مهرجان، وكانت لها عاداتها الخاصّة. كان على إحدى خادمات الغرف مساعدتها في فتح حقائبها وترتيب ملابسها. كما يعاد فرش الغرفة 21 من أجلها بأثاث خاصّ، لا سيّما بسرير ذي قبّة ومزوّد بناموسيّة، لأنّ الكونتيسة كانت تزعم – وهذا ما ينافي الواقع – أنّ حشرات لاسعة ذات مجسّات طويلة تهاجمها في الليل. كانت تنام في شراشف حريريّة مطرّزة بالأحرف الأولى لاسمها، تُحفظ بعناية أثناء غيابها في إحدى خزائن المصبغة.

حين تخرج تلك السبعينيّة ذات الوجه المثقل بمساحيق التبرّج من أحد المماشي، متَّكئة على عصاها، كنّا نسير بمحاذاة الجدار ونكاد نلتصق به خشيةً من نظرتها الشرسة. كنّا نسميها «الساحرة الشرّيرة» ونعتقد أنّها ترتكب أسوأ الأفعال. مَن يدري لماذا كانت تعبر «قناة السويس» كلّ مساء بعد الغروب؟ أكثر ألعابنا تشويقًا كان الاقتراب بحذر من الغرفة 21 وقرع بابها ثمّ الهروب. بعد ظهر أحد الأيّام، كلّفتني تلك اللعبة سقطةً عُمري بعدما تعثّرت بسجّادة. واصلتُ ركضي وأنا أعرج، معلّلًا النفس بالانتقام من الساحرة، التي اتّهمتها بإلقاء لعنة عليّ...

في الطابق الأرضيّ، كان دخول الصالون الإنكليزيّ محظورًا علينا تمامًا، حتّى في ساعة الغداء حين يخلو من أيّ نزيل. نجحنا مرّة واحدة فقط في مغافلة الساقي وعبور باب قدس الأقداس، لنتمرّغ لبعض الوقت في المقاعد المصنوعة على الطراز الإنكليزيّ. لم يتغيّر شيء تقريبًا منذ رحيل أصحاب الفندق القدامى. فقد تابع النزلاء المعتادون كتابة رسائلهم على طاولة المراسلة، لكنّ أحدًا لم يعد يستخدم ريشة الكتابة المصنوعة من الفولاذ، كما لم تعد المحبرة تنفع إلّا لإعادة ملء الأقلام بالحبر. كان بعض الزبائن يستغلّون الفرصة لتقليب صفحات السجلّ الذهبيّ وتدوين بعض الأسطر فيه، فهو الأثر الملموس الوحيد الذي قد يشهد على إقامتهم في مهرجان. بدأت اللغة العربيّة تظهر في ذلك السجلّ بعد الحرب العالميّة الثانية، بخجل كبير في البداية، قبل أن تختلط لاحقًا باللغات الأخرى.

كان السجلّ الذهبيّ الثاني يوشك أن يمتلىء بأكمله، ولن يلبث أن يُستبدَل. أمّا السجلّ الأوّل الذي

غطّى الفترة الممتدّة بين العامين 1911 و1937، فلم يُعثر عليه عندما أعيد افتتاح الفندق.

– يظنّ مالوميان أنّ عائلة ليفي-حنّور أخذته معها، قال خالي فايز.

لكنّ هذا الأمر لم يكن يؤرق المدير الجديد. فالسجلّات الوحيدة التي تثير اهتمامه هي: دفاتر الحسابات.

19

ذات صباح، فيما كنت أسير بملاصقة جدار أحد ممرّات الطابق الثالث، سمعتُ مدبّرة الفندق تقول لخادمة حديثة العهد:

– لا، لن ننظّف الغرفة 35. ستبقى خالية في الوقت الراهن. إنّها غرفة صاحبة الفندق السابقة.

ربّما تسليمًا بالفأل، أبت عائلة مالوميان أن تقيم في شقّة عائلة ليفي-حنّور، بل اختارت جناحًا مجاورًا لها عند طرف الجهة اليمنى من الفندق. كان درج ومصعد صغير يسمحان للمدير وزوجته بالوصول إلى الطوابق الأخرى بغير أن يضطرّا إلى استخدام المصعد الكبير أو الدرج الأساسيّ.

الغرفة 35... كنت مستعدًّا لبذل المستحيل في سبيل دخولها. لكنّ بابها مقفل بدون شكّ، ولست أتخيّلني أسرق مفاتيح مدبّرة الفندق. ما لم أستطع اختراق الجدران بتعويذة سحرية، فلا وسيلة لديّ لاجتياز باب غرفة نيسا.

بعد ظهر أحد الأيّام، أسعفني حدسي بفكرة مفاجئة: ماذا لو أنّ مفتاح الغرفة الخالية لا يزال، بكلّ بساطة، في القفل؟ كانت تلك الفرضيّة المُغرية تستحقّ عناء التأكّد منها. صعدت إلى الطابق الثالث خلسةً. وجدتُ الممشى فارغًا، فاقتربت بتأثّر شديد من الغرفة 35. لكنّني مُنيتُ بخيبة أمل كبيرة إذ لم أجد المفتاح في قفل الباب. ومع ذلك لم أستطع منع نفسي من أن أدير المقبض. هنا، حدثت المعجزة وانفتح الباب.

دخلتُ غرفة نيسا المُعتمة بقلبٍ خافق. كانت النوافذ مغلقة. رائحة حادّة انبعثت في الأرجاء. لا شكّ بأنّه لم يتمّ تهوئة هذه الغرفة منذ رحيل صاحبتها قبل عامين.

مرّت بضع ثوانٍ قبل أن أجد مفتاح التيّار الكهربائيّ. لكنّ الثريّا ذات الحبال البلوريّة لم تستجب. كذلك لم أتمكّن من إضاءة مصباح بظلّة على شكل هرم. ومع ذلك، راحت عيناي تعتادان العتمة شيئًا فشيئًا. إتّجهت إلى باب الشرفة، فعاندني قفله قليلًا، قبل أن يصرّ مصراعاه بدورهما، لينفتحا ويكشفا لي عن الإطلالة الرائعة على الحديقة والبحر خلفها.

كانت بساطة غرفة نيسا تثير الدهشة. يتوسّطها سرير كبير ذو ركائز من الخشب الفاتح اللون، وتحيط به طاولتا نوم. لم يكن عليه شرشف ولا وسائد. فقط فراش عارٍ يوحي بشيء من عدم الاحتشام.

كان في دُرْج منضدة الزينة بعض الأشياء المنسيّة أو التي أُهملت عمدًا: مشط، قلم أحمر الشفاه، مرذاذ معطّر، قارورتان أو ثلاث... كم من مرّة عكست هذه المرآة وجه نيسا! بدا لي أنّها ما زالت تحمل صورتها.

لم يكن بوسعي البقاء في تلك الغرفة إلى ما لا نهاية. عندما اتّجهت رغمًا عنّي إلى باب الشرفة لإغلاق مصراعَيه، رأيت شيئًا صغيرًا يلتمع على الموكيت. كان قرطًا أبيض عالقًا في شقّ زاوية الجدار. لا شكّ بأنّه سقط وتدحرج إلى هناك، ثمّ نجا من المكنسة الكهربائيّة بعد رحيل عائلة ليفي-حنّور. ما إن جثَوْتُ على ركبتي لالتقاطه حتّى سمعتُ قرعًا. أدركني الرعب، فحبستُ أنفاسي ولم أعد أجرؤ على الحراك. سمعتُ القرع مجدَّدا، فأدركت عندها أنّ الحظّ يبتسم لي إذ لم يكن سوى باب الغرفة المجاورة. سمعت أصوات أشخاص يتبادلون الكلام فانتظرت عودة الصمت. وبعدما خبّأت القرط في جيبي، خرجت إلى الرواق بكلّ حذر.

لمن أُسلِّم هذه الحلية؟ وكيف أعترف بدخولي الغرفة 35؟ طبعًا يمكنني القول إنّني وجدتها في

الحديقة أو على الشاطئ. لكنّ إدارة الفندق لن تعرف ماذا ستفعل بها. والحقيقة أنّني لم أكن راغبًا قطّ في التخلّي عنها، فقرّرت إخفاءها في مكان آمن.

مساء ذلك اليوم، وبعينين شاخصتين إلى نجمة الصبح، قطعتُ على نفسي عهدًا متهوِّرًا، بأن أعيد القرط بنفسي إلى نيسا ليفي-حنّور.

20

لم يعد أبي يلعب الشطرنج في مقهى أنطونياديس، بل في مهرجان. كان لا يُطيق الخسارة أبدًّا. بعد ظهر ذلك اليوم، نظر في عينَي شقيق زوجته وقال له:

– إسمعني جيِّدا يا لوقا. إذا ربحتَ هذه الجولة أيضًا، أقسم بحياة أولادي أنّني لن ألمس بيدقًا واحدًا بعد اليوم.

مرّت لحظة ذهول، فأمورٌ كهذه غير قابلة للمزاح. كنّا نعرف شغف والدنا بالشطرنج، فارتعشنا خوفًا عليه... وعلى أنفسنا. سرعان ما تحلّق حول الطاولة المنخفضة جمهور من المشجّعين.

– خذ البيادق البيضاء، أنا أعطيك إيّاها، قال لوقا بنبرة سيّد نبيل.

– تبًّا له! إنّه يتحذلق الآن، أجابه خصمه وهو يتمسّك بالبيادق السوداء.

النرد، البوكر، الشطرنج... كان الكبار يحبّون اللعب، ليس طمعًا بالربح فحسْب بل وأيضًا بحثًا عن شعور القوّة والنفوذ. كان اللعب بديلًا عن الفعل: بما أنّهم استُبعدوا عن اللعبة السياسيّة منذ قرون، فهم يلعبون كثيرًا في حياتهم الخاصّة. يقضون وقتهم، أو بالأحرى يُعيدون ابتداع وقتهم لعدم تمكّنهم من السيطرة عليه. فاللعب، كما الكلام، يعوّضهم عن شعورهم بالتهميش. من جهة أخرى يتكلّمون دائمًا بصوت عالٍ وهُم يحرّكون بيادقهم، وكأنّما ليضاعفوا شعورهم باللذّة.

إختار لوقا نقلة افتتاحيّة كلاسيكيّة، فواجهه أبي بدفاع صقليّ كسر توًّا توازن القوى ووعد بجولة حامية جدًّا. لكنّه لم يلبث أن ارتكب خطأ، بمسارعته إلى استبدال مكان الملك بالرخّ، بدلًا من إخراج الفيل. وما هي إلّا نقلات قليلة حتّى سيطر شقيق زوجته على وسط الرقعة. كانت تلك علامة تنذر بهزيمة وشيكة، وراح عدد من المتفرّجين يهزّون رأسهم في صمت.

لم يفطن أبي إلى الخطر الذي يتهدّد رخّه الأيمن، فاضطرّ إلى التضحية بفارس. دلّت ارتعاشة ركبته إلى أنّه ناقم على نفسه بسبب خطوته الناقصة تلك. إستفاد لوقا من الفرصة وفرض على أبي تبديل بيادقه مرّتين. بهذه الوتيرة، كان أبي يسير توًّا إلى الهزيمة. لم أعد أجرؤ حتّى على أن أنظر في عينَي شقيقي الأكبر والذي كان قلقه يحاكي قلقي. سرعان ما سيطر الاضطراب على كلّ مَن تحلّقوا حول الطاولة.

بعد مضيّ عشر دقائق، استولى لوقا مجدَّدًا على بيدق، من دون أن يفطن إلى الفخّ الذي نُصب له. حينذاك، حقّق آخر فارس أسود هجومًا مزدوجًا لا يمكن الإفلات منه، مهدِّدًا ملك لوقا ورخّه في وقتٍ واحد. علت صيحات التعجُّب بين الحاضرين، وانتقل النصر من دفّة إلى أخرى.

بعون السماوات، خسر لوقا الجولة. لكنّني أيقنتُ في قرارة نفسي أنّه سعى عمدًا إلى الخسارة، رأفةً بخصمه، أو رفقًا بأبناء شقيقته.

فرقع أبي بأصابعه، فهرع إليه نادل.

– وزّع زجاجات نياغارا على الجميع! قال له آمرًا، وكأس عرق للسيّد لوقا الذي لا يزال إلمامه بلعبة الشطرنج ضعيفًا للغاية.

لا أزال أتذكّر ذلك المشهد، وتحديدًا لأنّه جرى غداة عيد مولدي الثالث عشر، ولا سيّما لأنّه سبق بأيّام قليلة، حدثًا سيقلب حياتي رأسًا على عقب.

كلّفتني أمّي بحمل طرد صغير إلى لوقا. ركبت درّاجتي الهوائيّة متوَّجها إلى متجره عند طرف شارع الفنار. كان متجره شبيهًا بعنبر مليء بصناديق المشروبات، تتّصل به غرفة معتمة يستخدمها مكتبًا له. كان خالي يدقّق في إحدى الفواتير باستياء بارز. وكأنّ زيارتي قد حرّرته من غمّه، فأشرق وجهه بابتسامة. قال لي وهو يفتح الثّلاجة:

– لا شكّ بأنّك عطشان. نياغارا بمذاق الليمون الحامض أو البرتقال؟ أيّهما تفضّل عادةً؟

بدا أنّه يعلّق أهمّية كبيرة على رأيي كمستهلك، وكأنّما عُلّقت سلسلة الإنتاج في انتظار الحكم الذي سأصدِره.

قلت له إنّني أفضّل الليمون الحامض، وأرى أنّ البرتقال يعجب الفتيات أكثر.

– لماذا تتكلّم هكذا؟ سألني فجأةً بصوت عذب.

– كيف هكذا؟ أجبته متفاجئًا وقد أخذت حذري في الحال.

– يبدو لي أنّك تتحفّظ، ولا تتكلّم كما تشاء.

كان عليّ التظاهر بعدم الفهم، والسعي إلى تحويل الحديث. لكنّني، ومن دون أن أعرف السبب، سمعتُني أقول:

– لأنّني أُتأتئ.

كانت تلك المرّة الأولى التي أعترف فيها بمشكلتي لأحد. نظر إليّ نظرة تعجُّب، ثمّ رفع كتفيه قليلًا، وقال:

– وإذًا؟ أجد أنّك تقول أشياء ذكيّة، وهذا ليس شأن الجميع... معي، يمكنك أن تُتأتِئ ما يحلو لك. هذا لا يزعجني. لن تنهدّ السماء على رأسك.

من غير أن يبالغ في تضخيم إعاقتي، أو في تجاهلها، تابع بالنبرة عينها:

– إسترخ قليلًا. أنت تضبط نفسك كثيرًا. هل تراني أضبط نفسي أنا؟ ذكّرتني بحادثة... كنت في الصفّ الثالث أو الرابع، وكان عليّ حفظ قصيدة لرونسار. لم أستظهر منها سوى السطر الأوّل: «هيّا بنا يا حلوة، لنذهب ونبصر الوردة...». فتظاهرتُ بالتأتأة، ورحت أردّد «هَيْ-... هَيْ-... هَيْ-...» بصعوبة تفطر القلوب، وسرعان ما شاركني كلّ التلامذة ترداد ذلك المقطع الذي تحوّل إلى «هيهات يا أبو الزلف» وسط قهقهة عارمة...

في اليوم الذي تلى حديثنا غير المتوقّع، رحت أجازف بالكلام من دون رقابة ذاتيّة. إكتشفتُ بسرور لا يوصف أنّ كلّ جملة سليمة أنطق بها كانت تستتبع أخرى. إذا تعثّرت بمقطع لفظيّ ما، لم تكن السماء لتتداعى على رأسي. وجدتُ سعادة خالصة في التعبير عن نفسي، لا بل صرتُ أغامر في النطق بكلمات طويلة. راحت كلمة مهرجان تتردّد كثيرًا على شفتيّ، وكنت ألفظها بنهم، متذوّقا رنّتها وعذوبتها. صرتُ أُحِسُّ بها كمداعبة رقيقة.

يوم الأحد التالي، عند الغداء، كنت أكثَرَ ثرثرةً من المعتاد. نسيتُ نفسي وأنا أتكلّم. من مائدة الكبار، كان لوقا ينظر إليّ بابتسامة تواطؤ، قبل أن يروي قصَّة مثيرة للضحك حول الآنسة باتانيان أمينة صندوق النادي الأرمنيّ وعازفة الأكورديون في مهرجان، والتي كانت ترسل، بحسب قوله، فاتورة إلى الفندق بعدد النوطات التي تعزفها.

بعد أسابيع قليلة، توقُّفت تمامًا عن التأتأة. هل كان التغلّب على هذه الإعاقة سبب المتعة التي وجدتها

لاحقًا في فنّ الخطابة؟ ربّما يعود ذلك عليّ بالنجاح يومًا من الأيّام، غير أنّ لوقا لن يكون موجودًا، ويا للأسف، ليصفّق لي...

21

كانت نسخة «ناريبوليس» التي قرأها أبي قراءة سريعة وسطحيّة تقبع على الرفّ الأعلى من المكتبة في صالون شقّتنا. إعتدتُ أن أغوص في قراءتها سرًّا، يجذبني إليها ذلك الحبّ البريء بين شابّ يهوديّ بورجوازيّ وابنة صيّاد سمك مسلم متواضع. آنذاك، خفيت عنّي أشياء كثيرة في رواية فورينبيك، لكنّني لم أدرك ذلك.

لم تكن حنان تتكلّم سوى العربيّة، أمّا صموئيل فكان يتكلّم الفرنسيّة بصورة أساسيّة. في الواقع، اللقاء الذي جمعهما صدفةً بعد ظهر أحد الأيّام عند الصخور في مكان غير بعيد من الحصن، لم يكن «ارتطامًا أو اصطدامًا، بل زلزالًا». كان ابن صاحب مقهى دميانوس قد عقد خطبته على ابنة أحد أثرياء اليهود، لكنّه كرّس وقته كلّه وأفكاره كلّها لتلك الشابّة المسلمة.

حتّى نهاية القصّة، بقي مهرجان مملكة ممنوعة على حنان. في المساء كانت تتأمّل من بعيد أضواء الفندق المتلألئة، ولم يخطر ببالها قطّ أن تقترب منه. كانت تسكن أحد أكواخ صيّادي الأسماك في الجون الصغير وراء المرفأ. مملكتها كانت الصخور القريبة التي تركض عليها حافية القدمين خفيفة كالنسيم. كانت تدخل المدينة أحيانًا، وغالبًا ما تمرّ أمام مقهى دميانوس، لكنّها لم تحظَ قطّ بفرصة دخوله.

تنتهي رواية «ناريبوليس» برصاصة من بندقيّة يطلقها صيّاد الأسماك. هل كان يستهدف صموئيل أم حنان؟ وصرخة اليأس الطويلة التي أعقبت الطلقة، من فم مَن خرجت: الرجل أم المرأة؟ مَن منهما بقي حيًّا بعد هذه المأساة، ليقضي بقيّة حياته «ميتًا-حيًّا»؟ للقارئ أن يقرّر ذلك. لم يحدّد فورينبيك ما إذا كان الدم الذي تناثر على زورق الصيد، دمًا يهوديًّا أو مسلمًا.

كنت أبحث في قراءتي المحمومة للرواية عن المقاطع الأشدّ إباحيّة، كتلك التي ترسم مشهد المداعبات الأولى بين صموئيل وحنان، أو تلك التي تدور أحداثها في ماخور شارع الدبّور. لم تنفكّ صورة سيفان مالوميان تتسلّل إلى الصفحات بشكل شبه منتظم...

لعليّ لم أحسن النظر إليها حتّى ذلك الحين، أم لعليّ لم أكن سوى طفل بعد. لكنّ زوجة المدير باتت تبدو لي على قدر هائل من الجاذبيّة. بنظرتها الساخرة وابتسامتها الشقيّة، تلك المرأة المكتنزة وإنّما من غير بدانة، أثارت اضطرابي. لدى مرورها كنت أتنشّق عطر المسك الفوّاح. كما كان صدرها العارم وإبطاها الأملسان ويداها الكبيرتان بأظافرهما القرمزيّة اللون، تثير فيَّ ملذّات لا تحصى.

كم كان السيّد مالوميان محظوظًا! لكن، هل يأخذ ذلك الرجل الذي يعمل بلا هوادة، وقتًا لتكريم الساحرة الفاتنة المكتنزة التي تشاطره سريره؟ كانت لامبالاته المؤسفة تثير سخط فتيان ناري. ومنهم نسيبنا داوود، الذي أطلق على نفسه اسم دودي. كان يزعق مستنكرًا:

– أنا ذاهب لتكريمها، أُقسِمُ بشرفي!

فنتظاهر بردعه، مدركين في قرارة نفسنا أنّه لن يفعل شيئًا.

بعد ظهر أحد الأيّام، غابت عازفة الأكورديون عن موعد الشاي، فاستُبدِلت بمشغّلة أسطوانات. وبدأ الرجال بمراقصة النساء على أنغام الرومبا. ثمّ اقترب زبون إسبانيّ في نحو الثلاثين من عمره، من السيّدة مالوميان، التي تمنّعت عن القبول في البداية شكليًّا، لا أكثر. كانت ترتدي فستانًا لصيقًا بجسمها مشقوقًا عند جانبه، وتنتعل حذائين بأربطة جلديّة وكعب عالٍ. لم أكن أظنُّها تجيد الرقص إلى هذا الحدّ. كان ذيل فستانها البرّاق يتطاير كلّما تمايلت بردفيها، كما راحت تنقّل رقصها تباعًا بين الحركة

الديناميكيّة والتأرجح المثير، معطيةَ الانطباع بأنّها تلعب مع شريكها لعبة القّط والفأر، فكانت تغريه، وتكاد تلتصق به لتعود وتبتعد عنه في اللحظة الأخيرة. في ختام المقطوعة، شاهدها الحاضرون تدور حول نفسها وقد أسكرها الإيقاع، ثمّ ترتمي إلى الخلف ليلتقطها الإسبانيّ وتنتهي بين ذراعيه وسط تصفيق الجميع.

بانت لي سيفان مالوميان بوجهٍ آخر، بفضل عدسة تصوير غارو، مصوّر هاوٍ له من العمر خمسة عشر عامًا، يمتلك آلة تصوير كوداك ويقوم بنفسه بتظهير صوره في غرفة سوداءَ صغيرة. كان والده أحد شريكَيْ السيّد مالوميان، وهذا ما مكّنه من الدخول إلى مهرجان ساعةَ يحلو له، بآلته المتدلّية من عنقه بحمّالة. كان يُسمح له بتصوير الزبائن الراغبين في ذلك فيبيعهم ذكريات إجازتهم تلك، لقاء عشرين قرشًا. وقد اعتاد الموظّفون رؤيته يتسكّع في الحدائق وبين الطوابق.

عرض علينا غارو سرًّا إحدى صوره. كان قد فاجأ سيفان مالوميان وهي تخرج ذات صباح باكر من المسبح الخالي من المستحمّين آنذاك. لم يلبث الخبر أن انتشر، ونال الجميع حظوة إلقاء نظرة على تلك الصورة الآسرة. لم يكن لزوجة المدير جسم حوريّة، غير أنّ تكاوينها الممتلئة كانت تشي بشهوانيّة محمومة، تحاكي حدّ الغريزة. كان من الصعب على لباس السباحة ذي القطعتين أن يحتوي ثدييها الرائعين. وقفنا مشلولين نتأمّل بإعجاب مجنون تلك الصورة، قبل أن يدفعنا جانبًا أحد رفاقنا الراغب هو أيضًا بافتراسها بعينيه.

كان غارو يبيع نسخًا من تلك الصورة بليرة، وهو سعر يفوق طاقتنا بكثير. لكنّ رؤية جسد سيفان مالوميان وهي تخرج من المسبح والماء يتقطّر منها، ولو لمرّة واحدة، كانت كافية لتَسكن بالنا ليل نهار. كم من خطيئة قد ارتكبنا في خلوتنا بسبب تلك الصورة التي استبدّت بهواجسنا!

كثيرًا ما قيل إنّ غارو يملك صورًا أخرى لزوجة المدير، لكنّه يرفض عرضها. كان البعض يصفها من الخلف، وهي تميل إلى الأمام بعض الشيء لتُظهر أمام العدسة ردفيها المرمريّين. أو من الأمام، وقد انفكّ رباط لباس سباحتها ليبرز منه جزء من ثديها... كانت تلك الصور المزعومة تشغل بالي حتّى أكثر من تلك التي قُيِّض لي أن أسترِقَ النظر إليها. أحسست بأنفاسها الحارّة، وبلمسة يديها الحارقتين... حتّى اختلطت عندي لذّة الحواس بسيفان مالوميان المرأة المُغرية.

تبيّن أنّ غارو الذي تفوّقت مهارته في التجارة على مزاياه في التصوير، كان كوميديًّا بارعًا أيضًا. لمّح لنا أنّ زوجة المدير تعشق البشرة الفتيّة، وخصوصًا الشبّان شديدي السمرة، شرط أن تكون الطبيعة قد أكرمتهم بعطاياها. في الواقع، رأى نسيبنا دودي أنّ تلك الصفات تنطبق عليه. كان زبونًا دائمًا لماخور شارع الدبّور. أو على الأقلّ يتباهى بذلك أمامنا، واصفًا بأدقّ التفاصيل الخدمات – الأمر الذي يستحيل التأكّد منه – التي تقدّمها هذه الفتاة المالطيّة أو تلك، ممّن وظّفهنّ الماخور حديثًا.

إستفسر دودي عن الأمر، فشدّد المصوّر على شروط السيّدة مالوميان:

– القياسات الصغيرة لا تناسبها، وهي بحاجة إلى القياس الكبير.

– لديّ المطلوب، أكّد له دودي، بنبرة الزهوّ التي تجعله لا يُطاق.

تمَّ وضع خطّة. كان على المرشّح أن يكون في المكان والزمان المناسبين. عندما يخرج زوجها إلى العمل منذ الصباح الباكر، تكون سيفان مستغرقةً كعادتها في النوم، وتأخذ وقتًا طويلًا لتتبرّج، ولا تغادر غرفتها إلّا نحو التاسعة لمناقشة لائحة طعام اليوم مع رئيس الطهاة. كان يكفي انتظارها في الرواق ومغازلتها بجرأة كافية لينتهي الأمر في سريرها.

ذات صباح، ارتدى دودي سروالًا من الجينز شديد الالتصاق بجسده، وقميصًا بكمّين قصيرين يبرز

عضلات ساعديه المفتولة، ووقف في مكان استراتيجيّ. حين خرجت المرأة الشهوانيّة المزعومة من غرفتها، اقترب الفتى مباشرةً منها، ووضع يديه على ثدييها مُحدِّقا في عينيها ومبتسمًا. إرتبكت زوجة المدير ووقفت ذاهلةً لثانية أو اثنتين، قبل أن تستعيد المبادرة وتوجّه لدودي صفعة مدوّية. كاد غارو وشريكان له ممّن وقفوا يراقبون المشهد من طرف الرواق، يختنقون بضحكهم المكتوم.

أمّا دودي الذي لم يشأ الاعتراف بمغامرته الفاشلة، فقد اختلق رواية عجيبة. زعم أنّه جعل سيفان تصرخ من شدّة اللذّة عدّة مرّات متتالية، وأنّ موظّف الاستقبال الذي كان دونهما بثلاثة طوابق والذي جنّ جنونه كاد يستدعي رجال الإطفاء...

لقد صرخت السيّدة مالوميان، هذا صحيح، ولكن من أجل طرد الفتى السيّئ الخلق من الفندق.

– متى ستعود إليها؟ سأل غارو دودي.

– لا، لقد سئمتُ! قال زير النساء بنبرة استعلاء. أنا أملّ بسرعة، وأحتاج إلى التغيير. تلك المرأة تلاحقني. لن أعود إلى الفندق أبدًا.

22

تسلّينا بمغامرة دودي لأسابيع. أمّا أنا فقد احتفظتُ عمومًا من العام 1960 بذكريات سعيدة جدًّا، طبعتها المغازلات الصغيرة الأولى.

كان زمن الفرسان قد ولّى. بورتوس ودارتانيان وأنا، توقّفنا عن مناداة أحدنا الآخر بتلك الأسماء، وبتنا، شأن كلّ الفتيان في مثل سنّنا، نسعى إلى التشبّه بجايمس دين. كانت الوقفات الطويلة أمام المرآة ضروريّة لإنجاز التسريحة الصحيحة: أي الجبهة المكشوفة، والشعر المسرَّح إلى الخلف، وزيادة الحجم في الأعلى للاقتراب بأكبر قدر ممكن من تسريحة الممثّل الأميركيّ الشهيرة التي شُبِّهت بالموزة. كانت تلك التسريحة تتحدّى قانون الجاذبيّة بفضل هلام خاصّ. وإذا أضيفت إليها نظرة غموض، أصبحت قادرة على أن تنتزع من الرفاق صيحةً تساوي أعظم الإطراءات:

– يا جايمس!

كانت الأفلام الأميركيّة سبيلنا إلى متابعة الموضة الغربيّة. أمّا في ما عدا ذلك فقد تزايد انقطاع البلد عن العالم الخارجيّ، بسبب الرقابة والقيود المفروضة على الاستيراد. بات عددٌ من المنتجات الأجنبيّة المغرية، كالقهوة السريعة الذوبان، أو أنابيب الحليب المركّز، غير متوفّر إلّا في سوق التهريب.

– لن تلبث حالنا أن تصبح كحال الديمقراطيّات الشعبيّة، كان خالي حبيب يغمغم متأفِّفا.

كان حبيب يذكّرني براصد بحريّ لا ينظر إلّا باتّجاه واحد، ويراقب على الدوام الجانب المظلم من الوجود، لا الجانب المشرق. صحيح أنّ الوقائع الملموسة والمقلقة غذّت تشاؤمه الطبيعيّ، فالنظام زاد من قسوته، وإنّما من دون أن يتمكّن من حجب إخفاقاته السياسيّة وفشل دبلوماسيّته. بعد أربع سنوات على طرد اليهود، زاد التضييق على الحرّيات، واتّخذت ملاحقة المعارضين من شيوعيّين أو إسلاميّين، أشكالًا أكثر وحشيّة. لم يكن أحد في عائلاتنا لينتمي إلى أيّ من تَينِك الفئتين، لكنّ الخوف بدأ يطال الجميع، حتّى في ناري التي لطالما تنعّمت بمناخها الخاصّ، وبدت بعيدة كلّ البعد عن أجواء العاصمة.

بتنا نتلقّى التوصيات والتوبيخات من أهالينا بشكلٍ متواصل:

– إيّاك والتفوّه بكلمة واحدة في السياسة! أتسمع؟ لا تتفوّه بكلمة في أيّ مكان، لا في المدرسة، ولا في الشارع، ولا حتّى في فندق مهرجان!

ولكن، أيّة أسرار سياسيّة يمكنها أن تفلت من أفواهنا؟ ومَن مِن أقاربنا قد تُعرّضه أقوالنا إلى الخطر؟ لقد تعلّم آباؤنا منذ أجيال أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية، أي الدرجة التي تتجنّب بحرص شديد كلّ أنواع الالتزام الحزبيّ.

بات الخوف من الجواسيس هاجسًا. حتّى عمّاتي شعرنَ بأنّهنّ يخضعن للمراقبة، وهذا ما كان يسلّي لوقا كثيرًا. قال لهنّ ذات مرّة:

– عليكنَّ بالحذر داخل السيّارة، فمنذ أيّام عُثر على جهاز تنصّت في علبة قفّازات إحدى السيّارات. لعلّ في سيّارتكنّ ذات العين الحولاء أذنًا تسترق السمع.

لكنّنا كنّا أكيدين من أنّنا نستطيع التعبير عن أنفسنا بحريّة في الهواء الطلق على الأقل. أتذكّر ذات صباح حيث كنّا على الشاطئ، برفقة أشقّائي. فقد باح لي أبي، وهو قليل الكلام في العادة، بمكنونات قلبه:

– في الواقع، هذا أمر مثير للاستياء! بالنسبة إليهم لا فرق بيننا وبين الغربيّين لمجرّد أنّنا مسيحيّون. هذا ما لم يشكّوا بأنّنا من الطابور الخامس. ومع ذلك نحن لسنا دخلاء. هذا البلد كان مسيحيًّا قبل أن يصبح مسلمًا. لكنّهم لا يعلّمونكم أمورًا كهذه في المدرسة طبعًا!

شرح لنا أنّ آباءنا الذين رفضوا اعتناق الإسلام، تحوّلوا إلى «أهل ذمّة»، أي بتعبير آخر، مواطنين من درجة دنيا. كانت تلك الصفة تضمن لهم حماية السلطة، غير أنّهم أُخضِعوا لضرائب خاصّة، واستُبعدوا عن عدّة وظائف في الدولة، حتّى أنّهم أُرغموا في حقبات معيّنة على ارتداء ملابس تميّزهم.

– منذ نهاية القرن التاسع عشر، لم يعد هناك من أهل ذمّة، أردف، وبات جميع المواطنين سواسية في المبدأ. لكنّها نكتة لا يصدّقها أحد! أبواب الوظائف العليا في الدولة مقفلة في وجهنا. ليس من بيننا أيّ محافظ، أو أيّ رئيس جامعة، أو أيّ قائد جيش. حتّى المرتبة الأولى في الترتيب الوطنيّ لشهادة البكالوريا ممنوعة علينا، فالمسيحيّ لا يستطيع أن يتقدّم على المسلمين.

في مدارسنا الخاصّة، التي لم يبقَ فيها من الفرنسيّة سوى اسمها فقط، لم يعد يُسمح بتعليم الطلّاب تاريخ ملوك فرنسا وأنهارها، لا بل استُبدِل ذلك ببرامج التاريخ والجغرافيا المحلّية. إنتقلنا فجأة من طرف إلى نقيضه، وباتت الأرض كلّها تُختصر بالوطن، هذا الوطن الذي يرفض بشكل قاطع الاعتراف بنا كمواطنين كاملي الحقوق. أمّا الكتب الجديدة، المؤلّفة طبقًا للخطّ الذي رسمه الحزب الأوحد، فقد رسمت صورة مربكة للأخيار والأشرار. كان أهالينا يلاحظون ذلك فيتملّكهم الرعب. أمّا بالنسبة لنا، فقد تمثّلت السيّئة الأبرز للبرامج التعليميّة المصحّحة، في التغيير التدريجيّ للغة التعليم: في غضون عام واحد، تحوَّل تعليم مادّتي الفيزياء والكيمياء من الفرنسيّة إلى العربيّة، لتليه بعد عام مادّة العلوم فالرياضيّات. وبات مدرّسونا يعانون أكثر منّا جرّاء هذا التغيير القسريّ.

– التعريب أمر طبيعيّ، قال لنا أبي. لا يوجد مبرِّر لتحلّ الفرنسيّة أو الإنكليزيّة محلّ اللغة الوطنيّة. لكن، ما ليس طبيعيًّا هو رفض كلّ ما هو أجنبيّ أو غربيّ.

كان أبي يرى نصف مشاكلنا ناتجًا عن قيام دولة إسرائيل، ما أشعل النار في المنطقة. أتذكّر أنّه تحدّث طويلًا عن اليهود على الشاطئ يومذاك. كانت مشاعره نحوهم ملتبسة: ينتقدهم ويتحسَّر على رحيلهم في الوقت عينه.

كانت أخبار المطرودين من ناري تصلنا قليلة ومشوَّهة، بسبب الرقابة المفروضة. بعضهم لجأ إلى إسرائيل، وآخر إلى فرنسا أو إنكلترا. هناك مَن اعتقد أنّ السيّد ليفي-حنّور تولّى إدارة فندق بالقرب من جنيف، وأنّ ولديه يتابعان دروسهما في مدرسة لليسوعيّين في ليون.

في البعيد، كنّا نشاهد من شرفة منزلنا جزءًا من المدافن اليهودية. بعد منع الدخول إليها، غزتها الأعشاب البريّة التي انتهت بأن غطّت القبور تمامًا، فيما تعرّض بعضها للتدنيس.

23

لم يعد السيّد مالوميان الذي زادت ثقته بنفسه ليتردّد في عرض مفهومه الخاصّ عن إدارة الفنادق. كانت صدمة المدبّرة نيفين كبيرة جدًّا حين سمعَته يقول:

– يجب أن نتكيّف مع الزبائن الذين تغيّروا. لم يعد زبائننا كما كانوا في الماضي أشخاصًا أثرياء اعتادوا تلقّي الخدمة. حين يأتي المسافرون إلى الفندق، لا يعرفون ما يمكنهم أن يطلبوه. هم لا يبحثون عن ترف الخدمة بل عن الفعالية. يتوقّعون خدمة سريعة وبأفضل سعر ممكن. بات على الفندقيّ اليوم أن يقدّم خدمات أقلّ وبكلفة أدنى. المسألة كلّها هي في معرفة أيّ مدى من تخفيض الخدمات قد يتقبّله الزبون.

في مطعم الفندق، فُرض على النُدُل العمل بإيقاع أسرع. هذا ما سبّب أخطاء في تجهيز الموائد لم نكن لنتخيّلها في الماضي. لم تعد الشوكة لتوضع وأسنانها باتّجاه شرشف الطاولة، كما لم يعد قاطع السكّين في اتّجاه الطبق. كان ممدوح، رئيس النُدُل الذي تلقّى التدريب في مدرسة حنّور، يحملق بعينين جاحظتين في المخطئين قبل أن يوبّخهم بشدّة في غرفة الخدمة. لكنّه عجز عن مراقبة كلّ شيء بنفسه، بعدما خسر بعض أفضل العاملين لديه. حيّرته سياسة المبالغة في التوفير، وشعر بالتعب ووطأة السنين.

كانت نيفين تستعيد بكثير من الحنين دروس راشيل، المدبّرة القديمة:

– حين تريدين التحقّق من ترتيب غرفة ما، جولي بنظرك فيها بحركة تحاكي حركة عقارب الساعة. إنّها الطريقة الوحيدة لئلّا تنسي شيئًا. تذكّري أنّ النزيل الجديد سيكتشف غرفته من خلال عينيك. آخر نظرة للمدبّرة هي الانطباع الأوّل للزبون.

كذلك كانت تتذكّر القواعد الصارمة التي فرضها السيّد أليكس، رئيس موظّفي الاستقبال على معاونيه:

– يجب ألّا يرنّ الهاتف أكثر من ثلاث مرّات أبدًا، لا في المقسَّم ولا في الصالة.

أمّا الموظّف الذي يرفع السمّاعة بعد الرنّة الرابعة فكان يتعرّض للتوبيخ في الحال.

لكنّ عهد ذلك الترف قد ولّى.

كان السيّد مالوميان متعجرفًا إلى حدّ الفظاظة مع مورّديه أحيانًا. لقد وقعت الحادثة التي جرحت مشاعر لوقا، ذات يوم خميس من شهر سبتمبر 1960، عند مدخل مهرجان. الشاهد الوحيد عليها كان أحمد الغزال الذي صودف وجوده هناك، وهو يخرج من الفندق إلى المدينة في مهمّة.

كان خالي يقوم مرّتين في الأسبوع، يرافقه أحد العمّال، بتسليم صناديق المشروبات المختلفة ومن بينها نياغارا، في الممرّ الجانبيّ المتّصل بالطابق الأوسط. في الواقع، كان يستفيد من تلك الفرصة ليقضي ساعة في الفندق، مُلقيًا التحيّة على بعض الزبائن من معارفه أو محادثًا الموظّفين. بدا وكأنّه ينتمي إلى تلك المؤسّسة. كثيرًا ما شوهد وهو يمازح رئيس الطهاة، أو يناقش أحد موظّفي البار في كيفيّة إعداد أحد الكوكتيلات، أو يلفت انتباه البساتنة إلى بعض الشجيرات غير المشذّبة أو إلى أنبوب يتسرّب منه الماء... كانت حكاياته وأخباره تثير بهجة أشدّ موظّفي الفندق رصانة، مثل رئيس النُدُل، الذي كان يقهقه عاليًا حين يسمع لوقا يروي مجريات أحد حوادث المدينة.

لا شكّ بأنّ شعبيّة لوقا أثارت انزعاج السيّد مالوميان. لكن، هل كان ذلك كافيًا لتفسير قراره

المُجحف؟ يوم الخميس ذاك، التقاه في بهو المدخل، ومن دون أن يلقي عليه التحيّة، عاجله بالقول:

– للمناسبة، لم أعد بحاجة إلى المشروبات. تعاقدت مع ببلاوي، الذي سيصبح من الآن فصاعدًا المورّد الحصريّ لفندق مهرجان.

إمتقع وجه لوقا، واحتاج إلى عدّة ثوانٍ ليستفيق من الصدمة، وطبعًا إلى مجهود كبير بعد ذلك كي لا يمسك بخناق الأرمنيّ أو يسدّد قبضته إلى وجهه.

قال السيّد مالوميان ما قاله بالفرنسيّة، لكنّ أحمد الغزال الذي كان على مسافة خطوات، لم يجد صعوبةً في الفهم بأنّه شهد مأساة هامّة.

منذ ذلك اليوم، لم يطأ لوقا أرض فندق مهرجان قطّ، ولا حتّى لشرب كأس ناحية المسبح. لم ندرك الأمر إلّا بعد حين، لأنّ لوقا الذي شعر بمذلّة كبيرة لم يخبر أحدًا بما حدث.

– إنّه يتهرّب منّي، قال أبي. أعتقد أنّه لم يعد يجرؤ على مقارعتي في الشطرنج.

زادت خسارة مهرجان من مصاعب لوقا الماليّة، حتى ولو لم يكن سوى واحد من مورّدين آخرين للفندق. لكنّ إبعاده بتلك الطريقة أصابه بألمٍ عميق. قد أخبر عشيقته ييلينا، بعدما رأته في حالة اكتئاب:

– لقد طُرِدتُ من مهرجان.

فقدت لقاءاتنا العائليّة حول مأدبة غداء الأحد، محرّكها الأساسيّ. بات لوقا يأتي تارةً، ويعتذر عن عدم الحضور طورًا، بذريعة أو بأخرى: هو إمّا مدعوّ إلى منزل أصدقائه، أو عليه تلبية طلبيّة عاجلة، أو يشعر ببداية التهاب في اللوزتين ولا يريد نقل العدوى إلى أحد... أو قد يصل متأخّرا أيضًا، بعد تقديم الطبق الرئيسيّ، فيصرّ على عدم إزعاج أحد ويجلس إلى مائدة الصغار. كنّا نستقبله بفرح، لكنّه لم يعد لوقا المرِح الذي يسحرنا بقصصه الخياليّة ومشاريعه الخارجة عن المألوف. كان يكتفي بالاستماع إلينا مرغِمًا نفسه على الابتسام لنكاتنا، وكم كنت أكره أن أراه على تلك الحال.

24

هل جرت محادثتي غير المنتظرة مع عمّتي زوزو بُعيد «طرد» لوقا من مهرجان؟ لم أعد أعرف، فالتواريخ اختلطت عليّ. لكن بأيّة حال، من المؤكّد أنّ ذلك حدث في خلال خريف العام 1960 أو ربّما في بداية الشتاء.

دأبنا على الحذر من عمّتي زوزو التي كان بوسعها تلقّف أيّة كلمة لتروي من جديد حكاية رحلتها إلى أوروبا. في ذلك اليوم، شاء سوء حظّي أن أذكر أمامها أنّ سفينة يونانيّة وصلت إلى المرفأ، فوقعتُ في الفخّ:

– أتعرف أنّني في مايو من العام 1937 ذهبتُ إلى أوروبا على متن سانتا لوتشيا؟ كنت أرافق فرنسيّة من ناري، السيّدة بومون لاتور، التي قصدت باريس لمعالجة بعض شؤونها. كانت لنا مقصورة من الدرجة الأولى بسريرين، تنيرها نافذة، وفيها زاوية للتبرّج. حملت السيّدة بومون لاتور معها خزانة ملابس كاملة، فالسيّدات اللواتي كنّ يتناولن العشاء إلى الموائد حول طاولات صغيرة، يرتدين كلّ ليلة فستانًا جديدًا. وماذا أقول لك عن لائحة الطعام؟! حتّى في فندق اللوفر في باريس، لم نأكل طعامًا بمثل تلك الجودة. والخمور! لقد كانت في رحلة العودة على متن تيوفيل غوتييه أفضل حتّى من خمور سانتا لوتشيا...

بعد ربع ساعة من الحديث، عدنا أخيرًا إلى ناري.

– وجدتُ الجميع ينتظرني على المرفأ: شقيقاتي الثلاث، أبوك، أمّك... لا، أمّك لم تكن هناك، ففي العام 1937 كانت صغيرة، ولم تكن قد خُطِبت بَعدُ. لكن، أتى شقيقاها حبيب ولوقا اللذان نعرفهما جيِّدا... مسكين لوقا! لم يكن على حاله.

هنا، أصغيت إليها بانتباه شديد، وسألتُها:

– ماذا تعنين بأنّه لم يكن على حاله يا عمّتي زوزو؟

– لا، لم يعد لوقا حقًّا، فقد غدا حزينًا ومنغلقًا على ذاته لا يقول شيئًا.

أخفيتُ عنها دهشتي، ورغبتُ لأوّل مرّة في جعلها تتكلّم، فسألتها عن نزولها من السفينة. سمعت منها وصفًا لجسر النزول، ووداع الطاقم، والمرور بمكتب الجمارك...

– أي أنّهم أتوا كلّهم لانتظارك على الرصيف؟ وخالي لوقا أيضًا؟

– نعم. ولوقا أيضًا، طبعًا.

– ومع ذلك قلتِ لي إنّه كان مريضًا.

– مريض؟ لم أقل ذلك قطّ! لا، لم يكن مريضًا، بل بحال سيّئة.

سألت عمّتي زوزو عمّا إذا احتفظتْ بصور من رحلتها.

– طبعًا، احتفظتُ بألبوم كامل!

لشدّة سرورها بالاهتمام الذي أبديتُه، دعتني إلى منزلها لتريني الصور. كان المصوّر يدعى منير. لعلّه رغب في الزواج بها، لكنّ بقاء شقيقتها الكبرى بدون زواج منعه من طلب يدها...

بدت زوزو شديدة التأثّر قبل ركوبها سفينة سانتا لوتشيا، بسترتها الطويلة وبأبهى زينتها، وحقيبتها

بيدها. أحاط بها الأهل والأصدقاء، غير أنّ النجم الحقيقيّ كان لوقا، الشابّ الوسيم، الممشوق القامة، والضاحك. كان يحيط بذراعه خصر المسافرة وهو يبتسم للمصوّر.

قلّبت بأسرع ما يمكنني صفحات ألبوم الرحلة للوصول إلى صور عودة زوزو إلى ناري. ظهرتْ في هذه الصور مشرقة وقد خلعت سترتها، واعتمرت قبّعة جريئة. أمّا لوقا فقد بدا شخصًا آخر، منهزم الملامح وشارد النظرات.

سألت عمّتي زوزو عمّا إذا كان لديها من ألبومات أخرى. عرضتها عليّ بدون حماسة، لأنّ الألبومات الجديدة لا تتعلّق برحلتها. لاحظتُ على مرّ الشهور التغيّر الجسديّ الذي حلّ بلوقا. قد هزل كثيرًا في البداية، قبل أن يستعيد وزنه شيئًا فشيئًا، ليشبه الرجل الذي أعرفه.

من الواضح أنّ شيئًا ما قد جرى بين الأوّل من مايو من العام 1937 والحادي والثلاثين منه. ترى ما هو؟ تقصُّيت الأمر سرًّا لدى هذا وذاك بدون الحصول على إجابة شافية. لم يقع أيّ حدث عائليّ في خلال ذلك الشهر، ما خلا رحلة عمّتي زوزو الشهيرة، والولادة القيصريّة لإحدى نسيباتنا. هل كان يجب الذهاب بالبحث إلى أبعد من ذلك، في صفحة المتفرّقات، عن الوضع الاقتصاديّ أو السياسيّ؟ لعلّ إحدى جرائد تلك الفترة تستطيع توضيح الأمر.

كان في مكتبة بلديّة ناري، مجموعة مجلّدة من جريدة «أخبار ناري»، متاحة للتصفّح لمن يشاء. لم أكن حتّى بحاجة إلى ملء قسيمة لأقرأ مجلّد مايو 1937. عرف ذلك الشهر يومين من القيظ الشديد، من دون أيّ ذكر لدرجات الحرارة، مقارنةً بالفترة نفسها من السنة السابقة. كما تحدّثت الجريدة عن حادث اصطدام بين ترامواي وشاحنة في المدينة، نتج عنه عدد من الجرحى، وعن حادثة غرق – أخرى – عند الشاطئ العموميّ، وعن ارتفاع أسعار السجائر... لا شيء غير اعتياديّ. من غير المعقول أن يكون موت جون روكفيلر، أو تنازل إدوارد الثامن عن العرش، أو افتتاح المعرض العالميّ في باريس، هو ما أثّر في لوقا بهذا القدر!

لكنّ تساؤلي حلّت محلّه تساؤلات حثيثة أخرى، في ذلك الربيع من العام 1961.

25

ذات صبيحة من شهر أبريل، أتى رجال شرطة بملابس مدنيّة إلى مهرجان، وطلبوا رؤية المدير ليبلغوه بدون مقدّمات ولا تفسير أنّ الفندق خضع للتأميم. في الوقت عينه، تلقّى كلٌّ من رئيس مصرف الاعتماد الأشوريّ، ومالك مخازن داغاليك الكبرى زيارة مماثلة. قطعت الإذاعة برامجها لتبثّ خطابًا مدوًّيا لرئيس البلاد يهاجم فيه «الانتهازيين» الذين أتوا إلى البلد «ليمتصّوا دم الشعب».

هل تمّت عمليّات التأميم بدوافع اقتصاديّة حقًّا؟ أعطت السلطة الانطباع بأنّها تريد تحويل الانتباه ودغدغة المشاعر القوميّة بالاقتصاص من الملّاكين ذوي الأصول الأجنبيّة. ومن بينهم أرمنيّون ويونانيّون قرّروا ترك البلد بعدما أوكلوا محامين بمصالحهم. سار في أثرهم أشخاص أقلّ ثراء ولم يطلهم التأميم، لكنّ شعورهم بالانزعاج راح يتزايد وسط هذا الجوّ العامّ، فقلقوا بشأن مستقبلهم.

لم يكن مقهى أنطونياديس على لائحة الأملاك المؤمَّمة، غير أنّ صاحبه عزم على بيعه فنفي نفسه طوعًا أيضًا. كنت على وشك خسارة صديقي سبيرو، أي دارتانيان السابق. من بين الفرسان الأربعة، لن يبقى في ناري إلّا طارق وأنا.

رحلت أوّل مجموعة من المنفيّين الطوعيّين ذات أربعاء من شهر رمضان، وهذا ما يفسّر بلا شكّ توتُّر الجنود. أحاطوا بجسر الصعود إلى سفينة هيبريون، موجِّهين حراب بنادقهم نحو صفّ المسافرين الذين كانوا يشقّون طريقهم بصعوبة وسط الحشد. كانت النظرات حادّة ومحمومة.

بما أنّ عددًا من اليهود نجحوا، قبل خمسة أعوام، في تهريب أموال أو مجوهرات في بطانات ملابسهم أو قبّعاتهم، وحتّى أحيانًا في كعوب أحذيتهم، أُخضِع موظّفو الجمارك المسافرين والأمتعة إلى تفتيش دقيق. تمّ تفتيش الرجال على حِدَة، والنساء على حِدَة، خلف ستارة بالية ملطَّخة.

سرعان ما راح الموجودون يتدافعون بالأكواع لدى وصول مجموعة جديدة. كانت تتألّف من فتيات شارع الدبّور، وقد سالت مساحيق التجميل على خدودهنّ. قيل إنّ بعض رجال الشرطة قد عمدوا إلى ضربهنّ، وحتى اغتصباهنّ. كان منظرهنّ مؤلمًا، بكعوب أحذيتهنّ العالية وفساتينهنّ القصيرة وحقائبهنّ الرخيصة. راجت شائعات مفادها أنّه تقرّر طرد القوّادة المتّهمة بخداع مصلحة الضرائب، وأنّ عددًا من فتياتها اخترن اللحاق بها.

بحركة صغيرة من يده، أومأ إلينا غارو الفنّان الهاوي الذي كان يبيع سرًّا صور السيّدة مالوميان المثيرة وقد بدا بآلة التصوير المعلّقة إلى عنقه أشبه بالسائح. طلب منّا ألّا نتحرّك والتقط لنا صورة. فاندفع نحوه ضابط شرطة، وكأنّما اعتدى على أمن الوطن. من دون أن يترك له وقتًا للتبرير، خطف آلته، فتحها بحركة عصبيّة وانتزع منها الفيلم. راح غارو الذي وقف بذراعين متدلّيتين ينظر إلى الضابط عاجزًا، وترقرقت الدموع في عينيه.

أمّا السيّد سافاكيان، موظّف الاستقبال في مهرجان، فقد تسبّب بعصبيّته المعهودة بحادث كاد أن يتطوّر إلى ما هو أسوأ. بعدما قُلّبت محتويات حقيبته خلال التفتيش، طلب من موظّف الجمارك إعادة ترتيبها. نظر إليه هذا الأخير بازدراء ولم يُجِب، فرفع الأرمنيّ نبرته وراح يؤشّر بيديه منفعلًا. أسرع جنديّان نحوه ووقع تدافع تلقّى خلاله ضربة بأخمص البندقيّة على صدره. إستشاط السيّد سافاكيان غضبًا وأراد أن يهجم على موظّف الجمارك، لكنّ مدير مخازن داغاليك الكبرى تدخّل في الوقت المناسب لتهدئته.

لا أتذكّر أنّني رأيت الآنسة باتانيان يومذاك. هل مرّت بين مسافرين آخرين من دون أن ألمحها؟ هل

اختارت أن تكون من الأرمنيين واليونانيّين الذين رفضوا النفي الطوعيّ، على الأقل في الوقت الراهن؟ هم متأقلمون في البلد منذ ثلاثة أو أربعة أجيال، ولا يشكّلون مصدر تهديد لأحد، كما لا تعنيهم بشيء الصراعات الدائرة في المنطقة.

كانت سيفان مالوميان ترتدي فستانًا ضيِّقًا عند الخصر جعلها تبدو أصغر سنًّا، لكنّ زوجها هو الذي لفت الأنظار. فاجأ الجميع إذ ظهر وذراعه اليسرى ملفوفة بالجصّ، في حين لم يكن أحد يعلم أنّه تعرّض لحادث.

– ما هذه المسرحيّة؟ سأله أحد الضبّاط بنبرة جافّة.

– سقطتُ أثناء خروجي من مغطس الاستحمام، أجاب مدير مهرجان. كُسرت ذراعي وقد لفّها الدكتور زيتون بالجصّ.

– سنرى ذلك، أجاب الضابط متذمِّرًا.

أُبعِد السيّد مالوميان وزوجته عن الصفّ، وبقيا ينتظران عشرين دقيقة، فيما كان الركّاب الآخرون يصعدون إلى متن السفينة. حين بدآ يعترضان، قال لهما الضابط بعدما انضمّ إليه زميلاه، وملامحه تنذر بالشرّ:

– أتظنّاننا مغفّلين؟

راح الأرمنيّ الذي تغيّرت سحنته يمسح جبينه بمنديل. كذلك، لم تكن زوجته لتشعر بالاطمئنان.

– سنأخذكما إلى المستشفى العسكريّ لنتأكّد، قال الضابط.

– لكن... السفينة على وشك الرحيل، قال مالوميان متلعثمًا.

ولم يلبث صوت صفّارة أن أكّد كلامه.

أُرغِم الزوجان مالوميان على ركوب جيب انطلق مسرعًا وسط جلبة كبيرة. في المستشفى العسكريّ اضطرّا للانتظار ما لا يقلّ عن الساعة، إلى أن أُدخلا في النهاية إلى غرفة حيث قام ممرّض بنشر الجصّ، بحضور ضابطين. لم يكن في داخل الجصّ سوى ساعد متورِّم.

– أترون! صاح الأرمنيّ وهو على وشك البكاء، وقد فاتتنا السفينة!

أخفى الضابطان ارتباكهما بحجّة الذهاب للاتّصال برؤسائهما، ليعودا بعد ربع الساعة وهما يتمتمان اعتذارات. قالا للسيّد مالوميان إنّ طبيبًا عسكريًّا سيعيد لفّ ذراعه بالجصّ، وإنّ بوسعه الرحيل بعد يومين على متن سفينة شحن إيطاليّة ستبحر إلى جنوى بعد أن تُفرِغ حمولتها في ناري.

وهذا ما حصل. ركب مدير مهرجان وزوجته السفينة بعد يومين من دون طبل ولا زمر. رآهما بعض المتفرّجين يصلان إلى المرفأ ممتقعَيْ الوجه، يتبعهما خادمان من الفندق يحملان حقائبهما. لم يستطِع المدير سوى ارتداء كمّ واحد من كمَّي سترته ذات المربّعات. بعد التفتيش الاعتياديّ، صعدا جسر السفينة وتواريا في داخلها من دون أن ينظرا إلى الوراء.

وبذلك، انتهى العهد الأرمنيّ.

ما هي إلّا أسابيع قليلة حتّى دوّت فضيحة تندَّرْنا بها لسنوات، تداولها كلّ لسان في ناري، وتعدّدت حولها الروايات.

– هل تعلم ماذا فعل مالوميان؟ لا، لا، أنت لا تعرف الرواية كلّها. إسمع...

بعدما لَفّتْ ذراعُه مرةً ثانية بالجصّ، سُمح لمدير مهرجان وزوجته بالعودة إلى الفندق، وقد وضع تحت حراسة مشدَّدة. في وقت متأخّر من ذلك المساء، أو عند فجر اليوم التالي (تختلف الروايات حول التوقيت)، استدعى الزوجان سرًّا الدكتور زيتون الذي وصل عبر الدرب الترابيّة التي كنّا قد سمّيناها قبل سنوات درب آكلي لحوم البشر. سيفان هي التي فتحت له الباب الكائن في أقصى الحديقة. نُزِع الجصّ الجديد واستبدل بآخر يطابقه تمامًا، ووُضِعت داخله الماسّات الاثنتي عشرة التي كان الزوجان مالوميان قد عهدا بها إلى الطبيب المالطيّ، قبل انصرافهما. الدكتور زيتون اختيار ممتاز، فهو نفسه كان ينوي الرحيل نهائيًّا عن ناري في الأسبوع التالي، بملء إرادته، بعد أن يودِّع كلّ زبائنه. كان الطبيب عازبًا ولن يترك وراءه أحدًا قد يقلق لغيابه، لا زوجة ولا أولاد.

أثّرت فيّ تلك الرواية ولا سيّما أنّها جرت في مكان أعرفه جيِّدا: الباب الشهير الكائن في أقصى الحديقة، والذي كنّا نحاول ونحن أطفال أن نشاهد فندق مهرجان من خلاله، وأنوفنا لصيقة بالقضبان. أي أنّ ذلك الباب المتآكل بالصدأ قابل للفتح! رحت أتخيّل السيّد مالوميان يسير في الليل على ضوء مصباح جيب، وبيده حلقة المفاتيح... لا، فلم يكن بوسعه استخدام ذراعه الملفوفة بالجصّ. إذًا زوجته هي التي أتت... أو ربّما ذهبا معًا، ليْلًا، إلى أقصى الحديقة وكلٌّ منهما يستمدّ الشجاعة من الآخر؟ ألهبَتْ تلك القضيّة مخيّلة الناس. كان لكلّ من سكّان ناري رأيه وتفسيره حول موضوع لفّ الذراع بالجصّ للمرّة الثالثة.

بعد شهرين، وفي رسالة وصلت من باريس، روى الأرمنيّ للمحافظ تفاصيل الحيلة بمتعة خالصة وبجرأة مدهشة. حرص على إرسال نسخة منها إلى الجرائد المحليّة التي امتنعت عن نشرها، غير أنّ ناري كلّها، بطبيعة الحال، عرفت محتوى الرسالة.

أودّ في البداية أن أطمئنك إلى صحّتي يا سعادة المحافظ. لم أكسر ذراعي، فأنا شديد الانتباه دائمًا حين أخرج من حمّامي. والجصّ الذي لففت به ذراعي وذهبت به إلى الجمارك في اليوم الأوّل، لم يكن يهدف إلّا إلى إثارة شكوك معاونيك الغيارى. خشيتي الوحيدة كانت أن يصدّقوني ويدعوني أسافر وأنا على تلك الحال. كان ذلك ليعقّد الأمور كثيرًا، ويرغمني على وضع خطّة أخرى لإرسال ماسّاتي إلى أوروبا. وهي خطّة أكثر تعقيدًا ومجازفة، إسمح لي بعدم الكشف عنها...

يُروى أنّ المحافظ، بعدما تلقّى تلك الرسالة، هرع غاضبًا إلى مركز الجمارك ليعاقب المسؤولين شخصيًّا. ويبدو أنّ زعيقه سُمع من آخر رصيف المرفأ.

26

بعد رحيل الزوجين مالوميان بأيّام قليلة، استُدعي لوقا إلى مركز المحافظة. ساوره القلق، ماذا يريدون منه؟ في الفترة الأخيرة كان عدد كبير من أبناء ناري يُستدعون إلى ذلك المبنى الكئيب، ثم يُنقَلون منه مباشرةً إلى السجن، من دون أيّ تفسير.

كانت لخالي أسباب تدفعه إلى القلق، ولا سيّما أنّه مُنِع منعًا باتًّا من أن يقيم اتّصالًا مباشرًا مع المحافظ. لقد دأب منذ سنوات على تسليم هذا الأخير زجاجات جوني والكر مموّهة في صناديق من المشروبات الغازيّة. كانت الطلبات ترده عبر الهاتف من قِبل شخص مجهول يدعى عزّ الدين لا يعرف منه غير صوته. كان لوقا يقود شاحنة بنفسه ويذهب ليلًا لتسليم البضاعة في أحد العنابر، حيث ينتظره مغلّف. لم يتباهَ لوقا بهذه التجارة الصغيرة أمام أحد، إدراكًا منه لما قد يكلّفه إفشاء سرّ كهذا.

فلماذا استُدعي إلى مركز المحافظة؟ هل يتعلّق الأمر بتفتيش ضريبيّ؟ لم يكن ضمير لوقا مرتاحًا تمامًا من هذه الناحية. لكن، مَن من سكّان ناري يستطيع أن يزعم بأنّه يدفع كلّ ما عليه من ضرائب؟

أمّا بالنسبة إلى مشروب نياغارا الذي كانت تركيبته مطابقة للقواعد الصحيّة، فلن يسبِّب أيّة متاعب. فالآلاف القليلة من الزجاجات التي تُباع وبكثير من الصعوبة كلّ شهر، لم تحدِث ثورة في سوق المشروبات الغازيّة، كما ولا يمكنها أن تزعج السلطات. تبقى مسألة شريكه اليونانيّ. هل كان دافلوروس أو أفراد عائلته محلّ شبهة ما؟

لم يكن لوقا ليشعر بالاطمئنان حين دخل مركز المحافظة قبل عشر دقائق من الموعد المعيّن. في البهو، طلب أحد الموظّفين إليه أن يتبعه، من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. صعد الرجل بخطوات سريعة درجًا يقود إلى الطابق الأوّل، ثمّ مرّ عبر متاهة من الأروقة. بعد اجتياز بابين مبطَّنين، كانت مفاجأة لوقا كبيرة حين وجد نفسه في مكتب المحافظ. لم يتكلّف حاكم المنطقة الجالس خلف طاولته عناء الوقوف لمصافحته. بين رشفتين من الشاي الساخن، قال له وهو يكاد لا ينظر إليه:

– عيُّنتك مديرًا لفندق مهرجان. ستتولّى وظيفتك صباح الغد. سيعطيك مساعدي كلّ التعليمات الضروريّة. هذا منصب مهمّ، فلا تخيّب أملي.

من دون أن ينتظر أيّ إجابة، أو أيّ كلمة شكر من خالي، ضغط على جرس، وإذا برجل هزيل القامة فارع الطول، له وجه شبيه بوجه البومة، يدخل من باب جانبيّ. قال له المحافظ:

– يا عزّ الدين، هذا هو المدير الجديد لفندق مهرجان، وهو متشوّق لتسلّم وظيفته. أعطِه المفاتيح.

أومأ «البومة» إلى خالي ليتبعه.

لماذا لوقا؟ دُهِش الجميع، بدءًا بشقيقيه.

– هل أنت واثق من أنّك فهمت جيِّدا؟ كرّر فايز سؤاله، وهو لا يصدّق ما يسمع.

خَشِيَ فايز أن يكون شقيقه ضحيّة مكيدة. ألم يُعهَد منذ عامين إلى موظّف رفيع ومستقيم بإدارة مؤسّسة مزدهرة ظاهريًّا، وعلى شفير الإفلاس في الواقع، وذلك بهدف تحميله المسؤوليّة؟

التفسير بسيط: تجنُّبًا لاتّهامه بالطائفيّة، قرّر المحافظ أن يعيّن مسيحيًّا لإدارة مهرجان مؤقَّتا. أمّا لوقا فقد أظهر فعاليّة وقدرة على الكتمان في تجارة الويسكي، ويمكن الاعتماد عليه.

والحقيقة أنّ لوقا لم يكن خيار المحافظ الأوّل والوحيد، إذ فكّر في أن يعهد بالمنصب إلى الشقيقين

إسكندر، قبل أن يعود ويستدرك: وجد أنّه من الأفضل اختيار شخص لا يملك الخبرة. فغياب المهارات الفندقيّة يجعل من المدير أداة طيّعة في أيدي المسؤولين.

هكذا، أصبح لوقا ابن السادسة والأربعين على رأس مهرجان. لكنّ فندق ناري ذا النجوم الخمس هذا، تعلوه راية الوطن، قد أصبح ملكيّة عامّة. لما استطاع خالنا امتلاك عُشر مؤسّسة بهذه القيمة حتى ولو باع كلّ مشروع تجارة المشروبات. عُيّن له راتب لا بأس به، وكان بوسعه الزيادة عليه بحيل شتّى. كما لم يكن تأميم الفندق ليغيّر شيئًا في العادات السارية منذ عهد إيلي حنّور، فالمحافظ يستمرّ في تقاضي نسبة مئويّة من مداخيل الفندق.

– لهذه الطلبيّة، قال له عزّ الدين مُكشِّرًا، لن تكون بحاجة لا إلى صناديق ولا إلى شاحنة. قال ذلك بعدما أعطاه رقم حساب مصرفيّ باسم مستعار لدى أحد مصارف العاصمة.

إستشاط الشقيقان إسكندر غضبًا: فقد قدّما قبل يوم واحد، عرضًا مغريًا جدًّا للمحافظ لتولّي إدارة مهرجان، متوقّعين الفوز بالمنصب. لم يكن وضع المؤسّسة يعنيهما، بل ما يهمّهما هو السيطرة على القطاع الفندقيّ. إذا استطاعا وضع اليد على سافير بالاس ومهرجان، لتمكّنا من تعديل الأسعار كما يحلو لهما، وحقّقا وفرًا كبيرًا من خلال اعتماد محاسبة مشتركة، ومصبغة واحدة، وجمع المشتريات.

غنيّ عن القول إنّ لوقا تحوّل بين ليلة وضحاها موضع غضبهما وانتقاداتهما الساخرة. ماذا يأتي بائع الليموناضة هذا ليفعل في إدارة فندق من الفئة الأولى؟

– أُمهله ثلاثة أشهر حتّى يستسلم، قال الشقيق الأكبر.

– ثلاثة أشهر حتّى يُقتلع بركل قفاه، أضاف الشقيق الأصغر مرفقًا كلامه بحركة من قدمه.

أمّا لوقا فقد كانت جعبته ملأى بارتكابات صاحبَي سافير بالاس، واللذين لقّبهما بـ«السيّئ والأسوأ».

عمومًا، كان تعيين لوقا محلّ تقدير واسع بين موظّفي مهرجان، فمعظمهم يعرفونه، من البستانيّ إلى رئيس النُدُل، وقد تسنّت لهم فرصة محادثته بشكل أو بآخر، والاستماع إلى تعليقاته أو طرائفه أو أخباره. هم يقدّرون ما يتمتّع به من لطف ومودّة. ما كان لأحدٍ أن يتخيّله مديرًا، لكن ما إن عُيِّن حتّى بدأوا ينادونه بـ«الريّس».

من أولى التدابير التي قام بها لوقا، استبدال اللوحة التجريديّة في بهو المدخل بصورة رسميّة لرئيس الجمهوريّة. وهذا من البديهيّات في المؤسّسات العامّة. أليس في أصغر دكاكين شارع الفنار، صورة للرئيس بابتسامته الضارية تواكب المواطنين في كلّ وقت؟

تفاجأ سعد عبد الحميد السيّد بوجود لوقا.

– حقًّا؟ أنتَ شقيق فايز؟ هذا غريب. لا أذكر أنّه كلّمني عنك...

خامرته الحيرة أمام مظهر المدير الجديد وأسلوبه، حينما التقاه في الصالون الإنكليزيّ حيث يأتي ليشرب كأسه اليوميّة من البوربون.

– أنت تشرب الويسكي، علّق لوقا.

– لا يا سيّدي، هذا بوربون! هتف السيّد مصدومًا بجهل محاوره.

بابتسامته اللطيفة، انطلق لوقا في عرض باهر للموضوع، شارحًا أنّ أنواع الويسكي ليست كلّها بوربون، لكنّ كلّ أنواع البوربون هي ويسكي. زيّن وصفه الدقيق لصناعة المشروبين ببعض الحكايات

والطرف الجميلة، وإنّما بشيء من التحفّظ. ألم تطلِق ولاية كنتاكي اسم «بوربون» على هذا المشروب المشتقّ من الويسكي، وذلك تعبيرًا عن امتنانها للملك الفرنسيّ لويس السادس عشر الذي ساعد الأميركيّين في محاربة بريطانيا الغدّارة؟ ولمّا كان لوقا على علم بعشق السيّد لفنّ الأوبرا، لمّح إلى شغف ماري أنطوانيت بفنّ الشعر الغنائيّ، ولم يتردّد في دفع الحوارً إلى ما هو أبعد:

– تخيّل أنّ موزار طلبها للزواج في فيينا، وهو لا يزال يافعًا...

وهكذا، فاز لوقا بإعجاب زبون الفندق الدائم.

لم تنفكّ المفاجآت تنهال على خالي فايز. كيف عُهِد بمنصب على هذا القدر من الأهمّية إلى شقيقه الذي لا يفقه شيئًا في فنّ إدارة الفنادق؟ أيّ خطّة مكيافيليّة يخبّئها هذا التعيين المُستغرب؟

الحقيقة أنّ لوقا تعلّم الكثير على مرّ السنوات المنصرمة، في خلال مراقبته عمل الفندق ومحادثة موظّفيه. لا شكّ بأنّ المحافظ على اطّلاع واسع، فهو لم يكن ليعهد بإدارة مهرجان إلى أيّ شخص كان، ولو لفترة محدودة. أمّا المدير الجديد فكان يتكلّم بلهجة مَن فكّر مليًّا في المسألة ودرسها من كلّ الجوانب.

كان يقول لموظّفيه:

– يريد النزيل أن يشعر وكأنّه في منزله. لكنّه مسافر يتوقّع شيئًا آخر أيضًا: يسعى إلى الابتعاد عن محيطه اليوميّ، والتمتّع براحة معيّنة وبخدمة لا يحظى بها في منزله. علينا إذًا أن نوفّر له وفي آنٍ واحد، هاتين الحاجتين المتناقضتين.

كانت نيفين، مدبّرة الفندق، على معرفة بلوقا منذ الطفولة. حين نُقل إليها خبر تعيينه مديرًا لفندق مهرجان، خطر ببالها أنّه مقلب. ثمّ تساءلت عمّا إذا كان المنصب الجديد ليُسكره بجنون العظمة. لكنّه أتى يعانقها باسمًا. لم يتغيّر قطّ، ولم تزَ هي سوى الحظوة في أن يكون الرجل الذي وقعت في حبّه وهي في سنّ العشرين هو أيضًا ربّ عملها، وجدّ قريب منها.

قالت أمّي، وهي إحدى نسيباتها بالزواج:

– طبعًا، كانت نيفين مغرمة بلوقا! وهل ثمّة فتاة في ناري لم تكن حينذاك مولعة بفتى مثله، وسيم ورياضيّ ومرح وطريف، وغير مزاجيّ؟

27

بدأ عهد لوقا بصاعقة مدوّية.

– سأخفّض عشرة بالمئة من مجموع الأجور، قال لنا ذات يوم أحد، فيما كنّا إلى المائدة.

– خفض الأجور؟ لكنّ هذا غير قانونيّ، ردّ خالي فايز وهو يكاد يختنق.

إبتسم لوقا، سعيدًا بالوقع الذي خلّفه.

– أبدًا. سألغي فقط علاوة العشرة بالمئة التي أقرّها مؤسِّس مهرجان.

– لكنّ موظّفيك سيثورون! اعترض والدي.

– لا أبدًا، بل سيقبّلون قدميّ، لأنّهم سيربحون أكثر.

أذهلنا ردّه، ورحنا نرمقه بنظراتٍ حائرة.

– نعم، سيربحون أكثر. كان إيلي حنّور، رحمه الله، قد منحهم علاوة العشرة بالمئة تلك تعويضًا عن غياب البقشيش. لقد تعلّم في المدرسة الفندقيّة في لوزان ضرورة حظر البقشيش. لكنّنا لسنا في سويسرا! البقشيش جزء من ثقافتنا المحليّة. من أعلى الهرم إلى أسفله، من الوزير إلى البوّاب، لا أحد يتخيّل الحياة بدون بقشيش. كما أنّ البقشيش إكراميّة يستحقّها العاملون، وأمّا منعها عنهم فغبن لهم وإحباط للزبائن.

– ماذا تعني بإحباط الزبائن؟ سأله حبيب الذي تصاعد قلقه.

– يحبّ الزبائن مكافأة الموظّف الذي أرضاهم. إذا منعناهم من ذلك، شعروا بالانزعاج والإحباط. أمّا الموظّف الجدير، فعليك رؤية ابتسامته حين تُدسّ في يده قطعة نقديّة!

لم يصدّق فايز أذنيه.

– في المحصّلة، أنت تريد توفير عشرة بالمئة من مجموع الأجور؟

– نعم، يا عزيزي، عشرة بالمئة. وهكذا...

فرقع بأصابعه، للتأكيد على سرعة العمليّة. ثمّ أضاف بثقة:

– لن أخفّض فقط مجموع الأجور بنسبة عشرة بالمئة، بل وأحسّن نوعيّة الخدمة جرّاء ذلك.

– حقًّا! قال فايز وقد استولت عليه ضحكة عصبيّة. إشرح لنا من فضلك لعبة الخفّة الجديدة هذه.

أردف لوقا بصوت حازم:

– أثبتت دراسة أميركيّة أنّ البقشيش يحسّن نوعيّة الخدمة. بما أنّ ربّ العمل لا يستطيع مراقبة كلّ شيء، فالزبون يصبح مساعده بشكل من الأشكال. هذا الأخير هو في الموقع الأفضل لتقييم ما يُقدَّم إليه من خدمات. الأمر في غاية البساطة!

وهكذا، تبلّغ موظّفو مهرجان الذين يتعاملون بشكل مباشر مع الزبائن، إلغاء علاوة العشرة بالمئة، والسماح بالبقشيش. أمر لوقا بأن تُزال من الغرف كما من المطعم تعليمات منع البقشيش كما قرّرها مؤسّس مهرجان في الماضي. وبعدما حرص لوقا على أن يشرح شخصيًّا لكلّ من الموظّفين فوائد

النظام الجديد، لم يواجه الثورة الموعودة.

– البقشيش يحسّن من فعاليّة الموظّف، أكّد لنا بعد أسابيع قليلة. نحن نلاحظ ذلك في المطعم كما في الطوابق. جميعهم يرغبون في لفت الانتباه: يبتسمون أكثر، يعتنون بملابسهم، ويضاعفون مبادرات الاهتمام واللياقة.

إستولى الإعجاب على كلّ أفراد العائلة. حتّى خالي فايز راح يتساءل عمّا إذا كان قد أخطأ في حكمه على قدرات شقيقه الإداريّة.

في مهرجان، خَبِر لوقا محاسن السلطة. بين ليلة وضحاها، تبدّلت علاقاته مع موظّفين كان يعرفهم منذ سنوات. بدا الجميع في خدمته قبل أن يكونوا في خدمة الزبائن. إشارة واحدة منه كانت تكفي حتّى يستجيب حمّال حقائب، أو خادمة غرف، أو رئيس النُدل، أو بستانيّ لرغبته في الحال.

ومع هذا، بقي ذلك الرجل الباسم، الشديد الانتباه، الواسع الحيلة، المحبّ للتواصل، والمستعدّ دائمًا للدردشة والمزاح، حتّى مع أدنى الموظّفين رتبة. إنفرجت الأجواء في الفندق. كان ذلك يُقرأ جلّيا في سمات الوجوه. بدا الموظّفون أكثر ارتياحًا إذ ما عادوا يشعرون بأنّهم موضع رقابة مستمرّة.

قال السيّد كرافيلو البرتغاليّ للمدبّرة:

– في عهد عائلة ليفي-حنّور، كان مهرجان عالي الياقة. مع مالوميان، شدّ حزامه، أمّا الآن فهو يفكّ أزراره.

– قد أصف الأمور بطريقة مختلفة قليلًا أجابت نيفين بابتسامة. مع عائلة حنّور، كان مهرجان يعيش حسب التوقيت السويسريّ. مع مالوميان، انتقل إلى زمن الحسابات. أمّا لوقا فيديره وفقًا لحدسه وهواه.

كان بهو المدخل مكان الريّس المفضّل. وكانت لديه طريقته الخاصّة في رفع الذراعين ترحيبًا بالزبائن، حال اجتيازهم عتبة الباب الزجاجيّ الكبير. كان يستقبلهم كضيوف في منزله الخاصّ. ولم يلبث بعضهم أن أصبحوا من أعزّ أصدقائه.

ثمّة دعابة شاعت في الفندق وأسهمت في ترسيخ شعبيّة لوقا بين الموظّفين: بعد ظهر أحد الأيّام، وبينما كان خلف مكتب الاستقبال في البهو، بصحبة موظّف الاستقبال الجديد، دخل الفندق رجلٌ في كامل أناقته. سألهما عن احتمال شغور غرفة مطلّة على البحر، فأجاباه بالإيجاب. سُرّ الرجل وهرع لإخبار رفيقته التي بقيت بانتظاره في سيّارة مكشوفة لمّاعة. لكن، لحظة حمل الحقائب إلى الغرفة، وعلى سبيل التأكّد ليس إلّا، سأل إن كانت الغرفة مزوّدة بحمّام. تظاهر لوقا بالصدمة وهو يجيب:

– آه، لا! زبائننا كلّهم من الأشخاص النظيفين وليسوا بحاجة إلى الاغتسال.

بعد أشهر قليلة من تعيينه على رأس مهرجان، بات وضع خالنا الماليّ مزدهرًا جدًّا. علاوةً على راتبه الذي يتقاضاه بصفته مديرًا للفندق، كان يحقّق الأرباح أيضًا من عائدات تجارته التي ما لبثت أن نمت بقوّة. لم يصبح المورِّد الوحيد لمشروبات الفندق – بموافقة مركز المحافظة – وحسب، بل راحت مقاهٍ ومطاعم عدّة تتّصل به بعدما خسرت تجّار الجملة الاعتياديّين. لتلبية الطلبيّات المتزايدة، وجب عليه توظيف ثلاثة عمّال إضافيّين وشراء شاحنة.

ولمّا كانت السعادة تستجرّ السعادة، فقد تفتّقت قريحة السلطات عن فكرة فطنة تحظّر استيراد مشروب غازيّ أجنبيّ عرف رواجًا كبيرًا في ناري، بذريعة أنّ شركة الإنتاج قد أنشأت مصنعًا لها في إسرائيل. هكذا، انفتح أمام نياغارا طريق معبّد وواسع لتصريف نِتاجها. وحيث لم يعد لوقا مُلزمًا بالعمل اثنتي عشرة ساعة يوميًّا بعدما انتظمت أمور الفندق، انهمك بتطوير البعد الصناعيّ لمؤسّسته

الصغيرة: إبتكر زجاجات أكثر أناقة وموسومة بشعار جديد. ولم يلبث شلّال نياغارا أن تدفّق هادرًا.

هذه البحبوحة التي حلّت على خالي أضافت إلى سخائه الطبيعيّ جانبًا مسرحيًّا، يقارب حدّ الإزعاج. لمناسبة عيد مولدها، تلقّت أمّي هديّة رائدة لا يعرفها سوى بعض المحظوظين في ناري: آلة أوتوماتيكيّة ذات جرن كبير لغسل الملابس، أغنتها عن استقدام امرأة لتولّي مهمّة الغسل كلّ أسبوع، فاستغنت بذلك عن ترسانة طسوت المياه الساخنة والباردة. من جهة أخرى، قدّم بابا نويل إلى عمّاتي آلة خياطة كهربائيّة، فبدت السنجر طراز 1927 والمصنوعة من الفولاذ الأسود، من العتقيّات، مقارنة بها.

كما نالت بيلينا، عشيقة لوقا، خاتمًا من الذهب والماسّ. لكنّ أمّي رأت أنْ ليس هناك ما يبرّر تلك الهديّة، فبالنسبة إليها، لا تستحقّ القبرصيّة حتّى كشتبان خياطة من البلاستيك.

بدا لوقا أكثر ارتياحًا وخفّة في حركته، كما أنّه خسر بعض الوزن. دأب كلّ صباح على الاستحمام في البحر، وبحركات كراول متقنة، غالبًا ما كان يتجاوز العوّامة الحمراء. كان عامل الشاطئ ينتظر بكثير من الإعجاب عودة الريّس، وبيده منشفة كبيرة.

حين دخل ذات أحد إلى منزل عمّاتي، ببزّة جديدة من الكتّان الرائع، علت صيحات الإعجاب. لم تستطع أمّي منع نفسها من الهتاف:

– وأخيرًا عدتَ إلينا!

صحيح أنّ شقيقها لم يعد ذلك الشابّ في مقتبل العمر كما قبل الحرب العالميّة. ولكنّه بدا أصغر بعشر سنين، وترسّخت ملامح الوسامة في وجهه. يمكن القول إنّ اعتزازه بإدارة مهرجان أوقد شررًا في نظراته.

28

باع جدّ صديقي سبيرو مقهى أنطونياديس الكائن في المرفأ، لرجل ورث مبلغًا لا بأس به من المال، يدعى مبروك، ويعمل إسكافيًّا. تمّت الصفقة بسهولة، وبسعر معقول يُرضي الطرفين. راح أصدقاء المالك الجديد يهنّئونه قائلين «مبروك يا مبروك!».

لكنّ بيع مقهى دميانوس الذي نجا من التأميم، كان أكثر صعوبة. ما إن عرف الشقيقان إسكندر أنّ صاحب المقهى اليونانيّ قرّر هو أيضًا تصفية أملاكه ومغادرة ناري، حتّى قدّما له عرضًا تافهًا جدًّا. كان اسم المقهى التجاريّ يساوي ذهبًا، لا سيّما بعدما عدّد دليل رحلات أنكلوساكسونيّ – ربّما لأنّه لم يجد ما يكتبه عن مدينتنا – «عجائب ناري السبع»، ومن بينها مقهى دميانوس إلى جانب الحصن العربيّ، والمعبد الإغريقيّ الصغير، وفندق مهرجان، ومخازن داغاليك الكبرى، والاعتماد الأشوريّ، ومستودعات الشرق.

بدأت المساومة ودامت أسابيع، وشاهد اليونانيّ تمثيليّة إسكندر الأكبر وإسكندر الأصغر، اللذين تقاسما دورَي الشرّير والطيّب. لكنّ صاحب المقهى لم يحفل كثيرًا بهذه الكوميديا.

– فكُّرت مليًّا، قال صاحب المقهى «للسيّئ والأسوأ». سأحتفظ به ريثما أجد له مستثمرًا.

لكنّهما سارعا إلى تقديم عرض جديد، يضاف إلى عروضهما السابقة التي لا تُحصى. أخيرًا، تمّ الوصول إلى اتّفاق بيع بالسعر الأفضل، لا يشمل النفقات الجانبيّة، فلا بدّ طبعًا من رشوة موظّفين حكوميّين على مستويات متعدّدة. تظاهر الشقيقان إسكندر بأنّهما ضحيّتا الجشع اليونانيّ، وأكّدا أنّهما دفعا ثمنًا باهظًا في سبيل إنقاذ عنصر أساسيّ من تراث ناري. لكنّ أحدًا لم يُخدع بمسرحيّتهما الهزليّة.

عُثر بين أوراق فورينبيك على خريطة مفصّلة لمقهى دميانوس، رسمها بنفسه. حتى أنّ الروائيّ حدّد مكان النوافذ وشكل منضدة العمل الوسطى. كما أنّ كلًّا من مشاهد الرواية التي تدور أحداثها في هذا المقهى الخياليّ، كان ليكشف لنا عن تفاصيل إضافيّة: خشب الشمّاعات الفاحم، مصابيح السقف ذات زهرات التوليب الثلاث من الأوبالين... ولم يُخف عن القارئ شيئًا، ولا حتّى الطلاء الذهبيّ المتقشّر على القوارير الأسطوانيّة الشكل التي تُستخدَم لملء الجعة.

بعد امتلاكهما المقهى، رأى الشقيقان إسكندر أنّه بحاجة إلى تحديث وإلى إطار واضح يندرج فيه. أمرا في خلال أعمال التجديد بأن يتضمّن الديكور قدْرًا كبيرًا من المظاهر الشرقيّة، على غرار فندق سافير بالاس. غاب أثاث المقهى الذي صوّرته سطور رواية «ناريبوليس»، ليحلّ محلّه ما يشبه الصالون العربيّ-الأندلسيّ الطراز حيث السجّاد، والمقاعد الخشبيّة، والوسائد، والطاولات الخفيضة المغطّاة بصوان كبيرة من النحاس المفضّض... كما خُفِّفت الأنوار، وأضفت أسطوانات أمّ كلثوم أجواءً موسيقيّة مميّزة.

– مقهى دميانوس وُلد من رواية، قال لوقا مستنكرًا. إنّه أشبه بمقهى ثقافيّ، وقد بيع لرجلين أميّين.

لا شكّ في أنّ هذه العبارات وصلت إلى مسامع الشقيقين، إذ أعلن أصغرهما أنّ الردّ لن يتأخّر، ملمِّحا إلى أنّ الانتقام «طبق يؤكل فاترًا».

بعد أسابيع قليلة، لاحظ لوقا أنّ شائعات تسري في المدينة حول حالات تسمّم في مطعم مهرجان. إشتبه في الحال بمنافسَيه في سافير بالاس، لكنّه لم يملك ما كان يسمح له باتّهامهما. كما أنّ تقديم دعوى ضدّ مجهول لن يفيده بشيء، نظرًا إلى تقصير الشرطة في هذا النوع من القضايا. كان من الصعب استباق تأثير هذا النوع من النميمة في الزبائن، لكنّ التوتّر بدأ ينال من أعصاب رئيس الطهاة ورئيس

النُدُل على نحو جديّ.

روى أبو عمر السائق للوقا أنّه لمح في المحطّة رجلًا متين البنية، أصلع، يقترب من المسافرين لدى نزولهم من القطار ليحدّثهم عن الفنادق المحليّة. ذلك كان ليشكّل دليلًا، لكنّ الرجل لم يعاود الظهور.

عند ظهر أحد أيّام الأسبوع التالي، اقترب أبو عمر من لوقا على شرفة مهرجان وهمس له:

– ذاك هو، هناك. لقد عرفتُه. لا، ليس تمامًا... ظننته أصلع.

– لا بدّ من أنّ شعره نبت من جديد.

تُرك الرجل ذو الشعر المستعار يدخل المطعم، يجلس ويطلب طعامًا. راح لوقا يراقبه من أقصى القاعة.

بعد أقلّ من دقيقة على تقديم الطعام له، أومأ الرجل إلى رئيس النُدُل، ثمّ راح يتذمّر بصوت مرتفع من مذاق القريدس السيّئ، وصاح مرّات عدّة بالعربيّة والإنكليزيّة:

– إنّه فاسد، حقًّا!

ثمّ كرّر ذلك بالفرنسيّة مرفقًا تذمّره بحركات واسعة من يديه، وكأنّه يريد أن يُفهم الجميع ما يقول. في خلال ذلك انفكّ شاربه المستعار وتدلّى من جهة واحدة. أدرك زبائن الموائد القريبة حقيقة ما يجري، فراحوا يلكزون بعضهم بعضًا بأكواعهم ويبتسمون.

إقترب لوقا من الرجل وقال له بحدّة:

– المعذرة يا سيّدي، لعلَّك من أقارب الشقيقين إسكندر؟

– لماذا تسألني هذا؟ ردّ الآخر مضطربًا.

– لأنّ بينكم شبهًا عائليًّا. في الشاربين ربّما... وللمناسبة، هل لكزت قطعة القريدس أحد شاربيك؟

تلمّس الرجل بأصابعه شفته العليا وامتقع وجهه، فيما دوّى الضحك من حوله. رمى فوطته على المائدة ونهض من غير أن يقول كلمة واحدة.

– سأرافقك، قال له لوقا.

أُرغِم الرجل على الصعود إلى المقعد الخلفيّ لسيّارة الـ«بويك»، وأحاط به موظّفان من مهرجان. جلس المدير على المقعد الأماميّ بجانب «أبو عمر». ثمّ انطلقت السيّارة في اتّجاه سافير بالاس.

حين وصلوا، اقتحم لوقا، يتبعه معاونوه، بهو المدخل، وهو يمسك بكتف الممثّل الذي لم يكن يشعر بالاطمئنان. ثمَّ صاح بصوت كالرعد:

– أريد مقابلة صاحب هذا البازار.

– مَن أقول له؟ سأله موظّف الاستقبال خائفًا.

لكنّه لم يضطرّ حتّى إلى أن يقول. خرج الإسكندر الأصغر من باب جانبيّ، وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة، فاندفع لوقا نحوه وأمسك بطيَّتي سترته أمام دزّينة الحاضرين، قائلًا:

– أتيت أعيد لك ذراعك الأيمن. لقد نجا من الموت، فطهاة مهرجان أرادوا تقطيعه حلقات لتقديمه في مطعمنا، بين طبقَي دجاج أو ربّما زوجَي حمام. أتعرف أنّ بإمكاني الزجّ بك في السجن لأنّك سعيت لتشويه سمعة مؤسّسة عامّة؟

وبدون أن ينتظر جوابًا، غادر المكان أمام الموظّفين والزبائن المذهولين.

لم تخرج القضيّة عن هذا الإطار قطّ. الجرائد المحليّة لم تكتب عنها شيئًا لأنّها كانت حريصة على الحفاظ على أحسن العلاقات مع الفندقين الأساسيّين في ناري، واللذين كانا من أبرز المُعلنين فيها. أمّا المحافظ الذي لا بدّ من أنّه سمع من جواسيسه ما جرى، فلم يحرّك ساكنًا. لا شكّ بأنّ لديه مصالحه هو أيضًا في سافير بالاس. لكنّ خبر تلك الحادثة انتشر في المدينة. منذ رواية الكسر المزيّف في ذراع السيّد مالوميان، لم يستمتع أهالي ناري بأيّ خبر كما استمتعوا بتلك الحادثة. كلّما دأب لوقا على قصّ فصولها المختلفة، مدعَّما روايته بالحركات، كان مستمعوه يبكون من شدّة الضحك.

29

إنتقل عدد من عائلاتنا من مسكنه، لاستئجار شقق جميلة أخلاها أرمنيّون أو يونانيّون، فبتنا موزّعين في جهات المدينة الأربع.

دعا والدا نسيبي داوود (دودي) أصدقاءهما إلى منزلهما الجديد في الطابق السابع من مبنى أنيق، بعدما جهّزاه بقطع أثاث فخمة اشترياها من بعض الذين هجروا المدينة: حوالى العشرين قطعة من الأرائك، الكنبات، الخزائن صغيرة، الإسكمّلات، والمناضد المزخرفة... بعضها من طراز لويس الثالث عشر، والبعض الآخر من الطراز المعاصر. بهذا الخليط المتباين الصارخ، حطّمت رداءة الذوق كلّ الأرقام القياسيّة في ناري. حين زارت عمّتي وردة شقّتهما الجديدة، وعلى الرغم من عدم ولعها بفنّ الديكور الداخليّ، صاحت تلقائيًّا:

– هذا غير متناسق على الإطلاق. بشرفي!

كما أضيفت إلى غرفة دودي مكتبة من الخشب المطعّم، تساءلنا كيف لها أن تفيده، فدودي ما كان بحاجة إلّا إلى خزنة يودع فيها حصيلة ألاعيبه وحيله.

أمّا عمّاتي الثلاث فما كنّ ليغيّرن مسكنهنّ مقابل أيّ شيء في العالم، وقرّرن العيش في منزل طفولتهنّ، وسط أثاث والديهنّ، حتى النفس الأخير. هناك، وسط ذاك الديكور العائد إلى قرن خلا، سوف تستمرّ غداءات الآحاد حسب الطقوس ذاتها.

غير أنّ خالي حبيب أبدى مقاومة. كان متمسِّكا بعاداته ولم يفهم سبب إصرار زوجته على الرغبة في الانتقال. أمّا هي فكانت تختنق وسط رتابة هذه الحياة الزوجيّة التي لا تنفكّ تتتابع بإيقاع ضابط الموسيقى.

– قد تجد لنفسها عشيقًا، همست أمّي التي كانت على حذر دائم من زوجة أخيها.

في نهاية الأمر، تحقّق للزوجة المحبَطة ما تريده. بكثير من الألم، أذعن حبيب ووافق على الانتقال إلى الجهة المقابلة من الشارع، للسكن في مبنى حديث، وفير الإضاءة ومطلّ على البحر. وقّع حبيب عقد الإيجار، مكفهرّ الوجه، وكأنّه يُقاد إلى الذبح. حاول لوقا إقناعه بالمنطق:

– هوّن عليك، أنت تنتقل مسافة خمسين مترًا لا أكثر! لا إلى منفى في أوستراليا!

الواقع أنّ حبيب لم يكن مضطرًّا حتّى إلى تغيير دقيقة واحدة من مواعيده اليوميّة، لكنّه بدا مضطربًا جدًّا. في الأيّام التي تلت، شعرنا بالقلق على صحّته، فقد أصابه الأرق وراح يشكو صداعًا وسعالًا شديدًا...

حدثت المعجزة بعد أسبوعين من الانتقال، حين أدرك حبيب أنّ السماء لم تسقط على رأسه. وجد منافع كثيرة في شقّته الجديدة التي لم يعد يصبر للعودة إليها في أواخر بعد الظهر، من دون أن يتوقّف حتّى في مقهى مبروك (الذي استمرّ أهالي ناري في تسميته أنطونياديس).

– وماذا أفعل في أنطونياديس؟ كان يقول. صاحبه رجل أبله، وقد حلّ محلّ لاعبي الدومينو مدخّنو النارجيلة الذين يفسدون الجوّ برائحة تبغهم المعسّل.

أمّا بالنسبة إلينا نحن المراهقين، فلم تتغيّر ناري قطّ. بقيت تلك المدينة الإنسانيّة الصفات، حيث الجميع – وتحديدًا، جميع أشخاص «عالمنا» – يعرف بعضهم بعضًا. في كلّ شارع، نسيب أو زميل

من الصفّ، أو شخص التقيناه في الكنيسة أو في سينما الحديقة روكسي أو في مهرجان. كنّا لا نسير مئة خطوة إلّا ونلتقي وجهًا مألوفًا. غاب أشخاص من اليهود أو الأرمنيين أو اليونانيّين، لكنّ رفاقًا جددًا، مسلمين ومسيحيّين من المنطقة، مثلنا، حلّوا محلّهم.

في فندق مهرجان، ولّى زمن البيانو والأكورديون، وباتت فرقة موسيقيّة صغيرة هاوية تحيي أمسيات يوم الجمعة، أي يوم الإجازة الأسبوعيّة. حينما يمسك نسيبنا رزق الله – صاحب الصوت الدافىء والملقّب بـ«ريكي» – بالميكروفون، يتحوّل في غضون ثوانٍ إلى سيناترا أو داليدا. لكنّه قد يغيّر نبرته أو وقفته فجأةً، فيندفع كلّيًا في أداء أغنية روك، يرافقه قرع طبول صاخب. كانت الأوركسترا ترفع الصوت فتُسمع حتّى أقاصي الحديقة، التي كانت تغصّ بالناس كلّ يوم جمعة، جرّاء تخفيض أسعار المشروبات. بات بوسع صغار الموظّفين أن يأتوا وعائلاتهم إلى مهرجان لقضاء يوم الجمعة، ويتناولوا على العشاء سندويش فلافل مرفقًا بزجاجة النياغارا. كان خالي يردِّد بسعادة عارمة:

– عدد زبائني يفوق عدد زبائن مالوميان بضعفين، وعدد زبائن ليفي-حنّور بأربعة أضعاف. طبعًا! كانا هاويين، ولا يفهمان شيئًا في إدارة المطاعم على الطريقة الأميركيّة.

لم يشهد الفندق تدفّق الزبائن فقط، بل كان هؤلاء يرفضون الانصراف، فيضطرّ لوقا إلى تعيين موعد لإغلاق المطعم، وإطفاء الأنوار ثلاث مرّات لإرغامهم على الرحيل. كان قد وجد مكبّر صوت قديمًا، لدى موظّفي الجمارك. كان يقف عند الثانية عشرة والنصف ليلًا على أعلى درج المدخل، ويصيح: «سنغلق المكان!» بالفرنسيّة والعربيّة والإنكليزيّة. ثمّ يضيف مبتسمًا « Stiamo per chiudere, amici!».

بعد إخلاء المكان من الحضور، كان على العاملين قضاء ساعة كاملة في إزالة الزجاجات الفارغة والأوراق المتّسخة ببقايا الطعام، والمنتشرة على العشب حتّى آخر الحديقة. لكنّ ذلك لم يكن ليكفي، فبعد أشهر قليلة، قُرّر إغلاق حديقة مهرجان صباح السبت من أجل تنظيفها وإعادة كلّ شيء إلى مكانه.

أوحى الفندق بأنّه يندمج تمامًا في محيطه. شيئًا فشيئًا، راح شكلٌ من الليونة الشرقيّة يحلّ محلّ الانضباط السويسريّ الذي كان قائمًا في الأساس.

إنكسر ناقوس الفندق الأسطوريّ بعدما شدّ أحد الموظّفين حبله بقوّة. رأى لوقا أنّ من غير المجدي تصليحه، فاستُبدل بجرس يمكن تشغيله من مكتبه. في الماضي، كان الناقوس يُدقّ مرّتين بفارق نصف الساعة، أمّا الآن فلا يُرنّ الجرس إلّا عند فتح المطعم. ما الفائدة من تعقيد الأمور؟ قليلون هم الزبائن الذين يغيّرون ملابسهم لتناول العشاء، حتّى أنّ بعضهم كان يأتي بالسروال القصير.

كان ذلك الجرس الصارف المزعج يذكّرني بجرس الثانويّة الذي يعلن نهاية الاستراحة، خصوصًا وأنّ روائح الطعام المنبعثة من المطبخ والتي تذكّر بأجواء المقاصف، كانت لتغزو البهو في ساعات معيّنة من النهار. لكنّ ذلك كلّه لم يكن مهمًّا مقارنةً برعشة السعادة التي أشعر بها، شأني شأن المراهقين الآخرين، حالما أجتاز بوّابة مهرجان. كنّا نقضي الجزء الأكبر من إجازات الأسابيع والعطلة الصيفيّة في مساحة الحريّة هذه التي امتزجت بأولى قصصنا الغراميّة.

30

حين ظهر عند البوّابة، يتبعه سائقه، ترك عدّة أشخاص طاولاتهم وهبّوا للقائه. هو بشخصه، هنا! في شبه الكنيس اليهوديّ هذا! مجيء الأرشمندريت إلى مهرجان لا بدّ يعني أنّ الأمور على تغيّر. حتّى ذلك الحين، لم يكن لرجل الإكليروس سبب لعبور باب الفندق. أمّا الآن، وبوجود أحد أفراد طائفتنا على رأس الفندق، بات بوسعه الشعور وكأنّه في منزله. كما أنّ هذه الزيارة تأتي تلبيةً لدعوة من لوقا.

بعد ظهر ذلك اليوم، مدّ الأسقف باسِمًا يدًا بيضاء مكتنزة، مزيّنة بحجر كريم، إلى أبناء رعيّته الحاضرين في مهرجان، فيما راحت اليد الأخرى تمسح بمنديل كبير قطرات العرق التي تلألأت على جبينه. في صراعه اليوميّ ضدّ فرط نشاط غدده، كان رجل الدين يُكثر من استخدام عطر حلو، يجمع بين الفانيليا وليمون البرغموت. كانت تلك الرائحة النفّاذة تنتقل سريعًا إلى زوّاره، الذين يضطرون إلى غسل أيديهم عدّة مرّات بالصابون بعد مصافحته.

عادةً ما كان يبدو متضايقًا، من دون أن نعرف ما إذا كان حانقًا على الحرّ أم على الذباب أم على تفاهة المحيطين به. لم نكن نعتبره شخصيّة مقدّسة تمامًا، بل ركنًا للطائفة لا غنىً عنه، يجب احترام صفاته والحذر منه في آنٍ واحد. كنّا نناديه «أبونا»، ولضمير الإضافة «نا» معنى أكبر هنا ممّا أضيف إليه، فالأرشمندريت هو حامل رايتنا كجماعة، ورمز تميّزنا. كان أيضًا رقيبًا صارمًا، مثله مثل كلّ آباء الماضي.

هذا الرجل ذو الجسد الممتلئ كان يتناسب وديانتنا المتجسّدة بوضوح في عيشنا اليوميّ، فنحن نسبّح الله وملائكته وقدّيسيه بكلّ جسدنا: نركع، نسجد، نبخّر المذبح، نقبّل الأيقونات، ونرشّ المؤمنين بالماء المصلّى عليه...

كانت القيلولة مقدّسة بالنسبة للأرشمندريت، فقد دأب كلّ يوم، صيفًا وشتاءً، على أن يمنح نفسه قسطًا مريحًا من النوم بعد الغداء، وذلك لتجديد نشاطه. والويل لمن يعكّر قيلولته! أتذكّر جولة في كرة القدم جرت بعد ظهر يوم من أيّام الجمعة وكادت تنتهي بكارثة. كنّا نلعب في الأرض البور المحاذية لحديقة الرعيّة غير مدركين الضجيج الذي نحدثه. فجأةً، انفتح مصراعَي نافذة الطابق الأوّل بفرقعة عنيفة. أطلّ علينا الأرشمندريت بثوب أبيض نصف أزراره مفكوك، ولحيته ترتجف من شدّة الغضب. ركضنا كالمجانين واختبأنا خلف جدار النادي اليونانيّ، فاستقبلتنا رائحة نتنة انبعثت من جيفة هرّ يغزوها النمل.

حتّى الحالات الطارئة كانت لتعلّق أثناء قيلولة الأرشمندريت. يروون ويسترسلون في ناري أنّ أحد المتقاعدين من موظّفي المستودعات، قد اختار التوقيت السيىء إذ قرّر أن يحتضر مباشرةً بعد الغداء، فحرم نفسه من الأسرار الأخيرة، لأنّ أحدًا لم يجرؤ على قطع قيلولة صاحب النيافة.

غير أنّ حادثة مؤكّدة أمتعتنا أكثر. كانت عمّتي مريم شديدة الحرص على التقدّم من كرسيّ الاعتراف كلّ سبت. بعد نيلها الحلّ من خطاياها، كانت تعود إلى مقعدها الاعتياديّ لتلاوة صلوات التوبة كما طُلب منها. في كلّ مرّة تعترف بالخطايا عينها، وكلّها من أتفه الهفوات، حتّى ضاق الأرشمندريت ذرعًا بتلك الأسطوانة التي لا تنتهي. ذات يوم سبت لم يدع لها حتّى الوقت لتركع في كرسيّ الاعتراف، فعاجلها بتحديد صلاة التوبة:

– السلام عليك يا مريم ثلاث مرّات.

فشعرت بالإهانة.

دُعي رجل الدين إلى الجلوس في أفضل مكان، بمواجهة المسبح. كيف سيكون ردّ فعله حين يرى كلّ أولئك النساء شبه العاريات؟ لحسن الحظّ، كان بعد ظهر ذلك اليوم من يونيو بمزاج هادئ جدًّا، فاكتفى بتوجيه بعض نظرات الفضول يمنةً ويسرة. هل أتى الـ«أبونا» ليبارك المكان، مثلما يبارك المنازل بعد عيد الفصح، تاركًا للقندلفت الذي يتبعه كظلّه، مهمّة جمع الهبات؟

لم يلبث لوقا أن ظهر، منفرج الأسارير ومادًّا ذراعيه نحو الأرشمندريت، ثمّ تبادل وإيّاه عبارات المجاملة بالعربيّة:

– ألف أهلًا وسهلًا بكم، أبونا، حضوركم يشرّفنا.

– الشرف لنا.

– تعذّبتم بالحضور إلى هنا في هذا القيظ...

– عذابكم راحة.

بجرعة واحدة ابتلع الكاهن المتصبّب عرقًا، زجاجة نياغارا مثلّجة قُدّمت له، تحت أنظار جمهرة صغيرة رمقته بحنان. فرقع لوقا بأصابعه وأمر بإحضار زجاجتين أخريين، وصلتا على صينيّة محمّلة باللوز والفستق والزيتون.

خلافًا لشقيقيه ولأمّي وعمّاتي، لم يكن لوقا ممّن يمكن تسميتهم بأبناء الرعيّة الصالحين. هو لا يزور الكنيسة إلّا في الأعياد الكبرى، أو الأعراس، أو المآتم. كما لم تكن طبيعة علاقته ببيلينا لتحسّن صورته كمؤمن. لكنّ الأرشمندريت كان يقدّر حسّ الفكاهة لديه، ولطالما شعر بضعف تجاهه. من جهة أخرى، كان وجوده على رأس إدارة مهرجان كافيًا لمحو كلّ ذنوبه، فالكنيسة تكنّ احترامًا عميقًا لنجاح أبنائها في المجتمع.

بعدها بقليل، وفيما الحديث دائر حول تاريخ الفندق، جيء بالسجلّ الذهبيّ إلى الأرشمندريت. راح يتصفّحه بغير تركيز. ثمّ أخرج من جيبه قلم حبر منتفخ الوسط، ذا غطاء فضّي، وهو بلا شكّ هديّة من أحد أعيان الطائفة. إنحنى عدّة أشخاص فوق كتفه لئلّا يفوتهم شيء ممّا يدوّنه. إحتلّت كلماته الكبيرة والمتداخلة الحروف صفحة بكاملها: «العمر الطويل والازدهار لفندق مهرجان، تحت الإشراف الرشيد لابننا الغالي لوقا».

– أبونا، ما رأيك بمباراة وديّة صغيرة؟ سأله لوقا الذي كان يعرف شغف الكاهن بلعبة الطاولة.

هرع الخدم لإحضار اللعبة. فكّ الأرشمندريت بعض أزرار ثوبه ليستطيع الانحناء براحة أكبر فوق الطاولة الخفيضة. بدأت الجولة الأولى. كان المحترفان يحرّكان النردين طويلًا في يديهما، قبل رَمْيِهما، ثمّ يطرقان ببيادقهما طاولة اللعب الخشبيّة، ويعلنان النتيجة. تحلّق حولهما نحو عشرين شخصًا على الأقلّ. فاز الكاهن بالجولة الأولى، ثم فاز لوقا بجولتين على التوالي. تواصلت المباراة، تواكبها أكواب الجعة وأطباق المازة المختلفة، حتّى حلول الليل.

بين جولتَي لعب ذلك المساء، راح لوقا يرفّه عن الأرشمندريت شارحًا له بأنّه يمارس هو أيضًا سرّ الاعتراف:

– أتعرف، أبونا؟ زبائننا يعهدون إلينا بأسرارهم. نحن نعرف كلّ شيء عنهم تقريبًا. فجواز سفرهم واستمارة الشرطة التي يملأونها يكشفان لنا عن أعمارهم وعناوينهم. مع الأيّام، نكتشف أذواقهم في الطعام، وماركة معجون الأسنان التي يفضّلون، ولون ملابس نومهم... ونكتشف ما إذا كانوا بخلاء أو مبذّرين، يضبطون أعصابهم أو يفقدونها. هم يتعرّون في الفندق وكأنّهم في المنزل. لهذا نحن ملزَمون،

مثلك، بأن نكتم سرّ المهنة.

31

لطالما كان لوقا شخصًا اجتماعيًّا بامتياز، منفتحًا على الناس، وقريبًا منهم. ولَكَم استشعر محادثوه ذلك قبل أن يستسلموا لسحر صوته الدافئ وحكاياته المذهلة. حين يأتي إلى مطبخ الفندق ليقوم بجولته اليوميّة، كان رئيس الطهاة كما والخدم والنُدل وغاسلو الأطباق يقطعون نشاطهم، وينصتون إليه مترصّدين آخر الطرائف، يرويها عليهم بقريحته الفكاهيّة المعهودة. فيشهد المطبخ تتبيلات وتنكيهات من نوعٍ آخر: يتحوّل الواقع كلّيا إذا كان هو مَن يرويه، ومعه، يكتسب أتفه الأحداث نكهة لذيذة وقماشة سائغة.

كان من أكبر ملذّاته في المطعم أن يتنقّل من مائدة إلى أخرى ساعة العشاء: تارةً ينحني ويهمس لأحدهم، فيخلق شعورًا بالتواطؤ مع بعض الزبائن، وطورًا يرفع صوته ليسمعه الجلساء المجاورون، الذين ينتظرون دورهم بفارغ الصبر وهم يبتسمون له.

لا أحد كان بارعًا مثل لوقا، في فنون كسب الوقت (كان السيّد مالوميان ليقول: «هدر الوقت»). سواء أكان يتحدّث عبر الهاتف أم مباشرةً بصوته المتّقد، فهو سيّد التكيّف مع كلّ محاور، وماهر في خلق ما يشبه الاتّصال الشخصيّ بينهما، تمامًا كجهاز راديو يغيّر موجاته تلقائيًّا. من دون أن يحمل في يده المفكّرة الزغبيّة الزرقاء، كان يطبّق عفويًّا تعليمات إيلي حنّور: «يجب معاملة كلّ زبون وكأنّه الشخص الوحيد في المؤسّسة».

رغبةً منه في إسعاد زوجين أجنبيّين يزوران مهرجان للمرّة الأولى، قال ذات يوم:

– سأعطيكما غرفة بيكاسو.

تلك كانت الغرفة رقم 22، في الطابق الثاني. لم يكن هناك ما يسمح بتأكيد الحكاية التي تزعم أنّ الرسّام الشهير قضى إحدى الليالي فيها، لكنّ المدير قرّر أن يجعلها على اسمه. ذلك لا يكلّفه شيئًا، وبهذه الطريقة، يصبح الزبائن الذين يشعرون بالإطراء والسعادة، أفضل سفراء لفندق مهرجان: يمكن الاتّكال عليهم ليسترسلوا حتّى نهاية أيّامهم في إخبار مَن يرغب من السامعين، بأنّهم ناموا في السرير عينه الذي نام فيه بيكاسو.

– الزبون، كان لوقا يشرح، لا يأتي فقط لاستئجار غرفة جميلة مطلّة على البحر، بل يأتي لشراء حلم. علينا دائمًا أن نقدّم له أكثر بقليل ممّا يتوقّع.

كان يعبّر عن ذلك «الأكثر بقليل» بحركة من يده، حيث يقترب الإبهام من السبّابة حتّى يكادان يلتقيان.

إعتبر لوقا نفسه الوريث الشرعيّ لإيلي حنّور. كان يرى أنّ المديرَين اللذين سبقاه، أي حاييم ليفي وآري مالوميان، لم يكونا فقط غير جديرَين بالمنصب، بل وأيضًا مغتصبَي حقّ.

لم يكن أحد مطّلعا بقدر لوقا على حياة مؤسّس مهرجان وأفكاره. أنّى له هذا الكمّ الهائل والدقيق من المعلومات؟ بالفعل، هذه الأخيرة لم تكن متاحة له، كما تيقّنت لاحقًا وأنا أتصفّح المفكّرة الزغبيّة الشهيرة، والتي لم يستطع هو نفسه الاطّلاع عليها، لأنّ الزوجين ليفي-حنّور حملاها معهما حين طُردا في العام 1956.

– الفوسفات هو ما حال دون اختناق إيلي حنّور، أكّد لوقا، مثيرًا بذلك فضول محاوريه. كاد مهرجان يتعرّض للإفلاس بعد وقت قليل من تدشينه، فالمسافرون لم يجدوا فائدة في الإقامة في مكان

جدّ بعيد عن محطّة القطار وعن المرفأ. كان إيلي حنّور قد استدان مبالغ كبيرة، وتحمّل كلفة رواتب الأجراء، واستحقاقات المصرف. حينذاك، أنقذه ميمالكس.

لم يكن يجدر على الإطلاق منح رخصة بناء في العام 1910 لمصنع ميمالكس للأسمدة المدعّمة بالفوسفات. لكنّ الرشوة التي دُفعت للحاكم آنذاك لم تكن لتقاوَم بلا شكّ... رائحة بيض فاسد لا تُطاق كانت تنتشر في المدينة كلّما هبّت ريح الجنوب. غير أنّ مهرجان والكائن في موقع أبعد، نحو الشرق، كان بمنأى عن الرائحة النتنة. تعالت الاحتجاجات بشدّة، حتى أنّ السلطات أمرت مصنع ميمالكس بتعليق أعماله. ثمّ أحيلت القضيّة إلى القضاء وانتهت بإقفال المصنع. ولكن، في الأشهر الثمانية عشر التي دامت فيها تلك الكارثة، رفض السيّاح الإقامة في المدينة، فقدّم لهم حنّور ملجأً رائعًا. نشر إعلانًا صغيرًا في جرائد ناري يقول: «في مهرجان، أتنفّس الهواء بأمان»، فاجتذب الكثير من الزبائن المحليّين الذين باتوا يأتون لتمضية النهار في الفندق.

– حتّى بعد إقفال ميمالكس، تابع لوقا، ظلّت تلك الرائحة الفاسدة عالقةً في أنوف الأهالي. ذلك المراوغ إيلي حنّور هو مَن ساهم في تغذيتها، فلم يفوّت فرصة واحدة ليسأل المارّة في المدينة: «هل تشمّون شيئًا ما؟ وكأنّما في الجوّ رائحة...»

أنا نفسي اكتشفت جزءًا من تاريخ مهرجان بفضل عمل صغير كلّفني به لوقا أثناء إجازة الفصح. كان عليّ أن أفرز ثمّ أوضّب في الصناديق، أكوامًا من وثائق الأرشيف المكسوّة بالغبار والتي كانت تحتلّ غرفةً في الطابق الأوسط أراد لوقا أن يخصّصها لاستعمال آخر. كان معظم تلك الوثائق فواتير قديمة، كُتبت فيها الأرقام والحروف بالحبر البنفسجيّ بكثير من العناية. في الفواتير مشتريات علف، وأتعاب طبيب بيطريّ أو حدّاد، من زمن غابر حيث كان الفندق يملك عربة يجرّها حصان. في تلك السنوات، اشترى إيلي حنّور أشياء كثيرة ومتنوّعة، الكبيرة منها والصغيرة، وقد باتت تنتمي إلى عالم مندثر، كأجران غسل الملابس، وثلّاجات ملبّسة بالخشب، وقوارير ضغط للمياه الغازيّة، وقدور تسخين البياضات المعدّة للغسل، وسخّانات كيّ الشعر...

لكنّ الوثائق التي حملتني حقًّا إلى عالم الأحلام هي أحدث عهدًا، إذ تعود إلى فترة طفولتي، حين كنت أتلصّص على مهرجان من شرفتنا، ولم أكنْ أعرفه إلّا من خلال ما يُروى عنه. بين الحين والآخر، كانت أسماء مألوفة لتظهر في مذكّرات الخدمة أو الفواتير: فمرَّة يبلّغ السيّد أليكس مسؤولي الفندق أنّ الكونتيسة النمساويّة أرجأت وصولها مدّة أسبوع، ومرَّة أخرى تلفت راشيل مدبّرة الفندق نظر الإدارة إلى ضرورة استبدال الفراش في غرفة ما أو الستائر في غرفة أخرى... خلال البحث، علمتُ أيضًا أنّ شلومو عازف البيانو كان يتقاضى أجره بالساعة، وأنّه نال علاوةً على راتبه في العام 1949، كما طالب بشراء مقعد جديد...

بعد أيّام قليلة، فوجئت لاكتشافي ألبومًا كبيرًا مغلَّفا بالجلد الأخضر، على أحد الرفوف، وقد حفظته كومة الملفّات المتكدّسة فوقه من الغبار. كان السجلّ الذهبيّ الأوّل الذي أخفته عائلة ليفي-حنّور، فلم تسمح إلّا لبعض المحظيّين بتصفّحه! أي أنّ العائلة لم تأخذه معها عندما رحلت، خلافًا لما كان يُظنّ.

أشرق وجه لوقا حين أعطيته ذلك السجلّ.

– السجلّ الذي يحوي رسم بيكاسو! هتف، وهو يبحث عن الصفحات التي تعود للعام 1928.

لكنّه لم يعثر لا في تواريخ ذلك العام، ولا في تواريخ العامين السابق واللاحق، سوى على نصوص لمجهولين، ومنها قصيدة بأبيات طويلة، ألّفها شخص يدعى فيليكس دوران، ليتغنّى فيها بـ «ناري، لؤلؤة المتوسّط الباسمة». كان ينقص من السجلّ صفحة يبدو أنّها اقتُطعت بعناية، فلم يبقَ منها سوى شريط ضيّق.

– لا بدّ من أنّها صفحة بيكاسو، استنتج لوقا بمرارة.

على مرّ الزمن، ترك عدّة أشخاص مشهورين، أو على طريق الشهرة، أثرًا من كلماتهم في ذلك السجلّ الذهبيّ الأوّل. تلك حال جوزفين بايكر التي احتلّ توقيعها صفحة كاملة. يُروى أنّ العديد من موظّفي الفندق قد عشق تلك المرأة حتى الجنون، وأنّ نادلًا أسقط صينيّته من شدّة انفعاله، حين رآها عند مدخل الصالون الإنكليزيّ...

للأسف، لم يكن في السجلّ الذهبيّ سطر واحد خطّته يد همنغواي. لكنّ الكاتب الشهير قبِل بأن تُلتقط صورة له بجانب مؤسّس الفندق على درج المدخل. أُلصِقت تلك الصورة التي لم ينل منها الاصفرار إلّا قليلًا، على إحدى صفحات السجلّ وكُتِبَ تحتها تعليق بسيط: «إرنست همنغواي وإيلي حنّور، نوفمبر 1931».

– ليتني أجد رسم بيكاسو بدلًا من هذه الصفحة عديمة الفائدة، قال لوقا متذمِّرا.

كذلك كتب تينو روسي الشابّ سطرين أثناء مروره العابر في ناري العام 1933. آنذاك، لم يكن سوى مشروع نجم ولم يلهب بعد منطقة البحر الأبيض المتوسّط بأغنيتَي «مارينيلا» و«تشي تشي». أمّا تشارلز ليندبرغ الذي ترك في السجلّ الذهبيّ عبارة تقدير وثناء بالإنكليزيّة («كان كلّ شيء ممتازًا. ليتنا استطعنا الإقامة هنا لوقت أطول...»)، فهو ليس الطيّار الأميركيّ الشهير قاهر المحيط الأطلسيّ، إنّما رجل أوستراليّ عاديّ يحمل الاسم عينه، ويظهر مكان إقامته (سيدني) تحت توقيعه.

خلافًا لما تقوله إحدى الأساطير، فإنّ رودولف فالنتينو لم يقضِ ليلتين في مهرجان في العام 1925 مع عشيقته، الممثّلة البولونيّة بولا نيغري. فالسجلّ الذهبيّ لا يظهر أيّ أثر لذلك. أويعقل أن تحرم إدارة الفندق نفسها من توقيع ملك الإغراء، وهو في ذروة مجده آنذاك؟ لكن، حينما يُسأل إيلي حنّور عن تلك الزيارة المفترضة، كان ينفيها على نحو غير قاطع وبل بشيء من الغموض. وهذا ما عزّز الشائعة. كما أنّ الذين جاؤوا مِن بَعده، بقوا، كلٌّ على طريقته، متمسِّكين بتلك الأسطورة. أمّا ليفي-حنّور فكان ينفي الرواية بغموض شبيه بغموض حميه. بالمقابل، كان مالوميان يؤكّدها مشيرًا إلى فاتورة بقيت في مكان ما في الأرشيف. بدوره، كان لوقا يستقيض في رواية تفاصيل إقامة فالنتينو في مهرجان. حسب أقواله، لقد أغمي على ثلاث نساء حين دخل الممثّل قاعة المطعم. كان ذلك الحدث الوهميّ يبدو قابلًا للتصديق خصوصًا حين يدسّه لوقا بين حادثتين لا يمكن الجدال في صحّتهما، بما يتقنه من فنّ المزاوجة بين الخيال والحقيقة. إعتاد لوقا أن يروي مراسم مأتم فالنتينو في أغسطس من العام 1926، وكأنّه كان يقود بنفسه العربة التي تحمل الجثمان:

– كان القيظ في نيويورك شديدًا. سار مئة ألف شخص في الشوارع خلف الموكب وراح المعجبون الثائرون يحطّمون الواجهات. تخيّلوا أنّ بولا نيغري أصيبت بنوبة هستيريّة أمام النعش... وأنشد رودي فاليه، صاحب الصوت الشجيّ، أغنية «هذا المساء، تضاف نجمة جديدة إلى نجوم السماء». بعد مراسم الجنازة، حلّقت طائرات صغيرة فوق مدافن هوليوود لتنثر مئات الورود...

كم من مرّة غصتُ في السجلّ الذهبيّ الأوّل، آسفًا لأنّني لم أولد قبل ثلاثين أو أربعين عامًا! كنت أفكّر في بيكاسو، وهمنغواي، وجوزفين بايكر، وتينو روسي، وفي كلّ أولئك المشاهير الراحلين والذين كنّا على الأقلّ متأكّدين من أنّهم أقاموا في مهرجان. ومع ذلك، كانت صفحاتي المفضّلة هي تلك التي أشار فيها مجهولون إلى «الفتاة الصغيرة الساحرة»، التي التقوها في بهو الفندق في بداية الثلاثينات. كانوا بالتأكيد يعنون نيسا الملقّبة بـ«الأميرة الصغيرة»، أو «الملاك الأسمر الصغير».

32

بعد مغامرته الفاشلة مع السيّدة مالوميان، لم يعد نسيبنا داوود الملقّب بدودي يجرؤ على دخول فندق مهرجان. لكنّه عاود الظهور فيه بعد رحيل الأرمنيين، أكثر اعتدادًا بنفسه من أيّ وقت مضى. كان يضع في إصبعه خاتمًا ضخمًا يكاد يحجب يده، ما يذكّر بالقبضة الحديديّة الأميركيّة. بعد طرده من مدرستين على التوالي، راح يجهد لإكمال صفوف الثانوي في مدرسة ثالثة، حيث يمارس صفقاته الصغيرة المشبوهة.

كان دودي أحد أفراد الشلّة التي تدور في فلك باسم، الابن البكر للمحافظ وقد دأب أفرادها على القدوم إلى مهرجان في مجموعات من ستّة أو سبعة أشخاص، ليختاروا مائدة بمحاذاة بار المسبح. فتتظاهر المراهقات بأنّهنّ لا يرينَهم، برغم نظرات الإعجاب المختلسة والابتسامات الخفيّة. لطالما تجنُّبت الاحتكاك بفتيان السوء أولئك والأكبر منّي سنًّا. كان دودي حينما يلمحني، يومئ نحوي بحركة صغيرة متعجرفة، وكأنّه يتوجّه إلى نسيب فقير أو إلى كائن عاجز.

أمّا الضحيّة المفضّلة لشرور تلك الزمرة فكانت وبدون منازع، أحمد الغزال، الساعي السيّئ الحظّ الذي لم يعد اسمًا على مسمّى بعدما صدمته درّاجة نارية في شارع الفنار، وبُترت إحدى ساقيه. ولمّا لم يعد بالإمكان تكليفه بمهامّ الفندق، وجد له لوقا عملًا عند المسبح، فبات هو مَن يدوّن طلبات الزبائن.

– غزالة، هات مشروبًا غازيًّا! بسرعة! كان باسم أو أحد أفراد شلّته يصيح به.

فيسرع أحمد متّكئا على عكّازه باتّجاه البار برشاقة مدهشة، لا تقلّ عن رشاقة أيّ من زملائه. لكنّ دودي وأصدقاءه كانوا يواصلون مضايقته:

– أنت نائم يا غزالة؟ أين كازوزتي؟ كان يجب أن تصل منذ وقت طويل.

فيصل أحمد مسرعًا لا تبارحه ابتسامته، حريصًا على تفادي أقدام أولئك الأشقياء الزاعقين، والتي يتسلّون بمدّها في طريقه ليتعثّر بها. كان الرجل البائس الحظّ يتجنّب الإبلاغ عنهم، خشيةً منه على وظيفته بلا شكّ. لكنّ لوقا استشاط غضبًا يوم علم بما يجري، فكانت تلك نهاية اضطهاد الغزال.

كان ابن المحافظ يملك سيّارة فورد مكشوفة، يقلّ بها زمرته على طريق الصحراء، حيث يجري سباقات سرعة. كانت طبقة الأسفلت الرديئة والرمال التي تغطّيها تجعل ذلك الطريق على قدر عظيم من الخطورة. بالفعل، لم يُجرَ عليه أيّ تحسين منذ قضى زوج المدبّرة القديمة راشيل وولديها إثر حادث مأساوي، في العام 1940. كاد باسم وركّاب سيّارته يلقون المصير عينه يوم انحرفت بهِم السيّارة عن الطريق بعدما ثُقبت إحدى عجلاتها، فنجوا، إلّا من رعب هائل انعقدت معه ألسنتهم.

لم يكن تهوّر باسم ليعرف حدودًا، حتّى في المدينة. بعد ظهر أحد الأيّام، تجاوز الإشارة الحمراء عند مقهى دميانوس، ليصطدم بسيّارة الـ«بويك» الخاصّة بالفندق وهي تعود من محطّة القطارات بعدما أوصلت ركّابا. ما كان من أبو عمر، السائق العجوز، إلّا أن ضغط بكلّ قوّته على المكابح، فنجح في التخفيف من شدّة الاصطدام. ثمّ خرج ثائرًا من السيّارة وهو يزعق. لم يشفع لباسم كونه ابن المحافظ، فتلقّى الفتى توبيخًا لا يُنسى أمام جمهرة من المارّة.

سال الدم من أنف دودي بعدما اصطدم وجهه بالمقعد الأماميّ، وشعر بالقلق والارتباك. غير أنّه قصّ علينا بعد ذلك رواية ملفّقة كلّيًا. قال إنّ سائق مهرجان تجاوز الإشارة الحمراء، ثمّ ترجّل من سيّارته بعد حادثة الاصطدام، ليسترسل بالاعتذار.

– لا يكفي أنّ الرجل عجوز، قال دودي، فهو بدأ يعاني عمى الألوان، وظنّ أنّ الإشارة خضراء.

– إخرس يا كذّاب! صاح لوقا بالعربيّة، قبل أن يضيف بالفرنسيّة: أنت تستحقّ لكمة على وجهك. أبو عمر يميّز الألوان جيِّدا، وهو مَن أكّد لي بأنّ لونك استحال أخضر من شدّة الخوف. تابع لوقا الذي لم أرَه بمثل هذه الحال قطّ، وهو يرفع في وجه دودي إصبعًا مهدِّدًا: إذا تناولتَ أبو عمر بكلمة واحدة بعد اليوم، لن تعود لتطأ أرض مهرجان أبدًا. أبدًا! هل تفهم؟

33

كان ذلك صيف عامي السابع عشر. آنذاك، خصّص لي لوقا غرفة صغيرة في الطابق الأخير من مهرجان، لقاء بعض الأعمال التي لم تكن لتشغلني سوى ساعتين أو ثلاث يوميًا. هكذا، بات بوسعي قضاء إجازة حقيقيّة خارج الإطار العائليّ، وبحريّة كاملة في هذا الفندق الذي أصبحتُ أعرف كواليسه وأسراره كلّها تقريبًا.

كنت أنهض كلّ صباح مليئًا بالحماسة، وأنا لا أعلم ماذا يخبّئ لي النهار. وحدها السماء المترامية الزرقة، والحرارة التي تتجاوز الدرجات الثلاثين ظهرًا، كانتا تخلوان من المفاجآت. كان للفتيان والفتيات ألف فرصة لتبادل حركات الإغراء: على الشاطىء، على حافّة المسبح، بين مبارتَي كرة طائرة... وكلّ مساء، كان نسيبنا رزق الله الملقّب بريكي، يجعلنا نرقص حتّى منتصف الليل، ترافقه فرقته الموسيقيّة الصغيرة.

أراد أحد أطبّاء العاصمة، الدكتور حسنين، أن يقضي إجازة عائليّة لثلاثة أسابيع في مهرجان. حجز الغرفة 11 له ولزوجته، والغرفة 12 لأبنائهما، والغرفة 13 لبناتهما. وصلوا إلى الفندق عصر يوم سبت في سيّارة كبيرة غطّاها الغبار بعدما اجتازت الصحراء بدون توقّف. إندفع حمّالان إلى صندوقها المكتظّ بالحقائب، فيما بدأ الحارس بمسح السيّارة بضربات كبيرة من خرقته.

بحركة واحدة من يده، لجم الدكتور حسنين حماستهم. ثمّ سار كرجل اعتاد أن يُطاع إلى مكتب الاستقبال. كان قويّ البنية وذا شاربين مشذّبين بدقّة، ويشبه قائدًا عسكريًّا بلباس مدنيّ. في الحال، أدرك لوقا الذي كان في البهو ساعتذاك، قيمة الشخصية الوافدة إلى الفندق. سارع إلى تقديم نفسه للطبيب مرحِّبًا، وسأله عمّا إذا كانت رحلته ممتعة، وأَسمَعَه عبارات الترحيب التقليديّة. ثمّ قال لموظّف الاستقبال:

– لا، لا تزعج الدكتور حسنين بالاستمارة. سيملأها لاحقًا.

سار أمام الزائرين الجدد، فتح لهم بنفسه باب المصعد ورافقهم حتّى غرفهم.

بعد أقلّ من عشرين دقيقة على دخول الطبيب غرفته، تلقّى اتّصالًا هاتفيًّا من موظّف الاستقبال المذعور:

– دكتور، في الغرفة 28 في الطابق الثاني حالة طارئة! رجاءً، هل يمكنك...؟

كان كلب السيّد كرافيلو هو الذي نبّه الجميع إلى حال صاحبه. راح ذلك السَّبنيَليّ الذي لم يسبق أن سُمع له صوت قطّ، ينبح نباحًا مشؤومًا. خرج إلى الرواق أشخاص كثيرون ممّن ضاعت عليهم قيلولتهم، وبعضهم بملابسه الداخليّة، متسائلين عمّا يجري. قرعت إحدى الخادمات باب غرفة النزيل البرتغالي مرّات عدّة. ولمّا لم تسمع جوابًا ذهبت لإخطار نيفين المدبّرة التي هرعت حاملةً حلقة المفاتيح. وجدوا السيّد كرافيلو ملقى أرضًا، وقد أوقع معه في سقطته قفص كناره.

أمر الدكتور حسنين بإخلاء الغرفة. ولمّا لم يبقَ في المكان سواه والمدبّرة وعامل تنظيف، فتح حقيبته الجلديّة، ثمّ ركع على ركبته بجانب البرتغاليّ ليعاينه. قرّب من أنفه شيئًا ما، فتنفسّه الرجل وعاد إلى وعيه شيئًا فشيئًا. طلب الطبيب من الموظّف الموجود في الغرفة مساعدته على نقل المريض إلى سريره. توقّف الكلب عن النباح، فيما استرسل الكنار الذي أعيد إلى مكانه، في التغريد.

– شكرًا يا دكتور، قال لوقا الذي قدم فور سماعه الخبر. هل الأمر خطير؟

– لا، لكن يجب مراقبته.

– حفظك الله يا دكتور! لم يكن هذا الأمر مخطَّطا له في برنامج إقامتك... هل تحتاج إلى شيء؟

– إلى قيلولة، أجاب الطبيب وهو يقفل حقيبته.

فاز هذا النزيل الجديد بمحبّة لوقا وإعجابه، فأعطى أوامره بتخصيص عائلة حسنين بالاهتمام الكبير. عُيّنت خادمة غرفة خاصّة له، واعتبارًا من ذلك المساء حُجزت له أفضل طاولة في المطعم طوال فترة إقامته.

كانت الساعة الخامسة والدقيقة 34 أو 35 من عصر ذلك اليوم. أنا متأكّد من ذلك لأنّني نظرتُ إلى ساعتي فيما كنت أجمع أغراضي على الشاطئ. حدث الأمر على درب «قناة السويس»، تمامًا عند المنعطف حيث تتجاوز شجيرة الياسمين حدود الطريق. كنت أسير نحو المدخل الجانبيّ للفندق، وعلى كتفي منشفة استحمام رطبة، وأحمل بطرف أصابعي حذائي الرياضيّ المغطّى بالرمل، وإذ بابنة الدكتور حسنين الكبرى، وكان عمرها خمسة عشر عامًا، تظهر فجأةً أمامي كالرؤيا. كانت تفصل بيننا ثلاثة أو أربعة أمتار على الأكثر. أبهرني بريق سلسلتها الفضيّة الملتفّة حول معصمها. كانت نحيلة، شديدة السمرة، شعرها مشدود إلى الخلف، وترتدي فستانًا ورديًّا ذا أقلام رفيعة، وصندلين صغيرين برباط أزرق. مصعوقًا، كدت أتوقّف لأقول لها أيّ شيء. حتّى هي تردَّدت لبرهة قبل أن تتابع طريقها. سحرتني تلك الفتاة قبل أن أسمع رنّة صوتها. ومع أنّ هذا اللقاء لم يدُم أكثر من ثوانٍ معدودة، فقد كنتُ قادرًا على وصف عينيها، أنفها وفمها...

فجأةً، زالت حالة الخدر والشرود التي وجدتُني فيها وأنا أغادر الشاطئ. فقد استيقظتُ وعادت إليّ الحياة، واستبدّت بي انفعالات شديدة. عدتُ إلى غرفتي كرجل آليّ ومن دون أن ألاحظ. تحت الدشّ، استعدتُ مشهد عبوري قناة السويس مترًا مترًا. بعد ذلك، انشغلت لفترة من الوقت باختيار قميص وسروال، فنسيت المهمّة التي كلّفني لوقا القيام بها في مخازن داغاليك الكبرى.

هل كان عليّ انتظار العشاء لأرى ابنة الدكتور حسنين من جديد؟ جلتُ في أروقة الطابق الأوّل، ثمّ نزلت إلى بهو المدخل، درت حول المسبح، وسرت في ممرّات الحديقة المضاءة... لكنّني لم أرها إلّا حين رنّ جرس المطعم. كانت تقف على الشرفة الكبيرة ووجهها إلى البحر، بالفستان عينه والصندلين عينهما، كما رأيتها قبل قليل، غير أنّها غطّت كتفيها بسترة بيضاء تدلّى كمّاها فوق صدرها. إقتربتُ منها ورحُّبت بها باللغة العربيّة، وسألتها إن كانت تعرف ناري. أجابتني بفرنسيّة ممتازة بأنّها زيارتها الأولى للمدينة. عرفتُ أنّ اسمها لميا، وأنّها، شأنها شأن الكثير من الفتيات المسلمات، تلميذة في مدرسة داخليّة كاثوليكيّة في العاصمة. توقّف حديثنا هنا، بعدما قاطعته إحدى شقيقاتها الصغيرات، تسألها مرافقتَها إلى المطعم، حيث ينتظرها باقي أفراد العائلة. تبعتها لميا، رافعةً كتفيها بلامبالاة، وفي عينيها ابتسامة.

أمضيتُ بقيّة الأمسية هائمًا على وجهي في جوار الفندق، والنار تكوي فؤادي. لم تكن تعبر تلك المنطقة السكنيّة ذات الشوارع المحاطة بشجر الأوكاليبتوس، إلّا سيّارات قليلة. كانت لافتة «مهرجان بالاس» التي أحيطت حروفها بأنبوب مضيء منذ أشهر قليلة، تشعّ في الظلام. كان لضوء النيون هذا شيء من التفاهة والسوقيّة. غير أنّه ولحسن الحظّ لم يكن من النوع الوامض، وذلك بناءً على طلب لوقا.

عدت إلى غرفتي عند منتصف الليل تقريبًا. إتّكأت إلى النافذة وسمعت حفيف سعف النخيل. توقّف الزمن. كانت لميا تشغل كامل عقلي. لم يعد بوسعي التفكير في شيء سواها. سبق لي أن وقعتُ في حبّ هذه أو تلك من رفيقاتي، لكنّني لم أشعر يومًا بمثل هذا الاضطراب الجامح.

صباح اليوم التالي، لم تظهر عائلة حسنين على الشاطئ إلّا عند نحو الحادية عشرة، يتقدّمها الطبيب بسروال قصير. لباس سباحة ضيّق بدونٍ كمّين كان يبرز عضلات صدره الرياضيّ، برغم بعض الاكتناز. بدا أشبه بضابط قديم لا يزال متأثّرا بنظام الجيش الرياضيّ. كان أبناؤه الأصغر سنًّا يسيرون خلفه محمّلين بعدّة كاملة من أطواف العوم، ومجاديف الأقدام والرفوش. فيما حملت السيّدة حسنين مظلّة، واحتجب نصف وجهها خلف نظّارة شمسيّة كبيرة. غير أنّ لميا هي مَن راحت عيناي تبحث عنها، فرأيتها أجمل ممّا كانت عليه البارحة: لباس السباحة الأحمر الذي يرسم بدقّة انحناءات ثدييها نصف مخفيّ بوشاح متعدّد الألوان، عقدته حول خصرها لينسدل حتّى ربلتَيها.

هرع عامل الشاطئ ليفتح لهم مظلّة ذات شراريب، ويأتيهم بكراسٍ طويلة، وأسِرَّة قابلة للطيّ وفُرش. حتّى قبل أن يدسّ له الطبيب بقشيشًا، كان الرجل في تصرّف «البيه» وعائلته ملبًّيا طلباتهم بكلّ عناية. نزعت لميا وشاحها واتّجهت إلى الشاطئ لتجسّ حرارة الماء. بصيحات تخالطها الضحكات استنكرت بشدّة حين بدأ أشقّاؤها الصغار يتسلّون برشقها بالماء. ثمّ تقدّمت ببطء وسط الزبد، تقف على رؤوس أصابعها كلّما اقتربت منها موجة صغيرة. ظلّت متردِّدة في الغوص برغم وصول الماء إلى خصرها. حينذاك، دفعتُ إلى الماء أحد زوارق الفندق، وقفزتُ إليه للتجذيف في اتّجاه البحر. فهمتُ من نظرتها أنّها عرفتني.

عدتُ بعد ربع الساعة إلى حيث العوّامة الكبيرة، ووجدتُ لميا تمسك بإحدى حلقاتها. كانت وحيدة. لعلّ أشقّاءها وشقيقاتها لم يجرؤوا على الابتعاد إلى هذه المسافة.

– أنتِ بخير، منذ مساء البارحة؟ سألتها فجأةً.

– أعشق هذا الفندق، أجابت.

لم تَدْرِ كم أثّرت فيَّ ملاحظتُها هذه. فأيّ ردّ فعل كان سيتملّكني لو أنّها قالت مثلًا: «لا بأس بالشاطئ، لكنّني أكره هذا الفندق»؟

من غير أن تفلت من يدها حلقة العوّامة، وضعت يدها الثانية على القارب. إضطربتُ وكأنّما لامستني أصابعها.

– أنا أيضًا أحبّ فندق مهرجان، قلتُ هامسًا.

كان يمكنني أن أضيف: «وليس فقط لأنّ خالي مديره»، لكنّ شيئًا ما حال دون ذلك. لم أشأ أن يعكّر شخص آخر هذه اللحظة الحميمة، فحديثنا الذي لم يكد يبدأ، سينتقل حَتمًا إلى لوقا.

رحتُ أنظر إلى لميا مدهوشًا. كان شعرها الذي أرخاه الماء يُبرز ملامحها الدقيقة وعيناها تتأرجحان بين تلوينتين... العسليّ والأخضر.

عرضتُ عليها جولة في الزورق، فرفضت وفي صوتها نبرة أسف، فيما نظرت باتّجاه الشاطئ. كان الدكتور حسنين وزوجته قد تركا كرسيّيهما الطويلين وذهبا ليدردشا مع نزلاء آخرين تحت مظلّة قريبة. لكنّهما كانا وبلا شكّ يراقبان ابنتهما الكبرى بانتباه شديد.

– عليّ أن أعود، قالت لي. أنلتقي بعد الظهر،... ربّما؟

– سأكون في ملعب الكرة الطائرة عند الرابعة...

سبحت عائدة إلى الشاطئ. كان أسلوبها في سباحة الكراول سليمًا لولا أنّها تبالغ في رفع رأسها لتتنفّس ولا تمدّ ذراعها اليسرى بالقدر الكافي. كم وددتُ أن أصحّح هذه الأخطاء الصغيرة، وأرشد حركاتها، كما يفعل المرء مع طفل حين يرفع جسده برفق لتعليمه العوم.

إستُحدث قبل فترة قصيرة، ملعب للكرة الطائرة في مكان لا يبعد كثيرًا عن ملاعب كرة المضرب. كنّا نحن الفتيان نلعب فيه بعد ظهر كلّ يوم تقريبًا، أمام جمهرة متحمّسة من الفتيات اللواتي يتأمّلن عضلاتنا بإعجاب وهنّ يرشفن مشروباتهنّ الغازيّة. كانت الجولة الأولى قد انتهت بفوز خصومنا. بحثت بعينيّ عن لميا، لكنّني لم أرها.

رحنا نخسر نقاطًا، وكنت أتحمّل جزءًا من المسؤوليّة، كوني الظهير الأيسر. منعني تشتّت أفكاري ونظراتي الدائمة في اتّجاه مقاعد الجمهور، من صدّ كرة الخصوم غير مرّة. أخذ رفاقي يشتمونني، وحلّ أحدهم محلّي لأقف في وسط الخطّ الأماميّ.

كانت النتيجة 20 إلى 12 حين رأيت لميا تقترب لتجلس على أحد المقاعد. شحنني حضورها بالطاقة وسرتْ النار في عروقي. بتّ شابًّا مختلفًا. عشرون مرّة، ثلاثون مرّة... علوتُ عن الأرض، كأنّما بقوّة نابض، لأقذف نحو الخصوم كرة لا يمكن صدّها، وتعود عليّ بالتصفيق الحارّ. أمّا رفاقي المسرورون والغيورون بعض الشيء، فلم يصدّقوا أعينهم.

سرعان ما عوّضنا تخلّفنا في النقاط وفزنا بالجولة الثانية، ثمّ بالثالثة مباشرةً. غير أنّ لميا توارت وتركتني للخيبة. متى انسحبت؟ هل أُعجِبت ببراعتي في اللعب؟ لعلّ الكرة الطائرة لم تكن تثير اهتمامها...

في أواخر بعد الظهر، طلب منّي لوقا أن أقصد محطّة القطار لاستقبال زوجين آتيين إلى الفندق. كان عليّ الذهاب بالسيّارة مع أبو عمر. تأخّر القطار نحو ساعة، الأمر الذي بات يتكرّر كثيرًا. حين عدت إلى مهرجان، عبثًا بحثت عن لميا. لم تكن جالسة حتّى إلى مائدة المطعم لتشارك عائلتها العشاء.

صباح اليوم التالي، مضت عائلة حسنين في موكبها إلى الشاطئ، كما في الأمس، ولكن بدون لميا. تخلّيت عن السباحة وذهبت أجوب كلّ أنحاء الفندق، من دون أن أراها.

قالت لي في المساء، حين التقيتُها مجدَّدا بقرب المسبح، وهي تنظر إلى بعض الرجال والنساء يرقصون:

– كنتُ أعاني من بعض الحمّى.

لم تلمّح قطّ إلى مباراة الكرة الطائرة في الأمس، بل طرحت أسئلة متنوّعة حول مهرجان. كان الصالون الإنكليزيّ يثير فضولها، وكذلك وجودي، وحيدًا في ذلك الفندق، بدون عائلتي. حدّثتها عن الأعمال الصغيرة الموكلة إليّ، وبالتالي عن لوقا. ضحكت حين رويت لها نادرة الزبون الذي طلب غرفة مع حمّام، وجواب لوقا له. في غمرة حماستي، أخبرتها كيف خدع السيّد مالوميان الذي لُفّت ذراعه بالجصّ مرّات ثلاث، الجمارك والشرطة معًا...

بعد ذلك تسارعت الأحداث. فيما كان ريكي، يرافقه عازفان، يغرِّد كلمات أغنية I’ve Got You Under My Skin، أخذتُ يد لميا لأبتعد بها قليلًا عن المرقص، في ظلال الأشجار. رقصنا معًا على أنغام أغنية سيناترا تلك. تملّكتنا بعض الرهبة في البداية، غير أنّ خدّينا سرعان ما تلاقيا. I’ve got you under my skin / I have tried so not to give in كنت في عالم آخر. ثمّ غنّى ريكي Love Me Tender أو ربّما You Are My Destiny. شددتُ لميا إليّ. غاب كلّ شيء آخر. لن يعود أيّ شيء كما كان من قبل.

بعد يومين، تعانق جسدانا شبه العاريين للمرّة الأولى، في البحر، خلف العوّامة الحمراء، بعيدًا عن الأنظار. كان ذلك أقصى ما تستطيع فتاة محتشمة القيام به.

بعد ذلك بتنا نتلاقى كلّ يوم. دأبتُ على افتراسها بنظراتي. كانت لميا تجسيدًا مطلقًا لصورة الجمال

في مخيّلتي. كلّ شيء فيها بدا كاملًا في نظري: وجهها، صدرها، يداها، ساقاها، أصابع قدميها... لم أعرف نظرة أشدّ اضطرامًا من نظرتها، ولا صوتًا أرخم من صوتها، ولا مشية أكثر أناقة من مشيتها...

كانت مواعيدنا في البحر أو فوق الصخور تمتدّ لتصبح لقاءات وجيزة عند المسبح أو في حديقة الفندق. إقترحتُ عليها موافاتي إلى مكان سريّ في الطابق الأوسط حيث نستطيع أن نتعانق بعيدًا عن خطر أن يفاجئنا أحد. ذات مرّة، سمعنا صوت المدبّرة وإحدى الغاسلات تقتربان، فاختبأنا في زاوية وحبسنا أنفاسنا، لنضحك بعد ذلك طويلًا.

لم أشعر بالارتياح قطّ بحضور الدكتور حسنين. كان يثير رهبتي بجسده الضخم، وصوته الموحي بالسلطة، بمهنته، وبديانته طبعًا. ماذا سيحدث لو علم أنّ ابنته تقابل فتى سرًّا، ومسيحيّ أيضًا؟ حتّى أنّني لم أجرؤ على مفاتحة لميا بالأمر، بعدما حدستُ قلقها حيال الموضوع.

كانت إقامة عائلة حسنين في مهرجان تقترب من نهايتها. وضعنا استراتيجيّة معقّدة لتبادل الرسائل بيننا بواسطة أحد أنسبائي الذي يقيم على مقربة من حيّ لميا، والذي وافق على تأدية دور صندوق البريد. هكذا بتنا مرّتين أو ثلاث شهريًّا، طوال العام المدرسيّ، نتبادل الكلمات الرقيقة، وشتّى أنواع الأفكار، والقصائد، في انتظار أن نلتقي مجدَّدا في ناري خلال فصل الصيف. من حُسنِ حظّنا أنّ الدكتور حسنين وزوجته وقعا في حبّ فندق مهرجان. وهكذا حُجزت الغرف 11 و12 و13 لهم للعام التالي.

34

بعد ثلاثة أسابيع من رحيل عائلة الدكتور حسنين، ومع اقتراب الصيف من خواتيمه، شغل ابن المحافظ جناحًا في الطابق الثاني، عطلة نهاية الأسبوع بكاملها. أتى باسم بمفرده إلى مكتب الاستقبال، لكنّنا لم نلبث أن لاحظنا برفقته شقراوين «زائفتين»، عثر عليهما في أحد الملاهي الليليّة في العاصمة وأتى بهما بسيّارته المرسيدس الجديدة ذات البابين.

طلب الثلاثة الشمبانيا عدّة مرّات، مناوبين بين الحفلات اللاهية في الغرف وبين المشاهد الصاخبة في المطعم أو عند المسبح. إشتكى بعض الزبائن لدى فاضل رئيس موظّفي الاستقبال، فتدخّل بخجل أمام ابن المحافظ الذي صرفه بفظاظة. ما كان من فاضل إلّا أن ألقى بالمهمّة على عاتق المدبّرة نيفين، التي كانت أكثر حزمًا وفعاليّة. غير أنّ الجلبة ما لبثت أن عادت بعد نصف الساعة. صمّت موسيقى صاخبة تنبعث من جهاز ترانزيستور آذان كلّ مَن كانوا في الجناح الأيسر من الطابق الثاني. بين الفينة والفينة، كانت الموسيقى تتوقّف لتُسمع مكانها ضجّة مخنوقة، وكأنّما راح شاغلو الجناح يلقون أشياء على الأرض أو يعمدون إلى تحطيم الأثاث.

كان لوقا غائبًا يومذاك، فقد ذهب إلى العاصمة لمقابلة مدير وكالة سياحيّة أوروبيّة. إصطحب معه أحمد، الغزال السابق، ليعاينه طبيب اختصاصيّ أوصى به الدكتور حسنين: تقرّر صنع ساق اصطناعيّة له، يتكفّل خالي بنفقتها.

لم يكن تهوّر باسم ومرافقتيه أمرًا يمكن تخيّل حدوثه في عهد عائلة ليفي-حنّور. في المفكّرة الزرقاء، شطب مؤسِّس فندق مهرجان بخطّين كبيرين العبارة المقدّسة التي تقول إنّ «الزبون دائمًا على حقّ». هو لم يكن مقتنعًا بذلك الشعار، كما لم يذكر هذا المفهوم القابل للنقاش أمام موظّفيه قطّ. ولئن كان يتساهل أحيانًا مع بعض الأهواء، أو حتّى مع بعض النزوات، فإنّه لم يكن ليتحمّل شذوذ الأطفال المدلّلين. لم يكن مهرجان فندقًا حيث تستطيع مليارديرة سَكْرى أن تسير في الأروقة عارية الثديين أو تشرب الشمبانيا بحذائها. في المقابل، حفظ إيلي حنّور ممّا تلقّاه في المدرسة الفندقيّة أنّ الزبائن المتشدّدين في احترام الأصول هم مصدر نفع. وقد دوّن هذه الملاحظة في مفكّرته: «الزبائن المتساهلون أخلاقيًّا هم مَن يجعلون الفنادق مؤسَّسات مُهمِلة».

مساء يوم السبت، وقع اختيار العابثين الثلاثة على كلب السيّد كرافيلو، الذي كان يتنزّه بهدوء بدون سيّده. فأرادت إحدى الشقراوين، وهي نصف ثملة، أن تجعله يشرب الشمبانيا. ثمّ حاولت بمساعدة رفيقتها وباسم رميه في المسبح. نجح الكلب المسكين في الفرار منهم وهو ينبح بجنون. حين عرف البرتغاليّ بما جرى، كاد يصاب بوعكة جديدة.

علم لوقا بالحادثة صباح اليوم التالي لعودته، فأرسل في طلب ابن المحافظ. لكنّ موظّف الاستقبال بادره:

– لا يجيبون على الهاتف، لا بدّ من أنّهم لا يزالون نِيامًا.

– أيقظوهم! جأر لوقا.

بعد عشر دقائق، دخل باسم مكتب المدير بلباس النوم، وبعينين منتفختين وملامح شوّهها الإسراف في السُّكر. ثمّ سُمعت أصوات صراخ. مع مرور الدقائق، بدا أنّ أجواء المقابلة تشتدّ عنفًا.

– سأجعلك تدفع الثمن يا ابن الكلب! صاح باسم في النهاية، وهو يخرج صافقًا الباب خلفه بعنف.

كانت الساعة العاشرة صباحًا، حين غادرت الفندق سيّارة المرسيدس بركّابها كإعصار جنونيّ، بعدما كادت تدهس أحد الحارسَين. في بهو المدخل، راح عددٌ من الموظّفين يتبادلون الانطباعات همسًا. قيل إنّ الثلاثة خلّفوا الجناح في حال لا توصف: المنافض مقلوبة، والستائر ممزّقة، وآثار القيء في كلّ مكان تقريبًا، إلى جانب قشور الفاكهة التي عُثر عليها بين الشراشف، وحمّالة صدر طافية في مغطس الحمّام...

أثار خبر التلاسن بين لوقا وباسم اضطرابي الشديد.

– لا تقلق، قال خالي. أعرف عن ذلك الوغد أشياء ستكلّفه الكثير من المتاعب. وهو يعرف أنّني أعرف.

كلّما عادت إليّ تلك الحادثة، أفكّر في مشهد لافت جدًّا من رواية فورينبيك: دخول صموئيل على إمام ملتحٍ في زقاق عند آخر السوق. كان الشابّ اليهوديّ المغرم بحنان، قد تعرّف إلى ذلك الرجل ذي الوجه المَوحي بالشؤم، بواسطة صديق مسلم يعاشره منذ الطفولة. لم تحدّد الرواية سبب اللقاء، لكنّ القارئ يستطيع التخمين أنّ الأمر يتعلّق بابنة الصيّاد. وجد صموئيل نفسه في غرفة عارية الجدران، نصف مضاءة بمصباح كهربائيّ يتأرجح عند طرف سلك. لم يتسنّ له الوقت الكافي حتّى للتفكير في ما سيطلبه، فالرجل نظر في عينيه باشمئزاز، وقال له بهدوء: «لا مكان لأمثالك هنا. يومًا ما، سوف نقتلكم». قال ذلك بصوت جارح ونفّاذ، ظلّ صموئيل يتذكّره كخنجر غُرز في قلبه.

أمّا الطمأنينة التي عبّر لوقا عنها أمامي فعائدة جزئيًا إلى علاقاته الجيّدة بالسلطات. فقد قال له عزّ الدين، مساعد المحافظ، في إحدى المقابلات:

– لم نعيّنك إلّا لعام واحد فقط، في انتظار إيجاد حلّ نهائيّ لفندق مهرجان. لكنّني ألاحظ أنّك تتدبّر أمرك جيِّدا. سوف أقترح منحك إدارة الفندق إلى أجل غير مسمّى.

كان ذلك خبرًا سارًّا وسيِّئا في الوقت عينه، فخالي لم يدرِ من قبل أنّ قرار تعيينه كان مؤقَّتا. حزر أنّ الرجل-البومة، والذي لا ريب يتقاسم جزءًا من الغنيمة مع سيّده، يطالبه الآن بإتاوة خاصّة به. عبّر له لوقا بكلمات مبهمة أنّه فهم ما يطلبه، وسيكون ذلك على شكل مبلغ نقديّ يُدفع سرًّا، يضاف إلى ما يدخل حساب المحافظ.

كان الجميع في ناري يشكّون في تقاضي أهل السلطة حصصًا من مداخيل المؤسّسات الكبرى. كان ذلك بمثابة أمر واقع منذ زمن بعيد، ولم تغيّر فيه إجراءات التأميم شيئًا. لكنّ مَن يقومون بتلك العمليّات هم وحدهم مَن يعلمون بتفاصيلها.

الشخص الوحيد الذي ائتمنه لوقا على أسراره كان شقيقه حبيب، مدركًا أنّه لن يبوح بكلمة واحدة. رأى حبيب أنّ دفع الرشوة لمحافظ المقاطعة أمر طبيعيّ جدًّا، غير أنّ إتاوة المساعِد أقلقته.

– لا تقلق، طمأنه لوقا بعد شهر. أكّد لي المحافظ بنفسه تعييني مديرًا بصورة دائمة. هو راضٍ جدًّا عن نتائج العمل في مهرجان. كما أنّ عزّ الدين يكتفي بعمولة معقولة.

35

ما كانت أيّة مدرسة فندقية لتوكل إلى لوقا تنشئة طلّابها. ومع ذلك، أشهد بأنّ موظّفي مهرجان أحبّوه حبًّا لا يوصف. فالمدبّرة نيفين، وعلى رغم شكاواها الدائمة، كانت مستعدَّة لأن تضّحي بنفسها من أجله. أمّا أحمد، الغزال السابق، فقد كان يرحّب باجتياز الصحراء كلّها على قدمه الاصطناعيّة، من أجل أن يسدي خدمة إليه...

كانت عائدات مهرجان الماليّة جيّدة. لكن، ومنذ أن استُبدِل جزء من الراتب بالبقشيش، بات الموظّفون كلّهم من أعلى السلّم إلى أسفله، يعطون الانطباع بأنّهم يمدّون يدهم للتسوّل. أخذ النُدُل، وخادمات الغرف، وحتّى رؤساء الأقسام يتنافسون في الإرضاء والتذلّل. لم يعد عامل الشاطئ يجهّز المظلّات والكراسي الطويلة في بداية الصباح، بل أصبح ينتظر وصول أحد السابحين ليهتمّ به ويتقاضى بقشيشًا. أمّا حمّالو الحقائب فيقفون اثنين اثنين لحمل حقيبة واحدة، وبعض العمّال يعودون في أولى ساعات المساء لتنظيف غرفة لا تحتاج إلى التنظيف على الإطلاق، أو إضاءة مصباح، أو إغلاق ستارة، أو استبدال مناشف لم تُستخدَم إلّا قليلًا، أو أيضًا فاكهة في سلّة زُيّنت صباحَ اليوم نفسه. كان كلّ شيء مباحًا لإظهار الاهتمام المفرِط. بات بعض خدم الطوابق يطفىء تلقائيًا ضوء الرواق حال اقتراب أحد النزلاء، ليعود إلى إضاءته في حضور هذا الأخير.

قبل الإصلاح، كان موظّفو مهرجان يتقاضون رواتب ثابتة، ومداخيلهم معروفة بدقّة. أمّا الآن فقد باتت مداخيلهم رهنًا بسخاء الزبائن وبمعدّل ارتياد الفندق، الذي يتفاوت بين شهر وآخر. بإيجاز، كان الموظّفون يعيشون حالة دائمة من التردّد والتقلّب.

كانوا يجيدون اكتشاف «الزبائن الجيّدين»، أي الذين يدفعون بقشيشًا كبيرًا، فينهمكون في خدمتهم، ما أثار النزاعات بينهم. وصل الأمر بحمَّالين إلى الاشتباك بالأيدي في البهو، بعد ظهر أحد الأيّام، فاضطرّ الآخرون إلى التدخّل للفصل بينهما.

أمّا الزبائن فتساءلوا حول مبلغ البقشيش الذي يجب تقديمه، فلم يقدّم أحد إليهم الإجابة الشافية، بدءًا من فاضل، رئيس موظّفي الاستقبال، الذي كان يعتمد هو نفسه على سخاء الزبائن لزيادة راتبه.

أثار محام هولنديّ على قدر كبير من البخل بلبلة كبيرة، حين أقنع عددًا من الأجانب الآخرين بأنّ البقشيش ليسَ منافيًا للأخلاق المحليّة وحسب، بل يُعتبر بمثابة إهانة. كان الثأر الفوريّ مِن نصيب الذين صدّقوه: اصطدم زوجان ألمانيّان برفض العمّال تنظيف ملابسهما، وذلك بذريعة مختلفة كلّ صباح، كما تُركت إنكليزيّة عجوز تقف وحيدة يوم رحيلها وسط حقائبها، عند مدخل محطّة الحافلات...

توجّهت نيفين الصريحة حتّى النهاية، إلى لوقا قائلة:

– مع نظام البقشيش الذي وضعتَه، أنت تجبر الموظّفين على التسوّل. هذا لم يعد بقشيشًا بل استعطاء.

لكنّ الأوان كان قد فات للعودة إلى الوراء، حتّى ولو أراد لوقا ذلك. لم يعد واردًا تحميل الموازنة عبئًا كبيرًا بإعادة مبدأ علاوة العشرة بالمئة. غير أنّه سمح لنيفين بإنشاء صندوق مشترك للبقشيش في الطوابق. كان الزبائن يتركون ظرفًا واحدًا في نهاية إقامتهم، فتقوم نيفين بتوزيع المبالغ بأكبر قدر ممكن من الإنصاف كلّ أسبوع، بين خادمات الغرف وعمّال التنظيف.

كان من الممكن تطبيق هذا النظام أيضًا في المطعم، لو لم يكن رئيس النُدُل أقلّ قدرة على ضبط

مرؤوسيه. والواقع أنّ تطبيق نظام البقشيش أثار التوتّر بين صالة المطعم والمطبخ، فالزبائن الراضون عن طبق ما، كانوا يرغبون في مكافأة الطاهي، لا النُدُل.

قرّر لوقا ترك الأمور على حالها، لكنّ ما أقلقه فعلًا كان مكتب الاستقبال. فالمدعوّ فاضل، وهو وريث سافاكيان، لم يكن على مستوى المهمّة الموكلة إليه، كما أنّ افتقاره الى آداب السلوك كان مروِّعًا. وذلك على الرغم من توجيه الملاحظة إليه مرارًا وتكرارًا:

– لا يُقال: «آلو، مَن؟»، بل «مِن قِبَل مَن سيّدي؟»... لا يُقال: «ماذا تريد؟»، بل «بمَ يمكنني أن أخدمك؟»... لا يُقال: «سيّدي، لقد أخطأتَ الفهم»، بل «معذرة يا سيّدي، لا شكّ بأنّني أخطأتُ في التعبير»...

في النهاية، صرفه لوقا بعدما يئس من إمكانيّة تغيير سلوكه، مقدِّمًا له تعويضًا ماليًّا صغيرًا.

– أحسنت، قال له شقيقه حبيب. لكن، مَن ستعيّن مكانه؟

– موظّفة استقبال.

كانت تلك المرّة الأولى في ناري، وفي البلد كلّه بلا شكّ، التي تشغل فيها امرأة وظيفة كهذه، لدى فندق من فئة عليا. تعجّب الموظّفون وأمّا أمّي فصُعقت حين بلغها خبر تعيين بيلينا في هذا المنصب. وماذا ستفعل في مكتب استقبال الفندق، تلك القبرصيّة التي ترفض هي استقبالها في منزلها؟

– أتخيّلها تأتي ومعها آلة الخياطة، قالت للمدبّرة. كان على شقيقي توظيفها في مشغل الرتي.

لم تجب نيفين، فهي لا تزال مغرمة بلوقا، وآلمها أن ترى تلك المرأة تأتي لتغزو المكان. حتّى أنّ ألمها تعاظم في الأسابيع التي تلت، حين لاحظت السهولة التي تلبّست بها الخيّاطة دورها الجديد. فبيلينا كانت ممتازة. إلى جانب كونها أكثر براعة من فاضل الكئيب، في التحدّث باللغات كافّة، كانت تمتلك موهبة التنظيم. عرفت، بأدبها ودقّتها واهتمامها الكبير بأدنى التفاصيل، كيف تنظّم تمامًا ما كان يرتجله لوقا ارتجالًا. كما أنّها لم تتعامل مع المدبّرة بأيّ فوقيّة، بل أظهرت ودًّا كبيرًا نحوها ورغبة في الاستفادة من خبرتها.

لم تتسنّ لي حتّى ذلك الحين رؤية القبرصيّة إلّا بشكل خاطف، في المدينة أو أثناء زياراتها النادرة إلى مهرجان. أمّا الآن فقد بات بوسعي مراقبتها عن كثب، حيث تُتاح لي فرص عدّة لأن أكون في بهو الفندق. كانت تجلس خلف مكتبها ولا يظهر منها سوى وجهها. لكنّها، حالما تقف، يظهر شخص آخر. لا يمكن القول إنّ بيلينا كانت جميلة، لكنّ قياسات جسدها المتكاملة جعلتها شبيهة بنجمة من نجوم السينما.

كانت تجيد التحدّث بالعربيّة والإنكليزيّة، وذات طلاقة كاملة بالفرنسيّة، وتتذكّر على نحو مبهم بعض العبارات اليونانيّة التي تلفظها بلكنة ناري. كما كان كلامها رصينًا، يخلو من أيّ استفاضة. أظنّ أنّ اجتماعاتنا العائليّة وصراخنا وحماستنا في الحديث كانت لتربكها. أمّا إذا ارتكب أحد الموظّفين هفوةً ما، أو تصرّف أحدُ الزبائن بنذالة، فعندئذٍ تضطرم النار في عينيها الداكنتين. وعليه، لا يمكن القول إنّ طباعها تخلو من الحدّة.

أمّا نسيبنا دودي فقد أكّد بأنّها قنبلة جامحة في السرير، فقد كان يدّعي الخبرة في هذا النوع من المتفجّرات. ومع ذلك، كان خوفه الشديد من لوقا يردعه عن أيّة محاولة للتقرّب من بيلينا. فاختار لصيده، طوابق النساء، باحثًا عن طرائده بين خادمات الغرف، اللواتي كان بعضهنّ يُحاوِل زيادة مدخوله بتقديم خدمات سريعة بين جولتَي تنظيف. وأمّا ذلك البقشيش فلم تكن له صلة بالصندوق

المشترك.

36

باتت بيلينا جزءًا من المشهد، واستسلمت أمّي للأمر الواقع. فالجميع راح يقول لها كم استفاد مهرجان من وصول موظّفة الاستقبال الجديدة. ولم تستطع، بدافع حبّها الكبير لشقيقها إلّا أن تراعي هذا الواقع. حتى ولو لم تكن قد قرّرت بعد دعوة القبرصيّة إلى منزلنا، فهي لم تعترض حين بدأت بيلينا تشاركنا مآدب غداء الأحد في منزل عمّاتي، مكتفية بالحدّ الأدنى من التخاطب: «طاب يومكِ»، «إلى اللقاء»، ومتعمّدة الجلوس عند الطرف الآخر من الطاولة ومراقبتها.

لم تدرِ بيلينا أنّ كبرى عمّاتي، مريم، قد بدأت تفقد قواها العقليّة فاعتراها الذهول لبُرهة حين سألَتها ذات مرّة:

– ألم يرافقك السيّد مالوميان؟

ولمّا اطمأنّت إلى إشارة من لوقا، أجابت وهي تشدّ على أصابع كبرى الشقيقات بنعومة:

– لا، المسكين لم يعد في ناري.

خلال احتفالات القدّاس، بات علينا أن نردع مريم عن التقدّم من المناولة مرّة ثانية. فهي لا تكاد تعود إلى مقعدها حتّى تذهب مجدَّدا إلى المذبح، مبرهنة عن نهم روحيّ شديد. ذات يوم أحد، قالت لأبي «صباح الخير، سيّدي»، وللوقا «شكرًا، دكتور». في خلال جلسات التطريز، كانت مريم لتوقف فجأةً شغل الإبرة وتتحدّث عن خطوبتها من ابن أحد تجّار ناري الأثرياء، وفستان زفافها المرصّع باللآلئ، ورحلة شهر العسل إلى كابري، والأبناء الوسماء الذين وُلدوا من هذا الزواج... كانت شقيقتاها تدعانها تتكلّم، لبعض الوقت على الأقلّ، إلى أن تُسكتها إحداهما في النهاية، بعد أن تعجزا عن تحمّل هذا التذكير غير المقصود بسوء حظّهما. لكنّني أعتقد أنّ مشاعر متناقضة كانت لتخامر كلتيهما، فقد همست وردة يومًا:

– لو أنّ مريم لم تكن متطلّبة جدًّا وكثيرة النزوات، ولو أنّها لم ترفض طالبي يدها الواحد بعد الآخر، لما بقينا عانستين. لكنّنا ما كنّا لنحظى بسعادة العيش معًا، فـ...

باتت وردة تتولّى مسؤوليّة قيادة الفريق أكثر فأكثر. في المنزل كما في الرعيّة، كانت تفيض حركة ونشاطًا. لكنّ أبي رأى أنّ شقيقته بدأت تصبح خطرًا متجوّلًا في شوارع ناري. فقد تراجع بصرها، أو ربّما تباطأت ردّات فعلها؛ كادت تصطدم مرّتين بسيارة الـ«بويك» الخاصّة بالفندق، وهي تقود السيّارة الحولاء.

– هل تستهدفين الـ«بويك» أم ماذا؟ سألها لوقا، حائرًا بين الفكاهة والقلق.

كانت سيّارة الفندق الأثريّة، التي يعاد طلاؤها باللونين الأبيض والأزرق بصورة منتظمة، تعاني صعوبة في إخفاء تجاعيدها. من جهة، كانت تفتقر إلى قطع الغيار، بسبب الحظر الشديد على استيراد المنتجات الأجنبيّة، ومن جهة أخرى، فإنّ شركة جنرال موتورز قد توقّفت منذ مدّة طويلة عن صنع قطع غيار لسيّارات «بويك سبيشيال» من طراز العام 1936. لذا، تمّ محلِّيًا استحداث واقية جديدة للمبرِّد، ومصباح أماميّ، وواقي صدمات خلفيّ، وأطواق إطارات... وهكذا، تعايشت في هيكل السيّارة وتحت غطاء محرّكها، ماركات سيّارات عدّة.

وصفها لوقا بأنّها «سيّارة أمميّة جامعة». واصل أبو عمر الذي ظلّ يتمتّع بصحّة ممتازة على رغم أعوامه الثمانين، اهتمامه بتلك السيّارة، بعناية فائقة. لم يكن مستعدًّا للتنازل عنها قطّ، لكنّه بات يقودها

ببطء أكبر. وفي مدينة حيث كلّ الأمور في تسارع، بدت سيّارة الـ«بويك» الخاصّة بفندق مهرجان، أكثر غرابة.

لا شكّ بأنّ لوقا شعر بالارتياح لمشاركة بيلينا في غداء الأحد. فقد آن الأوان لتحظى هذه العلاقة التي يعلم بها الجميع، باعتراف العائلة. كنت أراه في قمّة نشاطه، وقد أسرّيت بذلك لأمّي التي أجابتني همسًا:

– في قمّة النشاط يومًا، وفي قمّة الكآبة في اليوم التالي. لم يكن هكذا في الماضي.

بشيء من الحشمة التي لا تفسير لها، لم أجرؤ على مفاتحة أمّي بالموضوع. تذكّرت ملاحظة عمّتي زوزو، حين قالت إنّها وجدت لوقا في حال سيّئة لدى عودتها من أوروبا في مايو من العام 1937. هل كانت مستعدّة لتضيف المزيد على ما أخبرتني إيّاه من قبل؟ إخترتُ ذريعة للذهاب لرؤيتها:

– عمّتي زوزو، هل نسيت لديك قلمًا أحمر يوم الأحد الماضي؟

– قلم؟ لا، كنت لألمحه، أو كانت الخادمة لتعطيني إيّاه...

بعدما قبلتُ منها شراب اللوز الذي عرضته عليّ، أضفت:

– عمّتي زوزو، أودّ سؤالك عن أمر يتعلّق برحلتك إلى أوروبا.

– أعرف ما ستسألني، قالت بنبرة سعيدة. تريدون كلّكم أن تعرفوا كيف أقمنا على متن سانتا لوتشيا! حسنًا، سأخبرك. كانت لدينا شقّة خاصّة صغيرة، تنيرها واجهة زجاجيّة، وفيها حمّام ذو مغسلة ومغطس من المرمر. في الخارج، مساحة خاصّة بنا مع كرسيّين هزّازين...

وهكذا أصبحت المقصورة ذات السريرين شقّة صغيرة. من عامٍ إلى آخر، كانت ذكريات زوزو لا تنفكّ تزداد غنًى.

– وُضع بتصرّفنا فريق من الخدم. كلّ مساء كنّا نتناول العشاء إلى مائدة قائد السفينة، وهو يهوديّ مميّز. حتّى الزهور، على شرشف الطاولة الدمشقيّ المطرّز، بدت وكأنّها مقطوفة حديثًا. وماذا أقول لكَ عن لائحة الطعام: كبد البطّ، كركند، وكافيار بكميّات وافرة...

إحتجتُ إلى الكثير من الأفكار الخلّاقة والعبقريّة لأبلغ بها إلى السؤال الذي يثير اهتمامي:

– كم كنتِ محظوظة بالقيام بتلك الرحلة يا عمّتي زوزو! لا شكّ عندي بأنّ أشخاصًا عديدين كانوا يتمنّون أن يتعرّفوا إلى باريس، كما فعلتِ. كلوقا، مثلًا... ولكن، لمناسبة الحديث عن لوقا، أتساءل... هل بات يمرّ بفترات اكتئاب منذ أن بدأت علاقته ببيلينا؟

هزّت زوزو كتفيها وأجابت:

– لا! الأمر يعود إلى ما قبل ذلك بكثير. بسبب المرأة الأخرى.

– المرأة الأخرى؟

– نعم، اليهوديّة.

لا شكّ بأنّ عمّتي زوزو كانت ترى اليهود في كلّ مكان. ظنَنْتُ أنّ الخرف بدأ ينال منها هي أيضًا، كشقيقتها مريم.

في تلك اللحظة دخلت الخادمة لتعلمنا بوصول الطبيب. فاعتذرت زوزو لاضطرارها إلى مقاطعة

حديثنا، واتّجهت إلى غرفة شقيقتها الكبرى، التي كانت تعاني من حمّى شديدة، وقد أمضت معظم الليل وهي تهذي.

37

لبثتُ أنتظر فصل الصيف بصبر متزايد يومًا بعد يوم. كانت لميا تعدّ الأيّام هي الأخرى، وكان قلبي يرتعش مع كلّ رسالة تصلني منها. كم أحببتُ ذلك الخطّ المستقيم المستدير والمتناسق، والذي يضيف الحبر الأخضر إليه لمسة خاصّة! دأبت على أن تروي لي في رسائلها وبأصغر التفاصيل، يوميّاتها في المدرسة الداخليّة، وملاحظات مدرِّسيها، وتعلّق على قراءاتها، وتنسخ لي مقطعًا ما أثّر فيها، وتدسّ أحيانًا في الظرف بعض وريقات الورد أو خصلة من شعرها. كنت بدوري أروي لها نوادر فندق مهرجان والحوادث المختلفة التي تقع فيه، ما جعلها تشعر بأنّ إجازتها الصيفيّة بدأت.

حجزت عائلة حسنين إقامة لمدّة شهر كامل بدءًا من 6 يوليو. توقُّعت أن يصلوا في منتصف فترة بعد الظهر. كان عليّ طبعًا إمهالهم الوقت الكافي لاستلام غرفهم وفتح حقائبهم. آنذاك فقط تستطيع لميا إيجاد ذريعة لموافاتي، بعدما حدّدنا موعد لقائنا بأدقّ تفاصيله. كنتُ قد كتبتُ لها: «سأنتظرك ابتداءً من الساعة الخامسة والنصف داخل الحصن، وإذا لم تستطيعي الخروج بسرعة، فسأكون اعتبارًا من السابعة خلف الصخرة الكبيرة. في أسوأ الحالات، نتلاقى قرب المسبح قبل العشاء».

يوم 6 يوليو، لم أذهب لا إلى الحصن، ولا إلى خلف الصخرة الكبيرة. حتّى نهاية الأمسية، لم يظهر أيّ أثر لسيّارة عائلة حسنين، التي مكثتُ أنتظر وصولها منذ الظهر. ساورتني أسوأ المخاوف، لعلمي بمدى خطورة طريق الصحراء.

عند الحادية عشرة ليلًا، صادفتُ لوقا بالقرب من المسبح، فاستفسرته بصوت جهدتُ في عدم تحميله أيّ انفعال، حول وصول الطبيب وعائلته.

– نعم، قال لي، سيصلون غدًا.

– غدًا؟ لكنّني ظننتُ...

– صحيح أنّ الدكتور حسنين حجز غرفه اعتبارًا من اليوم. لكنّه اتّصل بي منذ يومين ليبلغني أنّه سيتأخّر أربعًا وعشرين ساعة بسبب واجب مهنيّ مستجدّ.

لا شكّ بأنّ الارتياح ظهر عليّ بوضوح. ومع ذلك لم يعلّق لوقا بأيّة ملاحظة، واكتفى بأن تمنّى لي ليلة طيّبة.

كان لقائي بلميا عيدًا. حين وصلتْ عند الخامسة بعد الظهر إلى الحصن حيث كنت أنتظرها، رأيتها أجمل حتّى من الصيف السابق. لكنّ وجود بعض الزوّار، وبينهم نزيلين في الفندق منعنا من القيام بأيّ حركة متهوّرة. إنتظرنا ريثما تخفينا الصخرة الكبيرة لكي نتعانق بلهفةٍ وشوق.

كان والداها قد سمحا لها بالسهر حتّى الحادية عشرة ليلًا. كان نسيبي ريكي، تواكبه فرقته الموسيقيّة، قد اجتذب بغنائه الحالم عددًا كبيرًا من الرجال والنساء إلى المرقص القريب من المسبح. تَرَاقَصنا أنا وهي على نغمات الموسيقى الرومنسيّة الهادئة مرّات عدّة، خلف الشجيرات. آنذاك ضممتُ لميا بين ذراعيّ بشغف لم أشعر به حتّى في أجمل الأحلام التي راودتني، في الأشهر الأخيرة.

كان المكتب الصغير الموضوع بتصرّفي في الفندق المكان الأمثل للمواعيد الغراميّة. شهدَت تلك الأسابيع الأربعة سلسلة متتالية من اللقاءات السريّة، والقبلات المحمومة، والوعود الأبديّة. على رغم حداثة سنّنا واختلافاتنا، فقد قرّرنا تحدّي كلّ المحظورات والزواج.

عائق واحد كان يفصل بيننا، لكنّه عملاق، ولا تُسبَر أغواره: إنّه الدين وكلّ ما يتّصل به. قبل ذلك،

لم تُطرح قطّ مع طارق، صديقي الفارس، مسألة الإسلام والمسيحيّة. آنذاك، كنّا صغيرَي السنّ، وفي المدرسة، فقط حصص التعليم الدينيّ كانت لتسلِّط الضوء على اختلافنا. حدث أن ذهبتُ لِلّعب في منزله، ولا شكّ بأنّه أتى إلى منزلي مرّتين أو ثلاثًا. لكنّنا بتنا نتلاقى بوتيرة أقلّ بعد أن فرّقت بيننا الصفوف المدرسيّة في المرحلة الثانويّة. لا أظنّه كان ليتقبّل فكرة معاشرتي فتاة مسلمة. أنا نفسي كنت لأشعر بالصدمة لو اكتشفتُ إحدى نسيباتي بين ذراعيه.

كانت الديانة حاجزًا اجتماعيًّا، والإيمان لم يكن موضوع نقاش. إذا كان في ناري من أتباع للمذهب اللاأدريّ الإلحاديّ، فهم أكبر منّا سنًّا ولا يتباهون بذلك أبدًا. بالنسبة إلى لميا، ومنذ نعومة أظفارها، كان بديهيًّا جدًّا أنّ ملاكًا أنزل القرآن على النبيّ محمّد، تمامًا مثلما لم أشكّ يومًا في أنّ يسوع المسيح هو ابن الله، وأنّه بذل نفسه على الصليب تكفيرًا عن خطايانا. كانت لميا تصوم في شهر رمضان، كما نصوم نحن في الفترة التي تسبق عيد الفصح. لا شكّ بأنّها كانت تنتظر عيد الفطر بالشوق عينه الذي أنتظر به عيد الميلاد. كان كلٌّ منّا، في قرارة نفسه، على اقتناع راسخ بأنّ إلهه هو الإله الصحيح. لكنّنا تجنّبنا الحديث في ذلك.

في المقابل، كان فندق مهرجان ليجمعنا. بأيّة حال، لم يكن لدينا مكان آخر نجتمع فيه.

– أودّ العيش هنا طوال العام، قالت لي لميا. لا شكّ بأنّ الصالون الإنكليزيّ رائع في الشتاء، بوجود نار موقد مشتعلة...

تخيُّلتنا نعمل ونعيش معًا في مهرجان. حتّى أنّني رأيتُ نفسي أخلف لوقا يومًا ما وأواصل التقليد العائليّ. تراءت لي لميا وهي تنزل بفستانها الطويل على الدرج الكبير، فيما كلّ أفراد المجتمع الراقي في ناري، والذين أتوا إلى الفندق لشرب الشاي، يسيرون خلفها لإلقاء التحيّة على الشمس الغاربة...

لم تَخْفَ على لوقا حمّى الغرام التي أشعلت كياني. لا بدّ من أنّه كان يشكّ في ما يجري، لأنّه همس لي في أحد الأيّام:

– حذارِ. لا تلعب بالنار، فقد تحترق.

بدا وكأنّه يُضيف: «أعرف جيِّدا ما أتحدّث عنه». أو لعلّه مجرّد تكهّن أقوم به الآن، بعد انقضاء السنوات. ومع ذلك لم أكن مهيَّئا لسماع تحذيره يومذاك، فلميا شغلت تفكيري كلّه، ولم أتخيّلني أعيش من دونها.

38

عشيّة رحيله، أعلن الدكتور حسنين في المطعم أنّ فندق مهرجان يستحقّ تصنيفه مَعْلَمًا تاريخيًّا. راح لوقا الذي شعر بكثير من الفخر، يتنقّل من مائدة إلى مائدة لينقل ذلك للزبائن، وقد رأى في الأمر مديحًا ثمينًا صادرًا عن زبون مهمّ. لكن، ألم يعبّر الطبيب بذلك عن قلقه، أو ربّما حرصه في الحفاظ على معلم معرّض للخطر؟

الواقع أنّ حال مهرجان كانت تتدهور. ففي شهر أكتوبر سقط إفريز حجريّ من الطابق الثاني، ليتحطّم عند أسفل واجهة الفندق. لحسن الحظّ أنّ أحدًا لم يكن أمام المدخل وقتذاك. كانت ساعة القيلولة، كما أنّ معظم المصطافين المحليّين كانوا قد قَفَلوا عائدين إلى العاصمة، قبل أسبوعين أو ثلاثة. من باب الاحتراز، كُلِّفت مؤسّسة بناء بإجراء فحص لكلّ الأفاريز. كانت الأعمال أكبر حجمًا ممّا تخيّله أحد. دامت حتّى عيد الميلاد، وقد نتجت عن ذلك فاتورة ضخمة.

كانت مصاريع الأبواب والنوافذ الخارجيّة المعرّضة لهواء البحر، تُغْسَلُ بانتظام بالماء العذب، لإزالة رواسب الملح التي تلحق بها الضرر. لكنّها كانت بحاجة إلى إعادة طلاء. فكّر لوقا في أن يعيد إليها لونها الأساسيّ، أي أزرق الخزامى. كانت فكرة رائعة، لكنّه لم يملك المال الكافي لتنفيذها. علاوة على أنّ المدبّرة نيفين راحت تشير إلى ستائر ممزّقة في بعض الغرف، فيما كان ممدوح رئيس النُدل يطالبه باستبدال الصحون المشقوقة في المطعم، والتي يجد نفسه مضطرًّا إلى مواصلة استخدامها.

إلى جانب تداعي المكان والمعدّات، حدث أمر أكثر خطورة وهو تدنّي مستوى الخدمة. ومن كان أفضل موقعًا لإدراك ذلك، غير نزيل قديم كالسيّد كرافيلو، المقيم الدائم في الفندق؟ ذكر هذا الأخير لنيفين المؤتمنة على أسراره أنّ بعض الموظّفين يفتقرون إلى اللياقة.

– بعض النُدُل الصغار السنّ يصغون إلى أحاديث الزبائن في المطعم. حتّى أنّني رأيت بعضهم يشارك في تلك الأحاديث.

كانت ملاحظات البرتغاليّ تلقى أشدّ الاهتمام من المدبّرة، خصوصًا وأنّها لاحظت نقصًا شبيهًا في اللياقة لدى عدد من خادمات الغرف.

في الآونة الأخيرة، ظهر في سلوك خدم مهرجان شيء من التراخي. جلابيبهم الخضراء فقدت صفاءها القديم. بدأوا يعتادون الدردشة في ما بينهم. حتّى أنّ الأكثر جرأةً بينهم تمادوا إلى حدّ ترك صوانيهم الفضيّة على درجات المدخل، ليتواروا في مكاتب الخدمة، ويعودوا منها بعد قليل، بمزاج قد يكون منشرحًا أو عكرًا.

في المطعم، لم يعد ممكنًا وصف الخدمة بالتي «لا تشوبها شائبة». نمّت آثار الأكسدة على أطراف الشُّوَك عن إهمال في صيانة الفضّيات. بدأ الزبائن يفقدون الثقة شيئًا فشيئًا بالأكواب التي قد تحمل في الأغلب، بقايا أحمر شفاه. كما كانوا يضطرّون أحيانًا إلى أن يمسحوا بفوطهم أطباقًا يرتابون بنظافتها.

كذلك، برزت بعض الحوادث خلال تبديل الأطباق: عند رفعها، قد تسقط بعض السكاكين الثقيلة المقبض – إذ لم يوضع نصلُها بالشكل الصحيح تحت الشوك – إمّا على الأرض أو على ذراع الزبون. حقيقة الأمر أنّ عددًا كبيرًا من الموظّفين الذين أحيلوا إلى التقاعد قد استُبدلوا بآخرين حديثي السنّ يجهلون قواعد العمل الأساسيّة.

أحيانًا، كان رئيس النُدُل يضطرّ إلى التدخّل للحؤول دون وقوع حريق قد يسبّبه نادل يشعل الكحول في مقلاة وهو يقدّم طبق «فلامبيه»: عادةً ما يلاحظ أنّ نادلًا وضع مقلاته قريبة جدًّا من مائدة الزبائن،

فيهرع طالبًا إلى المتهوّر إبعاد قاعدة المقلاة، أو يسوّي الأمر بنفسه.

كان رئيس الندل الوفيّ لتعاليم إيلي حنّور يردّد دائمًا لمرؤوسيه:

– يجب ألّا تبقى الكأس فارغة، لكن، لا يجدر ملء أكثر من ثلثيها، لأنّ ذلك يمنع شاربها من إدارتها في يده للاستمتاع بنكهات الخمر.

كان ممدوح يستحقّ التقدير الكبير لدفاعه عن هذه القواعد، لا سيّما أنّه، هو المسلم الورع، لم يشرب قطرة خمر في حياته.

بات بعض الزبائن يشكو بطء الخدمة. وحدث أن نهض بعضهم عن مائدته ليشدّ نادلًا من كمّ جلبابه ويأتي به. ووصل الأمر بآخرين، من شدّة يأسهم، أن يذهبوا للشكوى لدى أحد المسؤولين في مكتب الخدمة. حذا أبي حذوهم ذات مرّة وعاد مغمومًا. مطبخ مهرجان الذي لطالما اشتهر بنظافته، بات يعجّ بالذباب!

شعر لوقا بالخطر، ووعد بمعالجة تلك المشاكل، لكنّه كان عاجزًا عن مراقبة كلّ شيء في آن واحد. كما أنّه لم يكن مسؤولًا إلّا جزئيًّا عن تدهور نوعيّة الخدمة. تلك باتت مشكلة وطنيّة: التربية المدنيّة وآداب السلوك في تراجع، والمستوى في هبوط؛ في القطاع الفندقيّ كما في أيّ مجال آخر.

39

حلّ الشتاء. بدا لي مهرجان من دون لميا، فارغًا حتّى اليأس. كنت أتسكّع في طوابق الفندق، والحديقة، وحول المسبح، على غير هدى. باتت «قناة السويس»، حيث تقاطعت طريقانا للمرّة الأولى، مكانًا مقدَّسا، لا أملّ عبوره. من الشاطئ الخالي، كنت أنظر إلى العوّامة الحمراء تتأرجح وسط الأمواج... أمواج بحر شتويّ، مقلق ومحزن.

طُبع شتاء ذلك العام بسفر عدّة أشخاص، فقد أعلن بعض الأنسباء وجيراننا في الوقت نفسه تقريبًا أنّهم سيرحلون عن البلد. دُهشنا للغاية. الرحيل؟ إلى أين؟ أيّ شمس ينشدون؟ هؤلاء الجشعون؟ حين ذكروا كندا، نعتناهم بالمجانين. رفض لوقا المشاركة في وداعهم عند المرفأ قائلًا:

– سآتي لاستقبالهم لدى عودتهم، أريد أن أراهم يقفزون عن جسر السفينة ويقبّلون تراب ناري. بل ويرتمون فوقه، أقسمُ بشرفي!

لكنّ تزايد حالات الرحيل تلك ما كان ليمرّ على لوقا مرور الكرام. لا شكّ بأنّه كان يشعر مثلنا كلّنا بالوحدة والهجران. يوم أعلن شقيقه فايز عن حصوله على تأشيرة خروج له ولعائلته، امتقع وجه لوقا. كان الأوان قد فات على مناقشة الأمر. لقد أعدّ فايز لتلك الهجرة منذ فترة، ونجح في إرسال بعض المال إلى الخارج بطريقة غير شرعيّة، مستفيدًا من منصبه في الاعتماد الأشوريّ.

– أنا بحال جيّدة هنا، قال كبير أخوالي. لم أعرف قطّ وضعًا مريحًا كهذا. لكنّ أولادي لا مستقبل لهم في هذا البلد. الأفضل أن نستبق الأمور، فغدًا يكون الأوان قد فات.

هذه المرّة، لم يكن بوسع لوقا سوى الذهاب إلى رصيف المرفأ لوداع المسافرين. حين تعانق الشقيقان، كان كلاهما شديد التأثّر، وبدا أنّهما نسيا كلّ ما فرّق بينهما منذ طفولتهما.

بعد نَيْلي شهادة البكالوريا، وظّفني لوقا مؤقّتًا في انتظار دخولي الجامعة. فكنت سكرتيرًا له، نوعًا ما.

– أنت مدير أعمالي، كان يقول باسمًا.

كانت الغاية الأساسيّة من تلك الوظيفة تخليصه من فائض الأوراق الكبير. رحت أفتح البريد، أتخلّص من المنشورات الإعلانيّة، أحوّل إلى المعنيّين الفواتير أو طلبات الحجز، وأنظّم الكشوفات المصرفيّة والمستندات الأخرى... كان لوقا يكلّفني أيضًا بمهامّ صغيرة، لدى المدبّرة أو مدير المطعم، وأحيانًا في المدينة. هذا ما سمح لي بتحريك ساقيَّ بدلًا من أن أبقى أسير مكتبي. قد يحدث أحيانًا أن أرافق السائق لاستقبال زبون مهمّ في محطّة القطارات أو في المرفأ. كنت أحبّ تلك المشاوير بسيّارة ال-«بويك»، التي تذكّرني رائحة جلدها القديم بمشاعر الطفولة. في الواقع، تعدّدت إشارات التعب على تلك السيّارة وتزايدت أعطالها، على الرغم من براعة الميكانيكيّين المحلّيين القادرين على ابتكار ألف حيلة لإطالة عمر السيّارات الهَرِمة أمثالها.

نادرًا ما كان لوقا يقضي ليلته في مهرجان. فقد احتفظ بشقّته الصغيرة في شارع الفنار، حيث تأتي بيلينا لزيارته من وقت إلى آخر. دأب عمومًا على أن يصل إلى الفندق عند العاشرة صباحًا، وأحيانًا قبل ذلك. يشاهده الموظّفون يدردش مع المدبّرة، أو مع رئيس النُدُل، أو مع بستانيّ، أو يطّلع على لوائح الطعام المقرّرة لذلك اليوم، أو يشرب القهوة على الشرفة الكبيرة مع أحد المورّدين أو أحد النزلاء.

لكنّ غيابه صباح ذلك اليوم أدهشني. فالحارس لم يرَه يدخل، أمّا ييلينا فأجابتني بنبرة شبه جافّة حين سألتها عنه بأنّها لا تدير برنامجه اليوميّ. إتُّصلت هاتفيًّا بمنزل لوقا، فلم يُجب أحد. كان عامل بار المسبح آخرَ شخص صادفه، وقد قال لي:

– ذهب الريّس في ساعة مبكرة جدًّا، بُعيد شروق الشمس، في اتّجاه آخر الحديقة، وكان وحيدًا.

– إلى أين؟

– لا أسمح لنفسي بطرح سؤال كهذا عليه أبدًا. الريّس يذهب حيثما يشاء.

إكتُشفت جثّة لوقا في ساعات الصباح الأخيرة، عند حافّة الطريق المحاذية لحديقة فندق مهرجان. تملّك الذعر الأطفال الذين اكتشفوها، فعادوا بسرعة إلى درّاجاتهم وأسرعوا لإخطار البالغين. لم تلبث عربتا جيب تابعتين للشرطة أن وصلتا إلى المكان، تلتهما ثالثة، ثمّ رابعة، بأبواق تزعق بقوّة.

وردني اتُّصال هاتفيّ من مركز الشرطة، فهرعت ركضًا بأقصى سرعتي إلى المكان، يتبعني عددٌ من موظّفي الفندق. كان قد سبقنا إلى هناك بعض ساكني المنازل القريبة. كان لوقا ممدَّدا، وجهه ناحية الأرض وذراعاه ممدودتان على صورة صليب. لقد انتشرت فوق قميصه بقعة كبيرة من الدم، حيث وُجِّهت إليه عدّة طعنات بالسكّين. أصابتني رعشة تشنّج شديدة، ولبثتُ بحالة من الذهول عاجزًا حتّى عن البكاء. هذا الكائن الهامد، والذي خسرته إلى الأبد، لم يكن خالي فقط، بل كان أبي وأخي ومَعلّمي ومنارتي، والرجل الذي سحر طفولتي، وأكثر مَن أُحِبُّه في هذا العالم.

دخل عدّة أفراد من الشرطة بملابس مدنيّة بهو فندق مهرجان على عجل، وطالبوا بأن تُخلى لهم إحدى غرف الطابق الأرضيّ. ثمّ استدعوا موظّفي الفندق واحدًا بعد الآخر لاستجوابهم، بفظاظة وعدم اكتراث، وكأنّهم يريدون أن ينهوا سريعًا عملًا لا جدوى منه، لكنّهم مضطرّون إلى القيام به. لقد واجه عامل بار المسبح المسكين، والذي لم يكن يعلم أكثر ممّا صرّح به، استجوابًا مهينًا للغاية، تخلّله عددٌ من الصفعات، ربّما لا هدف منها سوى معاقبته على تقديم الكحول.

كان جليًّا تمامًا أنّ لوقا ذهب للقاء شخص أو أكثر، ضربوا له موعدًا عند تلك الدرب الترابيّة التي دعوناها ببراءة، في ألعاب طفولتنا، «درب آكلي لحوم البشر». لماذا يُضرَب موعد في مثل ذلك الوقت المبكر صباحًا؟ وفي ذلك المكان غير المناسب للّقاء؟ لا يمكن أن يكون موعد لقاء عادي مع صديق أو مع أحد المورِّدين. في الأيّام السابقة للجريمة، كان لوقا قد أجرى أحاديث هاتفيّة طويلة مع شخص مجهول، ينهيها وهو بحال توتّر شديدة. كما شعرتُ في الآونة الأخيرة بأنّه مهموم جدًّا، وعزوتُ ذلك إلى مشاكل ماليّة. غير أنّه لم يكن يطلعني على أسراره. كذلك لاحظت نيفين نظرة القلق في عينيه، وانفعالاته غير المعهودة: قد ثار مثلًا بوجه أحمد الغزال بكثير من الحدّة، لمجرّد أنّه نسي صينيّة على حافّة المسبح... آنذاك، فاتحَتْ نيفين ييلينا بالأمر، غير أنّ هذه الأخيرة لم تجد تفسيرًا.

لاحظ الطبيب الشرعيّ على صدر لوقا وذراعيه آثار حروق سجائر، فقال:

– يبدو أنّهم حاولوا إرغامه على الكلام.

– في أيّ موضوع؟ راحت أمّي تردّد وهي تشهق بالبكاء، فيما وقفت ييلينا كأنّها حجر أبكم.

كان وجه خالي حبيب المتجهّم ونظرته الجليديّة يعبّران عن ألمه. من شدّة لهفته إلى فهم ما حدث، راح يضغط على المحقّقين بحدّة لم أعهدها لديه.

أمّا أمّي التي راحت تلامس بأطراف أصابعها شفتَي لوقا، فكانت تقول هامسة:

– كم هو وسيم! ألا ترون أنّه وسيم؟

وكأنّها كانت تبدي إعجابها بالشابّ السابق، ابن الأعوام العشرين، الذي أغمضت اليوم عيناه إلى الأبد.

ذكر الطبيب الشرعيّ في تقريره أنّ وضعيّة الجثّة مستغربة، فكتب: «إنّ رجلًا طُعن في ظهره لا يسقط بهذا الشكل: أي بذراعين ممدودتين على هيئة صليب، وساقين مضمومتين، وبتناسق تامّ...»

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يرتكب فيها المتعصّبون جريمة ويجعلونها تظهر على صورة عمليّة صلب. لكن، هل هؤلاء هم المجرمون حقًّا؟ لعلّ آخرين جعلوا الجريمة تبدو على هذا النحو لإخفاء الدافع الحقيقيّ. أمّا حروق السجائر، فيمكن تفسيرها بطرق عدّة: هل أراد القاتلون انتزاع اعتراف من لوقا، أم تعذيبه فقط؟ لم يستبعد الطبيب الشرعيّ فرضيّة إلحاق الحروق بعد الوفاة. أي أنّ عمليّة إخراج واضحة قد نُفِّذت بهدف تضليل التحقيق. هل كان لوقا مطّلعًا على أمور مهمّة تتعلّق بأشخاص نافذين؟ في هذه الحال، لم يكن الهدف «حمله على الكلام»، بل على العكس، إسكاته نهائيًّا.

ألف مرّة سأطرح وأعاود طرح تلك التساؤلات على مدى عدّة أشهر. أمّا الآن فالحزن يغرقني وحسب. لطالما قيل لي «الرجل لا يبكي»، لكنّني كنتُ أبكي، وكانت عيناي تفيضان بدمع لا ينضب.

40

كان لوقا من الوجوه البارزة في ناري، ومن الطبيعيّ أن يشغل موته كلّ الأحاديث. حتّى أنّ صحف العاصمة ذكرت الخبر، وبعضها خصّص له مقالًا، بسبب شهرة مهرجان، والطابع الغامض للجريمة.

أبلغ الأسقف أرشمندريت ناري أنّه سيأتي شخصيًّا ليرأس بنفسه مراسم الجنازة. لم تَخْفَ أهمّية هذا الخبر عن أحد من أفراد الطوائف المسيحيّة كلّها. ذلك لأنّ لوقا لم يكن من كبار البورجوازيّين الذين يقطن معظمهم في العاصمة، وتربطهم علاقات وثيقة بأساقفة كنائسهم. بالفعل، لم يكن سوى بائع ليموناضة أصبح مديرًا لمؤسّسة يملكها القطاع العامّ في ناري. أمّا حضور الأسقف فيعني بأنّه يمحض هذه الجريمة معنًى خاصًّا: لقد قُتل شخص مسيحيّ، كما يدلّ وبوضوح، الإخراج المشؤوم لما جرى على درب «آكلي لحوم البشر».

مرّة جديدة، أظهرت عمّتي وردة في تنظيم المأتم، ما تتمتّع به من طاقة وحسّ للأمور العمليّة. تكفّلت بمفاوضة متعهّد دفن الموتى والأرشمندريت، واختارت بنفسها خشب التابوت، والترانيم، واهتمّت بترتيب الأكاليل أمام الفاصل الأيقونيّ في الكنيسة... طبعًا لا بدّ من القول إنّ ابنة الرعيّة الناشطة تلك، كانت تتحرّك في مجال مألوف. قبل دقائق من دخول النعش إلى الكنيسة التي عجّت بالحضور، رأيتُها وهي لا تزال تهتمّ بأدقّ التفاصيل، متنقّلة بخطًى ثابتة بين فِناء الكنيسة وغرفة الأدوات المقدّسة (السكرستيّا).

أمّا أنا فكنت مصعوقًا، ووددتُ لو أنّ لميا هنا لتمسك بيدي!

جلست بيلينا معنا، في الصفوف الأماميّة. ما كنت لأتخيّل قبل عام من ذلك اليوم أن تجلس أمّي إلى جانبها، وتخفّف عنها بين الفينة والأخرى بمداعبة ذراعها. كان خالي حبيب عابسًا متجهّمًا، وبدا تائهًا في أفكاره. أتت ثلاث من العمّات فقط، بعدما رأين أنّ من الحكمة إبقاء مريم في المنزل تحت إشراف الخادم والخادمة.

إفتقرت العائلة المفجوعة إلى كبيرها يومذاك. لم أكن الوحيد الذي شعر بألم غياب خالي فايز. على الرغم من رداءة الاتّصالات الهاتفيّة، أجرى فايز من باريس أحاديث طويلة مع حبيب وشقيقته، بعدما تبلّغ ببرقيّة، خبر موت لوقا. كان يشعر بضيق وإحباط لاضطراره إلى البقاء بعيدًا، فهو لا يستطيع المجازفة بالعودة إلى البلد بعد نقله المال إلى الخارج بطريقة غير مشروعة.

تحدّثت «أخبار ناري» عن حضور رئيس مصرف الاعتماد الأشوريّ، ورئيس مستودعات الشرق، ومدير مخازن داغاليك الكبرى، ومالكَي سافير بالاس، الشقيقين إسكندر... أمّا المحافظ فقد مثّله مساعده عزّ الدين.

ما خلا الحارس، عاملة مقسّم الهاتف، الطهاة وبعض عمّال الصيانة، شارك كلّ موظّفي مهرجان تقريبًا في الجنازة. سار المسلمون الذين يدخلون الكنيسة للمرّة الأولى في حياتهم، خلف نيفين ابنة الرعيّة، كما يسير المرء خلف دليل سياحيّ، وملأوا بعض المقاعد في مؤخّر الكنيسة. كان أحمد الغزال، الذي أغنته ساقه الاصطناعيّة عن العكّاز، يرتدي سترة فضفاضة، لا شكّ بأنّه استعارها من أحد أقربائه. كذلك بذل آخرون جهودًا للعثور على ملابس تليق بالمناسبة. أمّا ممدوح، رئيس النُدُل، فلم يكن بحاجة إلى تغيير ملابسه، لأنّ بزّته السوداء كانت ملائمة، حتّى ولو بدت ربطة عنقه الفراشيّة في غير محلّها وسط هذا الجمع الذي يلفّه الحداد.

تمثّل نزلاء مهرجان بالكونتيسة النمساويّة، التي أرغمتها آلام مفاصلها على البقاء جالسة، وبالسيّد

كرافيلو الذي اضطرّ إلى مفارقة كلبه. كذلك رافقهما زوجان تركيّان شابّان كانا يقومان برحلة شهر العسل، ربّما بداعي الفضول فقط، وقد استفادا من شغور مقعدين في سيّارة الفندق.

بعد القيام بعدّة رحلات مكّوكيّة بين الفندق والكنيسة، ركن أبو عمر السيّارة الزرقاء والبيضاء خلف سيّارة النعش، وفتح بابها الأماميّ. ثمّ جلس السائق العجوز على مقعده بوضع متعامد مع المقود، وساقاه خارج السيّارة، وراح يدخّن في صمت. هل عاد بالذاكرة إلى ربع قرن خلا، ليرى نفسه في سيّارة ال-«بويك» عينها، وكانت سوداء حينذاك، أمام الكنيس اليهوديّ في ناري؟ عند وفاة إيلي حنّور، في العام 1938، كان لا يزال حديث العهد في الوظيفة.

بامتلاء مقاعد الكنيسة، تجمّع حشد كبير في فنائها ومحيطها. أمّا في الداخل فقد رفعت بعض النساء أغطية رؤوسهنّ ورُحن يحرّكن مراوحهنّ. لبث الجميع ينتظرون الأسقف الذي لم يكن قد وصل بعد. بعد مرور ربع الساعة، بدأ الحضور يتبادلون الهمس، وما لبث الصمت أن تحوّل شيئًا فشيئًا إلى أحاديث، حتّى عمَّ الكنيسة ضجيج كبير.

لماذا لم يأتِ الأسقف بعد؟ كان الأرشمندريت الحائر يخطر في رواق الكنيسة ذهابًا وإيابًا، ممسِكًا بعصبيّة منديلًا يمسح به جبينه المتصبّب عرقًا أكثر من أيّ وقت مضى. لم يستطِع إيجاد تفسير لتأخّر رئيسه، إذ لم يتحدّث أحد عن هبوب عاصفة رمليّة، كما أنّ طريق الصحراء كان سالكًا.

أمر الأرشمندريت الجوقة بإنشاد ترتيلة. إذ أيقن بعدها أنّ الأسقف لم يصل، قرّر أن يرأس بمفرده صلاة الجنازة. تبادل الجالسون في الكنيسة نظرات التساؤل. أمسك الأرشمندريت بالمبخرة التي ناوله إيّاها أحد فتيان الخورس، وبحركات سريعة من يده، لفّ النعش بسحابة خانقة من البخور. بعد ذلك أنشد صلواته الأولى باللغة العربيّة، بصوت راعد عبر الميكروفون، وكأنّما يعبّر عن غضبه. هل كان يرفع صوته ضدّ غياب الأسقف؟ أو ضدّ قتلة لوقا؟ أو ضدّ السماء التي سمحت بارتكاب جريمة كهذه؟ راحت الجوقة التي أخذتها الحماسة تردّ على ابتهالاته بالنبرة العالية عينها. تنافس الطرفان في الصراخ، حتّى ضاع جمال الألحان وسط تلك الجلبة. كدت أعجز عن الوقوف على قدميّ، وكاد دمعي الغزير يخنقني.

بعد مرور عشرين دقيقة على البدء بمراسم الجنازة، وصلت سيّارة مسرعة إلى ساحة الكنيسة في سحابة من الغبار. علت الأصوات في الخلف، وتدافع الأشخاص المتجمّعون بقرب الباب للسماح بمرور الأسقف، يتبعه الدكتور حسنين وسط دهشة الحضور العارمة.

توقّف القدّاس فترة، للسماح للأسقف بارتداء ملابسه الكهنوتيّة في السكريستيا. راح المؤمنون يتساءلون عن هويّة مرافقه، الذي أخلي له مكان للجلوس في الصفّ الثالث من الرواق الأوسط.

عرفنا لاحقًا أنّ سيّارة الأسقف تعطّلت على مسافة 60 كيلومترًا من ناري. وقف سائقها عند حافّة الطريق يومئ لأوّل سيّارة مقبلة. لم تسعفه الشاحنة التي مرّت، فمقصورتها كان يشغلها ثلاثة ركّاب. بعد ربع الساعة، ولدى رؤيته السيّارة المعطّلة، كبح الدكتور حسنين فرامل سيّارته التي كان يقودها بسرعة كبيرة، وتوقّف على مسافة قصيرة منها، قبل أن يعود بسيّارته إلى الخلف.

– سأقلّك، قال الدكتور حسنين، الذي كان قد تخلّى عن زبائنه طيلة نصف نهار، للمشاركة في جنازة لوقا.

أثناء القدّاس، إسترقتُ نظرات عدّة باتّجاه الدكتور حسنين، الجالس ما خلفي، عند المقلب الثاني للرواق الأوسط. كان الطبيب ينظر من حوله، وشعرنا بأنّه غريب عن هذا الديكور وهذه الصلوات والترانيم... بعكس سعد عبد الحميد السيّد، الذي تلقّى تعليمه في مدرسة كاثوليكيّة. بالفعل، بدا سليلُ

النبيّ هنا في محيطه الطبيعيّ. أثارت جريمة مقتل لوقا لديه استهجانًا وغضبًا كبيرين، وقد نسبها إلى حال الانحطاط العامّ الذي أصاب مجتمعًا لم يعد يعرفه. حتّى أنّ البعض أكّد خبر دخوله، وقد انتابته سورة غضب، إلى مكتب المحافظ للتعبير بصوت عالٍ عن سخطه.

لكنّ الدكتور حسنين لم يكن ينتمي لا إلى عالم السيّد، ولا إلى جيله. كما أنّه ليس من الأشخاص الذين يفقدون السيطرة على أعصابهم. علمنا لاحقًا أنّه لم يتوسّع قطّ في الحديث مع الأسقف في السيّارة، حول مقتل لوقا. بل اكتفى بالقول برزانة:

– لقد كان رجلًا محترمًا. ما من كلمات قد تصف مَن قاموا بهذه الفعلة الشنيعة.

إستعاد الأسقف في عظته تينك الجملتين بحرفيّتهما، مضيفًا بصوت يليق بالمناسبة الحزينة:

– لقد خدم لوقا بلده بعمله، كما بالصفات الإنسانيّة التي يقرّ الجميع له بها. لم يكن يستحقّ الموت، وخصوصًا بهذه الصورة البشعة. حساب قاتليه عسير جدًّا أمام الله الكلّيّ القدرة.

بتعبير آخر، لم يكن الأسقف ليتوقّع الكثير من العدالة المحليّة...

لم أعد أجرؤ على أن ألتفِت ناحية الدكتور حسنين، فقد شعرت بأنّ نظراته تخترقني. ومع ذلك فهو يجهل وجودي بلا شكّ، إذ لم يباغتنا، لميا وأنا، أحد قطّ. لا هو ولا زوجته ولا أحد من أولاده الآخرين.

في نهاية القدّاس، انضمّ الطبيب إلى أهالي ناري لتقديم العزاء للعائلة واكتفى بأن قال لكلٍّ منّا العبارة التقليديّة «الله يرحمه». شدّ على يدي أنا أيضًا، مصافحًا إيّاي بقوّة. برغم النظّارة السوداء التي أخفت عينيّ، لم أجرؤ على مواجهة نظرته.

حين خرجنا من الكنيسة، كان هو في طريق العودة إلى العاصمة.

41

لا شكّ بأنّ المرشّحين كانوا كُثُرًا للحلول محلّ لوقا في إدارة مهرجان، غير أنّ المحافظ لم يدع لهم الوقت الكافي للتحرّك. فمساء يوم الجنازة نفسه، أعلن في بيان مقتضب وُزِّع على الجرائد وعُلِّق على باب الفندق، أنّ «الدكتور عزّ الدين بسيوني» سيصبح المدير الجديد للفندق. لم يكن لكلمة «دكتور» أيّة صلة بالطبّ، فاللقب يُمنح لكلّ حامل إجازة في التعليم العالي. طبعًا لا شيء يثبت أنّ مساعد المحافظ ارتاد جامعة ما، لكنّ أحدًا لن يكلّف نفسه عناء التحقّق من ذلك. السؤال الوحيد الذي ساور أهالي ناري هو ما إذا كان يجب اعتبار تعيين عزّ الدين ترقية أم إزاحة له من منصبه. ألم تكن وظيفة مساعدة حاكم المنطقة، ومشاركته كلّ صفقاته الدنيئة، أهمّ بكثير من إدارة فندق، ولو بشهرة مهرجان، فقد الكثير من مكانته على مرّ السنين؟

– لا يهمّني إذا ارتقى هذا اللصّ درجة أم هبط درجة، أجاب خالي حبيب ردًّا على سؤال أخرق طرحه أحد الجيران. وما النفع من ذلك؟

الواقع أنّ خالي حبيب تساءل عمّا إذا كان لذلك الرجل ذي الوجه الشبيه بالبوم، ضلع في جريمة قتل أخيه. فقبل أسبوعين من حلول المأساة، كان لوقا قد قال له:

– عزّ الدين يزداد جشعًا أكثر فأكثر. منحته في سبتمبر الزيادة التي طالب بها، لكنّني لن أتنازل هذه المرّة. قد تكلّفه لعبته الصغيرة كثيرًا إذا عرف رئيسه أنّه يأخذ منّي إتاوة بالسرّ.

أمّا أنا فاتّجهت تساؤلاتي نحو باسم، ابن المحافظ. أما سمعته يقول يومًا للوقا: «سأجعلك تدفع الثمن يا ابن الكلب!» ومع ذلك لا أحد يقتل مدير فندق لأنّه وبّخه بشدّة وطرده من مؤسّسته! لكنّني كنت أتذكّر أيضًا ملاحظة لوقا في شأن باسم: «أعرف عن ذلك الوغد أشياء ستكلّفه الكثير من المتاعب. وهو يعرف أنّني أعرف». ألعلّ باسم كلّف أحدهم بإسكات لوقا؟

بقيت فرضيّة ثالثة، وهي أن تكون الجريمة عمل مجموعة أصوليّة تعارض ملابس السباحة والمشروبات الكحوليّة، وأرادت أن تجعل من قتل لوقا عبرة. كانت تلك طريقة أولئك المتشدّدين باسم الدين، والذين باتت أيديهم ملطّخة بالكثير من الدماء.

كان بوسع الشرطة أن تنسب تلك الجريمة إلى أيّ شريد أو متسكّع، أو إلى أيّ مجرم مدان سابقًا تختاره كيفما اتّفق، بعدما تسحب منه الاعتراف تحت التعذيب. خشينا حدوث مكيدة من هذا النوع، قد تودي بإنسان بريء إلى حبل المشنقة. لكنّ الله الرحيم وفّر علينا مصيبة ثانية. بغياب الأدلّة، أُقفل ملفّ القضيّة بعد أشهر قليلة، واختفى كلّ ذكر لها عن صفحات الجرائد المحليّة.

لم يكد عزّ الدين يُعيَّن حتّى استلم طلبَيْ استقالة ييلينا ونيفين. لم تكن أيّ منهما لتتخيّل مواصلة العمل في مهرجان. ولم يبذل المدير الجديد أيّ مجهود لاستبقائهما، كما لم يوجّه إليهما كلمة لطيفة واحدة.

ما لبث ممدوح، رئيس النُدل، أن حذا حذوهما. فهذا الرجل المستقيم شعر بالاضطراب الشديد حين طلب منه عزّ الدين تزوير فواتير المطعم، بهدف تحصيل مداخيل إضافيّة، مضيفًا:

– ستنال عمولتك بالطبع.

قدّم رئيس الندل استقالته بذريعة تقدّمه في السنّ. كان تقاعده ليعفيه من تلطيخ يديه، ويسمح له بتحقيق حلم قديم، وهو الحجّ إلى مكّة.

أمّا أبو عمر فقد طرده وبكلّ بساطة «الدكتور» عزّ الدين، بحجّة أنّ فندق مهرجان لا يحتاج إلى

سائق عجوز ولا إلى سيّارة قديمة. بل سيكون للفندق حافلة صغيرة خاصّة، ولمديره سيّارة ألمانيّة، يقودهما سائقان شابّان وُظّفا براتب هزيل.

أمّا أنا، فوجب عليّ إخلاء المكتب الصغير الذي خصّصه لي لوقا. أدركتُ أنّني لن أجتاز عتبة مهرجان بعد اليوم. لكن، ألا يزال هذا الفندق فندق مهرجان؟ حملت معي السجلّ الذهبيّ الأوّل، وبعض ملفّات الأرشيف، من دون أن أشعر بأنّني أرتكب مخالفة. في ما بعد، تأكّد لي صوابُ ما فعلت. فكلّ المستندات الباقية انتهت في مكبّ للنفايات، لأنّ عزّ الدين لم يكن ليبالي بتاريخ مهرجان على الإطلاق.

42

أمضيتُ بعد ظهر بكامله وأنا أفرز وأرتّب، دامع العينين، أوراق لوقا الشخصيّة في شقّته، بناءً على طلب خالي حبيب.

كان لوقا قد جمع على مرّ السنين كمّية كبيرة من المستندات الإداريّة وقصاصات الجرائد والمنشورات الدعائيّة من كلّ نوع، والتي لن تفيد أحدًا في شيء. رميت ثلاثة أرباعها في أكياس النفايات الكبيرة، ولم أحتفظ إلّا بقيود الأحوال الشخصيّة، والكشوفات المصرفيّة والفواتير. كان في غرفة نومه درْج مقفل بالمفتاح، فاضطررت إلى خلع القفل لفتحه. لم يكن يحتوي إلّا على علبة من الحديد، ملأت نصفها الرسائل والصور.

لفتت انتباهي قصاصة أتى عليها الاصفرار، من جريدة «أخبار ناري» بتاريخ 13 سبتمبر 1937. فتحتها، فقرأت فيها تقريرًا عن زواج حاييم ليفي ونيسا حنّور، يحتلّ نحو صفحة بكاملها. ظهر في الصورة عددٌ من أعيان المدينة، بينهم رئيس مصرف الاعتماد الأشوريّ، والرئيس السابق لمستودعات الشرق. كانت السيّدات يعتمرنَ قبّعات جريئة، بعضها مزيّنة بضُمّات من الريش والأخرى شُكّت فيها ريشة واحدة.

من الواضح أنّ محرّر التقرير قد أعجبه الاحتفال الدينيّ، وبقدر أكبر، عشاء الزفاف، الذي دُعي إليه مئتا شخص في صالونات الفندق. كان دخول نيسا إلى الكنيس، وهي ترتدي فستانًا بذيل طويل من قماش التول الشفّاف والمزيّن بالنثار البرّاق، قد «أثار همسات الإعجاب». بحسب الطقوس اليهوديّة، وقفت أمام قبّة الأعراس، في انتظار أن يأتي حاييم ليفي ليغطّي وجهها بغلالة. «على العريس أن يغطّي بنفسه وجه عروسه تفاديًا لما لاقاه يعقوب من غشّ، حين زُفّت إليه ليا بدلًا من راحيل»، كما شرح الصحافيّ، كاتب التقرير، والذي بحث في المراجع التاريخيّة. وقد أضاف بعفويّة صارخة: «بالطبع كانت مجرَّد خطوة رمزيّة، فمن المستحيل الخلط بين الآنسة نيسا حنّور وأيّ شخص آخر».

لم يغِب عن المقالة أيُّ تفصيل من تفاصيل الاحتفال: قراءة عقد الزواج وتوقيعه، البركات السبع، تقاسُم كأس الخمر، الكأس التي يكسرها العريس بضربة من كعب حذائه... وأوضح الصحافيّ أنّها كانت «كأسًا من كريستال بوهيميا». لكنّ حفل الاستقبال في مهرجان هو الذي احتلّ الحيّز الأكبر من التقرير. أعدّ إيلي حنّور لابنته الوحيدة حفلة فخمة جدًّا، فموظّفو الفندق كلّهم استُنفروا قبل ثلاثة أسابيع، كما استُخدم موظّفون إضافيّون في المطبخ وفي المطعم. كانت مسالك الحديقة التي أضاءتها المشاعل، تقود المدعوّين إلى مآدب ممدودة في الهواء الطلق، حيث سالت الشمبانيا أنهارًا. كما واكب شلومو، الذي لم يكن يكفي للمهمّة الكبيرة، عازفا كمان، ونافخ بوق، وقارع طبل.

كانت تحفة العشاء كعكة زفاف من ستّ طبقات، على هيئة قلب، مزيّنة باللآلئ وبشلّال من الورود. هنا، لم يستطع الصحافيّ أن يلجم قلمه، فالعروسان الصغيران المصنوعان من السكّر واللذان توّجا تلك التحفة، يرمزان بالنسبة إليه، إلى «تحالف القطاعين المصرفيّ والفندقيّ»، أو أفضل، إلى «ازدهار ناري».

كما أشار خبر كتب داخل إطار، إلى أنّ فندق مهرجان، ولمناسبة هذا الزفاف، سيستبدل عربته الشهيرة ذات الحصانين «بسيّارة بويك سبيشيال من طراز 1936، ذات مكابح هيدروليكيّة ونظام تعليق أماميّ مستقلّ، تستطيع أن تبلغ سرعة 129 كلم/ساعة».

إحتوت تلك العلبة أيضًا على صور ورسائل عدّة. إحداها كانت قصيرة جدًّا ومن الواضح أنّها كُتِبت

على عجل، على ورقة ذات مربّعات صغيرة، انتُزعت من دفتر ذي شريط لولبيّ، وقد أضاف إليها لوقا التاريخ بقلم الرصاص: «الاثنين 13 يوليو 1936». آنذاك كان لوقا في العشرين من العمر، وقد تولّى حديثًا إحدى المهمّات في قسم التسليم لدى مستودعات الشرق. تلك كانت وظيفته الأولى.

الاثنين، الساعة 18:30

لوقا،

ما قمتَ به عمل جنونيّ! لا شكّ بأنّ القرطَين كلّفاك ثروة. لو أخبرتني قبل أن تقصد بائع المجوهرات في شارع الفنار، لما سمحتُ لك بابتياعهما. لكنّني أعشق هاتين اللؤلؤتين البيضاوين! سأضعهما هذا المساء. لا شكّ بأنّ أمّي ستراهما، وتسألني عنهما. يجب أن أختلق لها رواية. سأجد ما أقوله...

يمكنني أن أقابلك غدًا في أولى ساعات بعد الظهر، ولكن ليس لوقت طويل، للأسف. هلّا التقينا عند الساعة الثالثة، خلف الحصن؟ لن يصعب عليك أن تتعرّف عليّ: سأضع قرطين أبيضين يلتمعان ببريق فضّي رائع!

ألف قبلة.

نيسا

تذكُّرت مشهد رحيل اليهود عن ناري. صباح ذلك اليوم، مرّت قافلة المسافرين المطرودين أمامنا على رصيف المرفأ. كنت واقفًا بالقرب من لوقا، أمسك بيده. كانت نيسا ليفي-حنّور ترتدي فستانًا أخضر وتعتمر قبّعة بيضاء، يتناسب لونها ولون حذائها ذي الكعب العالي. حين باتت بمحاذاتي، استدارت نحوي وبدا أنّها توّقفت لبرهة من الوقت. الآن فهمت: لستُ أنا مَن كانت تبحث عنه، وبل أتذكّر حينذاك أنّ لوقا ارتعش.

في العلبة صورة يعود تاريخها إلى العام نفسه، ويظهر فيها لوقا ونيسا متعانقين، ومشرقَيْ الوجه. خلفهما البرج الغربيّ للحصن، نصف المهدّم. كانا يشبهان شابًّا وفتاة في مقتبل العمر، في المشهد الأخير من فيلم أميركيّ، حين تظهر على الشاشة كلمة «النهاية».

سوف يقول لي شلومو، صاحب الصورة، بعد سنوات:

– كانا أجمل شابّ وفتاة في ناري.

في الحقبة التي التُقِطتْ خلالها تلك الصورة، كان شلومو قد وجد وظيفة عازف بيانو في مهرجان، بفضل توصية من لوقا، رفيقه السابق في الصفّ.

– نعم، كانا أجمل شابّ وفتاة في ناري، مع أنّ أحدًا تقريبًا لم يشاهدهما معًا. لم يكن الكثيرون منّا على علم بهذا الحبّ، الذي جهلت العائلتان أمره. أقول «الحبّ»، لكنّ الكلمة ضعيفة جدًّا. كان كلٌّ منهما هائمًا بالآخر.

وجدتُ في العلبة رسالة أخرى من نيسا تحمل تاريخ 16 مايو 1937. كانت كلّ فاصلة واردة فيها مزيّنة بدقّة. تلك الورقة الأنيقة والتي تحمل «ميم» مهرجان، بدت شبه ممزّقة عند طيّاتها، وكأنّ مَن أرسلت إليه قد قرأها ثمّ طواها مئات المرّات.

لوقا،

أكتب إليك لأنّني لم أملك القوّة أوّل أمس لأقولها لك وجهًا لوجه. وفي الواقع لا أملك حتى القوّة لكتابتها.

بعدما فكّرت طويلًا – وبكيتُ طويلًا – قرّرت الإذعان للمنطق. عاد أبي ليلحّ عليّ هذا الصباح، فأبلغته موافقتي على الزواج. بالنسبة إليه، المسألة مفروغ منها. حتّى أنّه حدّد الموعد: سأتزوّج حاييم ليفي يوم 12 سبتمبر المقبل.

إنّه شابّ مستقيم ومحبّ. لا أشكّ بمشاعره. وقد اعترف لي بكثير من اللباقة بأنّه يحبّني منذ سنوات. آمل أن أجد السعادة معه. كما آمل أن تجد، أنت أيضًا، فتاة من طائفتك تستحقّك وتعرف كيف تمنحك السعادة التي أتمنّاها لك من عمق أعماق قلبي.

هكذا هو الأمر يا لوقا، ولا نستطيع شيئًا حياله. في عالمنا هذا حواجز لا يمكن تجاوزها من دون جراح مؤلمة. لا أستطيع التسبّب بجراح كهذه لوالديّ، وأظنّنا لن ننجو من تلك الجراح إذا ما تجاهلنا تلك الحواجز، كما أردتَنا أن نفعل، ولو عاندنا الأرض كلّها.

لن أكتب إليك بعد اليوم يا لوقا، إخلاصًا منّي لزوجي المستقبليّ، والذي لا أرغب في أن أخفي عنه شيئًا. أعتقد أنّ من الحكمة ألّا نتلاقى بعد اليوم. ستتفهّم ذلك من دون شكّ. لكنّني لن أنسى أبدًا الشغف الذي عرفته في العامين المنصرمين، معك، وبفضلك. شغف كهذا لا يمكن أن يُمحى.

باركك الله!

نيسا

– في يوليو العام 1937، رأيت صاعقة تهبط على رأس لوقا، قال لي شلومو في ما بعد. إفصاح نيسا عن عزمها على الزواج قضى عليه تمامًا. فقد كلّ رغبة، ولم يعد يأكل تقريبًا. كان الأمر مثيرًا للقلق. إنّما، بعد فترة من الوقت، استبدّت به الشراهة. أتذكّر أنّه راح يأكل بسرعة ونهم، يلتهم الكثير من الحلويات، يسرف في الشراب، ويهمل ملابسه. لستُ عالمًا نفسانيًّا، لكنّني أتخيّل أنّ سلوكه هذا يعني شيئًا من قبيل: بما أنّ أحدًا لا يريدني، فلأنّني لا أعجب أحدًا ولا أساوي شيئًا... دفعه حزنه إلى الاستخفاف بقيمته. في النهاية، عادت إليه الرغبة في الحياة، واستعاد لحظات الغبطة حيث كان يفيض أفكارًا، ويبدو كلّ شيء ممكنًا. لكنّ الألم كان ليعاود الظهور، بين الفينة والأخرى، من دون علمه. كلمة واحدة كانت تستطيع أن تصيبه في أعماقه.

وجدت بين أغراض لوقا نسخة من رواية «ناريبوليس»، استُهلك غلافها بعض الشيء. لواضح أنّه لم يشترِ تلك الرواية ليزيّن بها رفوف المكتبة: فقد رأيت في داخلها تعليقات كثيرة كتبت بقلم الرصاص، أو مذيَّلة بعلامات استفهام أو تعجُّب. كان موضوع تلك التعليقات مغالطات زمنيّة أو عدم دقّة في الوصف، ولكنّ أغلب ما تناولته كان الحبّ البريء وغير المُعلن بين صموئيل وحنان.

بالنسبة إلى شلومو، لم يكن من مجال للشكّ:

– لقد استلهم فورينبيك قصّة حبّ لوقا ونيسا. كان ذلك البلجيكيّ فضوليّ إلى حدّ الإزعاج. ذات مساء، فاجأهما عند شاطئ البحر بالقرب من الحصن، والواحد يُمسك بيد الأخر. ولمّا علم لاحقًا أنّني عازف البيانو في مهرجان، اتّجه صوبي أمام دكّان الحلّاق في شارع الفنار، واقترح عليّ شرب كأس في مقهى دميانوس... لا، أخطأت. لم يكن مقهى دميانوس موجودًا آنذاك... أترى إلى أيّ حدّ أثّرت فينا تلك الرواية؟! دعاني فورينبيك إلى كأس ويسكي في مقهى أنطونياديس، وتحادثنا في أمور شتّى. قال لي أنّه كثير السفر، وأنّ الصدفة هي التي قادته إلى ناري، ليقيم في نزل قريب من المرفأ. إسمه «نزل أميرة» كما أعتقد... أدهشتني سعة معرفته في الموسيقى. كان الرجل عاشق موسيقى، ويستطيع التعليق على أيّة مقطوعة، من موزار إلى الجاز! طرح عليّ أسئلة كثيرة تتعلّق بمدينة ناري، ومهرجان، وعائلة ليفي-حنّور. لم أكن أعلم أنّه يستعدّ لكتابة رواية. لعلّه هو نفسه كان يجهل ذلك حينئذٍ.

43

نجح موت لوقا المأساويّ في إقناع والديَّ بأنّ هذا البلد لم يعد لأمثالنا. أدركا مصيبتنا المزدوجة: أن نكون من غير المسلمين، وأن نتطلّع إلى أوروبا. لكنّ الأمرين لم يكونا بالخطورة عينها – عددٌ من المسلمين، بدءًا بالسيّد، سليل النبيّ، كان ليشاطرنا شغفنا بالثقافة الفرنسيّة – بيْدَ أنّهما إذا ما اجتمعا، حَكَما علينا، عاجلًا أم آجلًا، إمّا بالنفي أو بالتخلّي عن تطلّعات كثيرة.

كنّا بحاجة إلى تأشيرات خروج لمغادرة البلد، ومن الصعب جدًّا الحصول عليها. لقد دفع خالي فايز ثمنًا باهظًا فاستطاع الرحيل مع عائلته. لكنّ أبي سعى إلى إيجاد طريقة أقلّ تكلفة. إستدلّ إلى أحد المسؤولين في مجلس المحافظة، والتقاه سرًّا. على أن يتقاسم الرجل عمولته وأحدَ كبار الموظّفين الحكوميّين في العاصمة.

سبقني شقيقي الأكبر في السفر، وكان يفترض بي اللحاق به، لكنّني لم أستطع أن أحزم أمري. لم أكن أطيق فكرة أن أترك لميا. هل أتخلّى، كما فعل لوقا، عن الفتاة التي أحبّها، وأدفع الثمن عذابًا طوال حياتي؟ آنذاك، لم يكن لوقا ليملك الخيار، لأنّ نيسا وضعته أمام الأمر الواقع. ومع ذلك فإنَّ حالي أسوأ من حاله. إذا كان زواج مسيحيّ بيهوديّة لينتهك معايير طائفتين من الأقلّيات، فمجرّد قيام علاقة بين مسيحيّ ومسلمة، يقود مباشرةً إلى السجن.

أمّا العكس فلم يكن صحيحًا. في نظر القانون، يستطيع المسلم الزواج بمسيحيّة، بدون تلقّي أيّ لوم. لكنّ مَن يعاني الأكثر جرّاء ذلك هو عائلة الفتاة ومحيطها فيتساءلون: هل الحبّ هو ما دفعها إلى الزواج، ألن تضطرّ إلى إخفاء إيمانها،... ويرثون لحال أولادها في المستقبل إذ يضطرّون إلى اعتناق ديانة أخرى. قد عرفنا في ناري ثلاث عائلات على الأقلّ ممّن يعيشون هذا الواقع.

– المسكينة! كانت أمّي تقول بأسى حين تتحدّث عن نسيبة لها تزوّجت بمسلم ثريّ.

في الواقع، لم يكن الزواج بلميا عائقًا يستحيل تجاوزه. يكفيني أن أعتنق الإسلام، فتُحلّ المشكلة في غضون دقائق.

لم يكن في محيطي سوى مثال واحد أستطيع الرجوع إليه. هو أحد الجيران الذي تزوّج قبل عشر سنوات بمسلمة. حينذاك، انقطع الجميع عن محادثته، واضطرّ إلى الانتقال من منزله. رُسمت لذلك الرجل صورة الخائن الذي ارتدّ عن إيمانه مقابل كيس من الذهب.

قبل أن أتعرّف بلميا، صدمني أنا أيضًا موقف هذا المنبوذ، أو تحديدًا كلّ ما سمعته عنه. لم أتخيّلني قطّ في وضع مشابه. أمّا الآن، فقد بدا أمر اعتناقي الإسلام محتومًا. سأتّخذ لنفسي اسمًا مسلمًا و«أشهد أن لا إله إلّا الله» و«أشهد أنّ محمّدًا رسول الله» وألتزم بقدر استطاعتي بتعاليم القرآن، وأمارس الصيام في شهر رمضان. الحقيقة أنّني وبعدما قرّرت أن أقوم بالخطوة، لم أعد أفكّر في كلّ تلك التفاصيل. وحدها لميا كانت تهمّني. سأثير استهجان محيطي، وأنقطع عن طائفتي، لكنّني سأعيش معها في العلن.

حينما أطلعتُ أبي على قراري، امتقع وجهه وأخذ يصرخ. لم يسبق لي أن رأيته في مثل تلك الحال. لم يكن ليفهم كيف أرفض تأشيرة الخروج التي جهد ليستحصل عليها من أجلي. ليس الغضب ما كنت أقرأه في وجهه بل الخوف. خوف عائليّ قديم، ورثه عن والديه، اللذين ورثاه عن كلّ مواطني الفئة الثانية الذين شغلوا فروع شجرة العائلة منذ أجيال.

– لا تتصرّف كالأطفال! صاح بي. هل ترى نفسك في مسجد؟ حتّى ولو اعتنقت الإسلام، لا سمح

الله، من قال لك إنّ الدكتور حسنين يوافق على تزويجك بابنته؟ تأكّد من أنّه رسم لها خططًا أخرى! لا ينقصها عرسان جادّون. مقارنةً بهم، ما قيمة فتى في التاسعة عشرة؟ ما زال عليك أن تنال شهادة جامعيّة، وأن تُنهي خدمتك العسكريّة الإلزاميّة، وأن تجد وظيفة لائقة...

ثمّ تابع يقول بنبرة أكثر جدّية:

– عاجلًا أم آجلًا، كلّ الشبّان المسيحيّين سيرحلون. تريد البقاءَ هنا؟ من أجل ماذا؟ لحراسة قبور أجدادنا؟ حارس القبور... يا للصورة الجميلة، بشرفي! ولا تنسَ ما يعني البقاء: بعد الجامعة، الخدمة العسكريّة. نعم، انتهى زمن الإعفاء من الخدمة. الجيش بحاجة إلى رجال. أتريد قضاء عامين أو ثلاثة في جحيم الثكنات؟ أتعرف ما معنى الخدمة العسكريّة، خصوصًا حين يحمل المرء اسمًا مسيحيًّا؟ الإهانات، والإذلال، والمضايقات... هل أنت مستعدّ لذلك؟ فكّر مليًّا. ستخسر كلّ شيء. تأشيرة الخروج هذه هي فرصتك الأخيرة.

ثمّ أضاف بصوت واهن ومرتعش أثار اضطرابي:

– أرجوك، فكّر جيِّدا، أتوسّل إليك!

لكنّني كنت مستعدًّا لكلّ شيء وأيّ شيء كي أعيش مع لميا. كانت تقيم آنذاك مع عائلتها على مسافة مئتَي كيلومتر من ناري، ولا تستطيع الاتّصال بي سوى من مكتب بريد، في غفلة من والديها. في لقائنا الأخير، قلت لها إنّني سأبقى، ومن غير الوارد أن أتركها. بدأت بالبكاء، ثمّ قالت والدموع تنصبّ من عينيها:

– هذا ما أردت سماعه... لكن، عليك الرحيل.

إعترضتُ بقوّة، لكنّها أضافت:

– نعم، سترحل. وسأتدبّر أمري للّحاق بك.

دام السلام الداخليّ، لكي لا أقول الغبطة، الذي منحني إيّاه ذلك الوعد ستّة أو سبعة أيّام. رحت أرسم في ذهني خططًا غير واقعيّة، من دون أن أعرف شيئًا حول ظروف العيش في باريس، حيث اتّفقنا على اللقاء. تمّ شراء تذكرة سفري، وعُيِّن موعد انطلاق المركب. ثمّ بدأ الشكّ يخامرني، ورحت أنظر بمنظار جديد إلى والديّ وأصدقائي الذين كانوا يتمنّون لي الحظّ السعيد بصوت مفعم بالحزن. إكتشفت لدى كلّ منهم صفات فاتني اكتشافها من قبل. تلك المصافحات، والعناقات، والحركات العاطفية... وكأنّ كثيرًا من الحبّ الخفيّ ظهر فجأة إلى العلن.

مع مرور الأيّام، تزايد شعوري بالضيق. واقتنعت شيئًا فشيئًا بأنّني أخطأت الاختيار. أضيفَ إلى ذلك شعور مبهم بالذنب، وانطباع التخلّي عن موطني، والانحناء أمام حواجز دينيّة عبثيّة، وإدارة ظهري لرُفات لوقا... ذات ليلة، شاهدت في حلمي ذلك المنفى المخطّط له، وكأنّه كابوس. في الصباح، فتحت عينيّ مدركًا بكثير من الارتياح أنّه لم يكن سوى حلم. لكنّ الحقيقة الحزينة ما لبثت أن عادت إليّ فوقعتُ في حالٍ يشبه الاكتئاب.

ألم يكن ممكنًا إيقاف الزمن، والعودة لأسابيع قليلة إلى الوراء؟ كدت أتمنّى حدوث كارثة – حريق أو زلزال – يعيد النظر في كلّ شيء.

كم كانت كبيرة دهشة طارق، رفيقي الفارس القديم، والذي لم أرَه منذ عامين. سألني:

– أحقًّا سترحل؟ هل الأمر جدّيّ؟

وجد إجابته في ملامحي المهزومة. لتخفيف التشنّج، لجأ إلى دعابة عن شبق الباريسيّات. أرغمت نفسي على الابتسام واعدًا إيّاه بإرسال تقرير مفصّل عن ذلك. ربّت بحركة ودّية على كتفي، كان لها وقع الوداع.

في أحاديثنا الهاتفيّة النادرة، لم أجرؤ على الاعتراف بحزني للميا. أمّا الشخص الوحيد الذي كنت لأُسِرّ إليه بمكنونات قلبي، فقد رحل عن هذا العالم. هل كان لوقا ليشجّعني على الرحيل؟ لم يكن يفهم موقف الناس الذين ينفون أنفسهم، بل كان يسعى إلى ثنيهم عن الرحيل. وذلك كان الموقف المشترك الوحيد بينه وبين الأرشمندريت...

هذه المرّة، على الرصيف، لم أكن وسط حشد المتفرّجين، بل في صفّ المسافرين الذين يهمّون بركوب السفينة. أتت العائلة كلّها لوداعي. حتّى عمّتي مريم، وفي لحظة صفاء، أرادت أن تأتي لوداعي. فور وصولها إلى الرصيف، بادرتني:

– أين لوقا؟ لست أراه.

همستْ لها شقيقاتها ببعض الكلمات التي جعلتها تهزّ برأسها علامة الموافقة. كانت بلا منازع، الأقلّ تعاسةً بيننا جميعًا.

وقفتُ بقدمين مرتعشتين، متّكئا إلى حاجز السفينة ومنتظرًا الرحيل. برغم قراري، لم أستطع منع نفسي من الالتفات ناحية مهرجان؛ لمجرّد التفكير بعزّ الدين الكريه جالسًا في كرسيّ لوقا، انتابني الغثيان.

رماني الأهل والأصدقاء المتجمّعون على الرصيف بسيل زاعق من النصائح غير المفهومة. رحت أوجّه إليهم ابتسامات وحركات مرتبكة. في النهاية، وضَع دويّ الصفّارة الطويل حدًّا لهذا العذاب، واهتزّت سفينة «جينوفا». في الأسفل، أخذت المناديل تتمايل كأنّها لاءات كبيرة. إبتعد المركب ببطء. كنت قد وعدت نفسي بألّا أنظر إلى الوراء، وهذه المرّة، وفيت بوعدي.

44

لم تلحق بي لميا قطّ. شيئًا فشيئًا تراجعت وتيرة رسائلها. كما أنّني رحتُ أبتعد عنها تدريجًا بعدما خطفني إعصار الحياة الطلّابية في باريس.

أتعجّب الآن، بعد انقضاء السنوات، من أن تكون علاقة الشغف الجارفة تلك، قد انتهت بهذه السهولة. لا شكّ بأنّني كنت أحتاج إلى أن أقلب صفحة ناري نهائيًّا من حياتي، وأنسى اللحظات المؤلمة ومشاعر الفرح الجامحة على حدّ سواء.

أتساءل عمّا إذا فكّرت لميا جديًّا في أن تقطع علاقتها بعائلتها وتلحق بي. لعلّها رأت ذلك مستحيلًا، ولم تقلْه إلّا لتشجيعي على الرحيل.

قبل ربع قرن، كانت نيسا قد اختارت هي أيضًا طريق العقل. لكنّ التاريخ لم يكرّر نفسه بدقّة. فلميا وأنا لم نكد نخرج من عمر الطفولة، وكان حبّنا حبّ إجازة صيفيّة. أمّا لوقا فقد رأى امرأة حياته تتزوّج برجل آخر وتواصل العيش في ناري، تحت أنظاره. في المحصّلة، يمكنني القول بأنّني نجوتُ من تجربة شاقّة. رماني منفاي الأوروبيّ في عالم جديد، غصت فيه بشغف، من دون الالتفات إلى الوراء. كنتُ كأولئك الفلّاحين الأتقياء، والذين يُرغمون على السكن في المدينة، فيفقدون إيمانهم لحظة يترجّلون من القطار.

قد يحدث طبعًا أن أفكّر في لميا فتغمرني فجأةً موجة من التعاسة. هل ستتزوّج وتسلّم جسدها إلى جار أو نسيب، فينجب منها كوكبة من الأطفال؟ هل سيزداد وزنها، وتسمن، وتضحّي بحريّتها، شأن نساء كثيرات هناك؟ لطرد تلك الصور من ذهني، كنتُ أقفز درجات السلالم أربعًا أربعًا، وأركض كيلومترات، وأسبح حتّى انقطاع النفس، وأندفع بجنون في أيّ نشاط جسديّ، كي أنسى لميا، وأنسى ناري.

نجح ذلك لبضع سنوات. لكن، في سنوات العقد التالي، كلّ رسالة تردني من خالي حبيب كانت لتوقظ فيّ الذكريات وتعود بي إلى مدينة طفولتي. لا بدّ من القول إنّ حبيب كان يكتب بكثير من الموهبة والفكاهة، ما لم أتخيّله ممكنًا من موظّف مستودعات أمضى نصف حياته المهنيّة في كتابة قسائم التخزين، والنصف الآخر في ملء قسائم الطلبيّات.

سار الاقتصاد الوطنيّ في طريق الليبراليّة. ولئن بقيت وسائل الإعلام خاضعة لإشراف مشدّد من قبل السلطة، فإنّ البريد لم يعد خاضعًا للرقابة. وما جدوى الرقابة بعدما بات بإمكان أيّ مواطن التقاط عشرات محطّات التلفزة الأجنبيّة؟ بات خالي حبيب يزوّدنا في رسائله بأخبار ناري، من دون أيّة مخاطرة.

كرّست انتصارات إسرائيل في العام 1967، سقوط مبدأ العروبة الجامعة، الذي تخلّى عنه الكثير من مواطنينا ليحلموا بأمّة إسلاميّة كبرى. جهد واعظون دينيّون في إقناعهم بأنّ الهزيمة العسكريّة كانت قصاصًا إلهيًّا. كما أغدقت المملكة العربيّة السعوديّة البترودولارات لتمويل المساجد والمدارس والجمعيّات الأصوليّة. بات الدين يحتلّ حيِّزا متعاظمًا في الحياة اليوميّة، وتزايدت أعداد المنقّبات والمحجَّبات. غالبًا ما كانت الفتيات اليافعات مَن يبادرن إلى ارتداء الحجاب، ويشجّعن أمّهاتهنّ على أن يحذونَ حذوهنَّ. في بعض الأحياء، بات اللباس يكفي لتمييز المرأة المسيحيّة من المسلمة، ما أعاد البلد قرنين إلى الوراء. أمّا الرجال الأشدّ تقوى، أو الساعون إلى الظهور بمظهر التقوى، فظهرت زبيبة الصلاة السمراء على جباههم، نتيجة الإكثار من إلصاق الجبين بالأرض أثناء السجود.

لاحظ خالي حبيب، بعبارات لا تخلو من الأسى:

لم يعد الاحترام الجدير يُقاس بمستوى الثقافة، أو الجهد في العمل، أو حبّ الوطن، بل بطريقة تطبيق مبادئ الشريعة الإسلاميّة. لقد تغيّر اتّجاه الريح، وأدركت السلطة ذلك، فلجأت إلى المزايدة. وأمّا المقياس الأفضل للمناخ السائد في العاصمة فهو: المحافظ. ذلك الرجل السمين والفاسد، عاشق الويسكي، حجّ إلى مكّة ثلاث مرّات متتالية، ويُقال إنّه لا يحلم إلّا بالعودة إليها. لم يعُدْ ذلك لينمّ عن ورع، بل عن حماسة دينيّة تبلغ حدّ الجنون. ظهرت صوره في الجرائد بالصندل، وصدره نصف مغطّى باللباس الأبيض، ولحمه يتدلّى منه. لكنّنا لا نستطيع أن نتخيّله قادرًا على تلاوة صلوات التوبة، أو الدوران حول الكعبة سبع مرّات، أو السير بين هضبتين صغيرتين، كما يقتضيه إتمام المناسك. وتؤكّد إحدى الجرائد أنّ سعادته يصوم يومًا في الأسبوع، متجاوزًا تعاليم القرآن. لكن، من غير الممكن التحقّق من تلك المعلومة، وهذا ما يطلق العنان لسيل من الدعابات: وجهه المنتفخ وشكله الذي يزداد اكتنازًا خير دليل على فوائد الامتناع عن الطعام...

إرتسمت زبيبة على جبين المحافظ. واستنتج المتهكّمون أنّه أمضى وقتًا طويلًا في حكّ رأسه بحجر خفّان. في النهاية، أصيب بالتهاب بالغ غطّى نصف جبينه. كتب حبيب يقول: «لم تعد تلك بزبيبة، بل تينة مهترئة».

في الربيع التالي أعلنت السلطات عن منع الفنادق والمطاعم من تقديم المشروبات الكحوليّة لغير السيّاح الأجانب. أي أنّ المسيحيّين حتّى من أهل البلد حُرموا من ذلك أيضًا.

كان سعد عبد الحميد السيّد أوّل من استنكروا ذلك التدبير العبثيّ. ظلّ يطالب علنًا بكأس البوربون الخاصّ به، ولم يكن موظّفو البار في مهرجان يجرؤون على الامتناع عن تقديمه إليه. لكنّ امتياز التحدّر من سلالة النبيّ لم يكُنْ متاحًا للجميع. فابتُكرت ألف وسيلة للتحايل على القواعد الجديدة، وباتت المشروبات المحظورة تُقدَّم في أباريق الشاي، أو زجاجات المشروبات الغازيّة، لتسكب في فناجين أو كؤوس غير شفّافة. ومع ذلك كان يجب الحذر من بعض النُدل، المشتبه في كونهم أصوليّين أو مُخبرين. على الأرجح، قد اخترق هؤلاء أيضًا معظم أقسام الشرطة.

ذات صباح، فوجئ تجّار مسيحيّون في شارع الفنار بصلبان مرسومة على عجل، على واجهات متاجرهم أو مصاريع أبوابها. هل كان المقصود بذلك وسم تلك المتاجر تمهيدًا للاعتداء عليها، أم أنّ المقصود كان الإيعاز إلى المسيحيين بأنْ لا مكان لهم على أرض مسلمة؟ فُتح تحقيق في الأمر، لكنّه لم يصل إلى أيّة نتيجة.

أمر المحافظ بتسيير دوريّة ليليّة، قامت بها سيّارتا شرطة. لكنّ ذلك لم يمنع من ظهور صلبان جديدة، وهذه المرّة بالقرب من المرفأ.

بيد أنّ أمرًا أخطر قد حدث. سرت شائعات عن عمليّات خطف في القرى الواقعة جنوب العاصمة. قام متعصّبون باختطاف فتيات مسيحيّات، وإرغامهنّ على اعتناق الإسلام، ثمّ تزويجهنّ عنوةً برجال مسلمين. بناءً على أوامر السلطات، امتنعت الصحف عن نقل تلك الأخبار، أو أشارت إليها بأسلوب تضليليّ. ذلك لأنّ السلطات أنكرت الطابع الطائفيّ لأعمال العنف تلك، وبل صوّرتها على أنّها نزاعات بين قرى متجاورة. شعر المسيحيّون بأنّهم لا يتمتّعون بحماية الشرطة ولا القضاء، وكلاهما متحيّز. كتب خالي حبيب منذرًا بالخطر: «لم نعد حتّى أهل ذمّة».

45

في ربيع العام 1970، وكان لي من العمر خمسة وعشرون عامًا، شعرتُ فجأةً بالرغبة في إعادة تكوين تاريخ مهرجان، وساورتني فكرة مبهمة بنشر كتّيب عنه. أو لعلّها لم تكن سوى ذريعة للقاء مالكي الفندق القدامى.

لم أجد صعوبة في تعقّب أثر السيّد مالوميان. كان الأرمنيّ يدير وكالة سمسرة عقاريّة معروفة في باريس، وغالبًا ما يرد ذكره وزوجته في زاوية أخبار أهل المجتمع في المجلّات التي أتصفحّها لدى الحلّاق.

– موضوع شخصيّ، قلت لسكرتيرته التي ردّت على الهاتف.

عرُّفت مالوميان بنفسي، بصفتي ابن شقيقة لوقا. أجابني بحذر من دون أن يفهم ما أريد منه. لكن، حين ألمحتُ إلى مستندات بحوزتي وتعود لفندق مهرجان، رقّت نبرة صوته، وضرب لي موعدًا في منزله في نويي.

فتح لي الخادم الباب، ثمّ انضمّت إليه السيّدة مالوميان. إحتجتُ إلى عدّة ثوانٍ للتعرّف إليها. كان شعرها مصبوغًا بالأشقر، تبرّجها صارخًا، وترتدي فستانًا لصيقًا بجسمها على نحو مبالغ به. كان مقوَّرا في قسمه الأعلى، يزيّنه مشبك متألّق. كما تشابكت حول معصميها أساور ذهبيّة عدّة.

– زوجي يجري مكالمة هاتفيّة، قالت. لكنّه سيوافيكَ بعد دقائق إلى الصالون. تفضّل. من هنا.

كان ديكور تلك القاعة الكبيرة مفرطًا تمامًا كزينة سيّدة المنزل، بسجّاده الثقيل، وأثاثه الضخم، ولوحاته الكثيرة وتحفه التي لا تحصى.

لم يتأخّر السيّد مالوميان في الظهور. ذلك الرجل القصير القامة والمنتفخ البطن لم يتغيّر. مدّ لي يدًا سميكة يعلوها شعر أسود، ويلتمع فيها خاتم مرصّع بماسّة.

– مسكين خالك... يا لها من قصّة! يا لها من قصّة حزينة! والقول إنّ... تفضّل بالجلوس. هات مستنداتك.

من الواضح أنّه كان يتحرّق إلى معرفة طبيعة تلك المستندات.

– نعم، خالك المسكين... أعترف بأنّني لم أتوقّع أن يتولّى إدارة مهرجان بعد رحيلي... دأب غالبًا على زيارتي في مكتبي في الطابق الأوسط، خلال فترة عملي محاسبًا للفندق. كان فتى محبَّبا، يحمل في جعبته روايات كثيرة، لكنّها لم تكن دائمًا صحيحة. حكواتيّ حقيقيّ. كان يأتي عبر باب المورِّدين. تعجُّبت لذلك أكثر من مرّة، مقترحًا عليه الدخول عبر المدخل الرئيسيّ. كان يكفيه أن يقول إنّ بيننا موعدًا، ليتّصل بي السيّد ألكس موظّف الاستقبال ويدعه يمرّ بدون مشاكل. لكنّ لوقا دأب على اختيار باب الخدمة، وكأنّه أراد ألّا يلمحه أحد في الفندق. لم يرد أن يُرى، وفي الوقت عينه كان بحاجة إلى المجيء إلى الفندق. أليس ذلك غريبًا؟ كان يطرح عليّ أسئلة كثيرة تتعلّق بفندق مهرجان، لكنّني أعترف بأنّني عرفت بفضله تفاصيل أجهلها حول تاريخ المؤسّسة. أين اكتشف ذلك كلّه؟ نعم، كان ذلك الرجل كوكالة أنباء متجوِّلة... أتذكّر أنّه كان يصف السيّد ليفي-حنّور بكلمات قاسية جدًّا تُحرجني. وكأنّه يحمل ضدّه حقدًا شخصيًّا...

حين ذكرتُ حادثة رحيله الصاخب عن ناري، قهقه عاليًا.

– لقد خدعتَهم حقّا! قلت له. أن تلفّ ذراعك بالجصّ ثلاث مرّات...

– لم يكن هناك من مرّة ثالثة.

نظرتُ إليه بعينين جاحظتين.

– لكنّك قلتَ ذلك بنفسك في رسالتك للمحافظ يا سيّد مالوميان! لم تجرؤ «أخبار ناري» على نشر رسالتك، لكنّ المدينة كلّها حفظتها غيبًا. أتذكّر كلماتها جيِّدا...

رمقني الأرمنيّ بسخرية وهو يسفط سيجاره. ولمّا لم يقل شيئًا، استعدتُ الحكاية من البداية.

– في اليوم الأوّل، تقدَّمت إلى مركز الجمارك وذراعك ملفوفة بالجصّ، وهذا ما أثار الشكوك.

– صحيح.

– منعوك من السفر، وأرسلوك إلى المستشفى العسكريّ، حيث كُسر الجصّ.

– تمامًا.

– لم يجدوا شيئًا بداخله، فأعادوا لفّ ذراعك بالجصّ، مع الاعتذار.

– نعم. مع أنّه كان بوسعهم الاعتذار بطريقة أفضل...

– حسنًا. بعدها بيومين، حين ذهبت إلى المرفأ من جديد، كانت ذراعك ملفوفة بالجصّ من جديد، لكنّه لم يكن ذلك الذي استعمل في المستشفى العسكريّ. فقد أتى الدكتور زيتون، بالتواطؤ معك، إلى فندق مهرجان سرًّا في الليل، لنزع الجصّ الثاني واستبداله بثالث يحتوي الماسّات.

أرجع مالوميان رأسه إلى الخلف، وبنظرة ضاحكة، راح ينفث دوائر الدخان باتّجاه السقف، وقال:

– لم تفهم شيئًا. في البداية، لقد انكسر زندي فعلًا، جرّاء سقطة غبيّة وأنا أخرج من المغطس. لا شكّ بأنّ انفعال الرحيل سبّب ذلك... أمّا زيتون فلا أرى صلته بهذه القضيّة. ذلك الطبيب الطيّب كان جبانًا لا مثيل له، إذا رأى قطرة دم، تملّكه ذعر شديد. أتساءل حتّى كيف تعلّم الطبّ. أن يأتي ليفكّ الجصّ عن ذراعي ثمّ يلفّها بآخر جديد سرًّا؟ ما كان ليجازف بذلك أبدًا، ولو مقابل كلّ ماس العالم! هل تتخيّله يدخل مهرجان في منتصف الليل، من باب في آخر الحديقة؟ حقًّا، هل تتخيّله يصل حاملًا حقيبته الطبيّة، على رغم وجود رجال الشرطة لمراقبة المكان؟

– كان يمكنه أن يستقبلك سرًّا في عيادته.

– لا، كان قد أقفل عيادته، وباع أثاثه ومعدّاته.

– هل لجأت إلى طبيب آخر، إذًا؟

نظر إليّ الأرمنيّ بسخرية. لكنّني أصرّيت:

– ولكن يا سيّد مالوميان، أنت نفسك مَن أذعت خبر الخدعة، وكشفت عن وجود جصّ ثالث في رسالتك إلى المحافظ، بعد وصولك إلى أوروبا.

لزم الصمت لبرهة، مسرورًا بارتباكي. كانت دوائر دخانه تثير توتّري. أخيرًا، قال لي:

– ضع نفسك محلّي. كنت ساخطًا جدًّا بسبب طردي من ناري، وبسبب احتجازي فيها يوم رحيلي. ظنّوني غشّاشا. تركوني أنتظر ساعات، فكّوا الجصّ ثمّ أعادوه إلى ذراعي، ولم يكن ذلك ضروريًّا. تحرّقت شوقًا إلى الانتقام. رسالة واحدة كانت كافية، فقد جعلت المحافظ يصدّق أمر جريمة لم أرتكبها.

وقد وقع ذلك المغفّل في الشرك.

إلتمع شعاع ضوء على خاتمه المتوهّج. حين سألته ما الخطّة الأخرى التي استطاع بها تهريب ماساته، تملّص من السؤال وقال لي:

– أرِني المستندات التي أحضرتها.

كنت قد جمعتُ في ملفّ كبير ذي حاشية قابلة للطيّ بعض المستندات القديمة التي لا قيمة لها: دفتر حسابات، خرائط لتعديل الشرفة الكبيرة، ولوائح طعام خاصّة بالمطعم... فقلّبها بلا مبالاة.

– أهذا كلّ ما لديك؟ سألني مغتاظًا. ألم تعثر بالصدفة على السجلّ الذهبيّ الأوّل لمهرجان؟

– لا! أجبته بملامح تنمّ عن الأسف.

وما الذي يمنعني من الكذب على هذا الكاذب؟

نهض بعدما نظر إلى ساعته، معلنًا انتهاء لقائنا.

– سأرافقك. المخرج من هنا.

رأيت السيّدة مالوميان في المدخل وهي توقّع إيصال استلام لأحد المورِّدين. ما من شكّ بأنّها تغيّرت كثيرًا منذ تلك الحقبة حين كانت تثير جنوننا ومنذ أن فاز دودي الوقح بملامسة صدرها المثير. لقد فقدت كلّ جاذبيّة.

46

إستبدّت بي لسنوات طوال، الرغبة في أن أخنق المسافرين الغربيّين الذين يعودون من ناري ليتحدّثوا عنها بكثير من التأثّر. كانوا يقولون إنّها مدينة ساحرة، جذّابة، لا مثيل لها... وكأنّ ناري لا تزال موجودة! كنت أشكّ في أنّهم يكذبون لإخفاء ارتباكهم: بدلًا من الاعتراف بخيبتهم، يحافظون على الأسطورة. لا ريب في أنّهم بحثوا يائسين في ناري عمّا كانوا يقرأونه في الكتب السياحيّة.

وما عساهم يجدون؟ لا يأتي سحر ناري قطّ من هندستها المعماريّة ولا من مناظرها الطبيعيّة. إنّها مدينة سهليّة، لا تضاريس فيها، بخلاف المدن الأخرى التي تتموّج تلالها على شواطئ البحر الأبيض المتوسّط. لا شكّ بأنّ أبنيتها الإيطاليّة الطراز تتناغم مع تلك العائدة إلى العهد العثمانيّ. لكنّ ذلك ليس بالأمر الفريد. حتّى أهمية فندق مهرجان لم تأتِ إلّا من روّاده.

ظنّ بعض الأصدقاء أنّهم سيُسعدونني بدعوتي ذات مساء إلى العشاء مع زوجين عائدين من ناري. بعدما أضجرنا الباريسيّان، حتّى ساعة الحلوى، بأخبار رحلتهما، أرادا أن يعرضا شريط فيديو صُوّر هناك ومدّته ربع الساعة. أُطفئت الأنوار، وبدأ العذاب. كان عليّ أن أغمض عينيّ كما أمام مشهد عنيف جدًّا من فيلم ممنوع على مَن هم دون الثانية عشرة. لكنّ تلك الصور القاتلة شلّت حركتي تمامًا.

كان السينمائيّ الهاوي يروي:

– هذه هي القلعة العربيّة، التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر.

كدت لا أعرف الحصن بأبراجه الجديدة. هل جرى ترميمه بموادّ بلاستيكيّة؟ أتذكّر جدرانه نصف المتهدّمة المختلطة بالصخور الملساء، لشدّة ما ارتطمت بها الأمواج، وتوارت تحت طبقة من الطحالب. موعدي الأوّل مع لميا...

– وهذه واجهة مركز المحافظة. إنّه مبنى جميل قريب من الشاطئ، ولا بدّ من أنّ بناءه يعود إلى بداية القرن العشرين. لم نستطع الدخول إليه لأنّ الزيارات ممنوعة.

مركز المحافظة!

– أنظروا، نرى إلى اليسار جزءًا من الشاطئ، قال صاحب الفيلم وهو يلتفت نحوي. لا شكّ بأنّ بعض مكاتب هذا المبنى الموجود في الجهة المقابلة، تطلّ على البحر. قيل لنا إنّه فندق قديم. إنّه حقًّا فندق قديم، أليس كذلك؟

أجبته بإيماءة من رأسي. فقد أبت الكلمات أن تتجاوز حلقي.

في إحدى رسائله، كتب خالي حبيب:

لم يبقَ من فندق مهرجان السابق، والذي أصبح مركزًا للمحافظة، سوى المبنى نفسه، تحيط به قطعة أرض صغيرة حُوِّلت موقفًا للسيّارات. إشترى أحد المتعهّدين العقاريّين حديقة الفندق بمبلغ خياليّ – يقدّر بعشرة ملايين جنيه – انتهى ربعه في جيب المحافظ. لكنّ المبنيين قيد الإنجاز، والبالغ ارتفاع كلّ منهما خمسة وعشرين طابقًا، سيعوّضان هذا المستثمر ما دفعه للمحافظ، أضعافًا مضاعفة.

فوق مركز المحافظة يرفرف علم البلاد الذي أنهكه الهواء ورذاذ الماء. لقد أعيد دهن مصاريع الأبواب والنوافذ بلون رماديّ غامق يستحيل مع مغيب الشمس شبيهًا بلون الشوكولاته. كان بوسع أولئك السادة أن يهدموا كلّ ما في داخل المبنى ويعيدوا هندسته، لكنّهم آثروا المحافظة عليه كما هو. لا باسم الدفاع عن التراث – فهم لا يبالون بالتراث! – بل كسلًا وتراخيًا.

وبعد أسابيع قليلة، أوضح لي خالي حبيب في رسالة جديدة:

إختفى القسم الأكبر من الأثاث. بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة على إقفال الفندق، أتت شاحنات الجيش والشرطة لشحن الأسرّة والخزائن والمقاعد، وحتّى مغاطس الحمّامات... لكنّ المحافظ سبقهم إلى مصادرة بعض القطع الجميلة فخصّصها لمكتبه.

في البهو القديم، يجد الجمهور في استقباله (إذا جاز التعبير) ستّة أو سبعة حجّاب متعجرفين، يجلسون خلف طاولة طويلة. دورهم الأساسيّ إرشاد الزائرين إلى الصالون الإنكليزيّ السابق، الذي حُوّل إلى قاعة انتظار، والذي لم يبقَ منه سوى الأرضيّة وخشب الجدران. المهمّ أنّه بقي يطلّ على البحر. لكن، بعد ساعة أو اثنتين، واقتناعًا منهم بأنّ الموظّفين قد نسوا أمرهم، يستفيد الناس من جلبة البهو ليغافلوا الحجّاب ويصعدوا إلى الطوابق بحثًا عن المكتب الذي يقصدون. حينها، تتشكّل صفوف طويلة وغير منظّمة. لكلّ شخص سبب وجيه للدخول أوّلًا.

إتّخذ المحافظ لنفسه جناحين قديمين متلاصقين من الطابق الثاني. مكتبه الواسع مليء بالزوّار الذين يحتسون القهوة على مدار الساعة. يتنوّعون بين طالبي خدمات لجوجين، ومورِّدين، ومخبرين، وشركاء في صفقات مختلفة... أُحضرت المقاعد والأرائك من الصالون الإنكليزيّ إلى هذا المكان حيث اختلطت بخزائن حديديّة رماديّة بشعة. أمّا الساعة الشهيرة المصنوعة من البرونز المشغول، والتي لا تدقّ إلّا عند انتصاف الساعة، فلا شكّ بأنّها سقطت أثناء نقلها. يبدو أنّها لم تعد تدقّ أبدًا. على الجدران لا نرى سوى لوحات بالخطّ العربيّ لسور القرآن، ما يذكّر بالتقوى الكبيرة التي يتحلّى بها صاحب السعادة. في منتصف القاعة، على «طاولة المراسلة» المصنوعة من خشب الكرز البرّي، احتلّ محلّ سجلّ الفندق الذهبيّ، قرآن مُزخرف.

ساعة الصلاة، لا مجال للتحرّك في المبنى. فالأروقة كلّها تمتلئ بالموظّفين الساجدين أرضًا. خُصِّصت لوضوئهم الحمّامات التي لم يتمّ تحويلها إلى مكاتب.

حين يصل المحافظ قرابة الحادية عشرة صباحًا، يحيط به حرّاسه الشخصيّون ونحو ستّة من معاونيه المتذلّلين، يتمّ إخلاء نصف البهو تقريبًا للسماح له بالمرور. منذ أيّام قليلة، تجمّد المصعد به بين طابقين، ما سبّب حالًا من الهلع. إقتضى إصلاح العطل ثلاثة أرباع الساعة، وسط فوضى عارمة. حتّى الطهاة أتوا لإبداء الرأي في طريقة تصليحه. واضطرّ المحافظ إلى الصعود على كرسيّ خفيض للخروج من حجرة المصعد. كان يستشيط غضبًا. وأُفرغت بعض المناصب.

أطلق خالي حبيب العنان لريشته، وقد بات متأكّدًا من أنّ السلطات توقّفت تمامًا عن مراقبة الرسائل:

إذا كان حاكم المنطقة قد استطاع البقاء في منصبه كلّ هذه السنوات، فذلك لأنّه لم يغشّ رئيس البلاد قطّ. كلّما تلقّى رشوة أو عمولة مهمّة – سواء أكان ذلك لدخول بضائع عبر المرفأ، أو لأنشطة صناعيّة، أو لرخص البناء الكبرى – كان يدفع منها حصّة سخيّة إلى رئاسة الجمهوريّة. يعود الفضل في بقائه أيضًا إلى اتّباعه الحرفيّ لتعليمات سياسات السلطة المركزيّة المتعاقبة. في البداية كان مدافعًا شرسًا عن اشتراكيّة الدولة، ثمّ أصبح داعية صادقًا للّيبراليّة الاقتصاديّة. إذا تمكّن الإسلاميّون في أحد الأيّام من تولّي إدارة البلاد – لا سمح الله – فسيتحوّل بسهولة تامّة إلى فرض الحجاب الكامل وتطبيق مبدأ القروض بدون فوائد. أمّا في الوقت الراهن، فهو بارع في استعمال سياسة الترهيب والترغيب مع الملتحين الإسلاميّين. يضطهدهم أو يدلّلهم، بحسب الأوامر التي ترده من السلطات العليا. إنّها استراتيجيّة دقيقة جدًّا، حتّى ولو بدت متناقضة. يجب أن يتمّ تحويل أولئك المطالبين بالدولة الدينيّة إلى فزّاعة، وفي الوقت عينه، إلى القوّة الوحيدة البديلة عن السلطة الحاكمة. فلا يجب أن يبصر أيّ حزب ديمقراطيّ النور. إذ يقول المحافظ: «إمّا نحن أو الملتحون».

كما تلقّيت رسالة أخرى من خالي حبيب، جعلت دموعي تنهمر:

أبو عمر، سائق مهرجان القديم، رقد بسلام عن ستّة وتسعين عامًا. رحمه الله! لدى الخروج من المسجد لتشييعه، أتى إليّ أحمد الغزّال وارتمى بين ذراعيّ معانقًا. سألني، كما في كلّ مرّة، عن أخبار أفراد العائلة. توسّعت مؤسّسة تجارة المشروبات خاصّته مجدَّدا، وباتت تضمّ عشرة موظّفين. تعلو مدخلها صورة كبيرة للوقا.

47

بدت ناري في منأى عن أعمال الشغب التي طالت العاصمة كما عدّة مدن كبيرة أخرى من البلاد، في يناير من العام 2011. فضلًا عن أنّ أيّة محطّة تلفزيونيّة لم تفكّر في إرسال فريقها إلى هناك. في الواقع، لم تُعرَض المشاهد إلّا بعد أربع وعشرين ساعة، والدخان لا يزال يتصاعد من أنقاض مركز المحافظة.

هاجمت المركز أعداد كبيرة من المعارضين المسلّحين بالقضبان الحديديّة وقنابل المولوتوف، ولم يواجهوا أيّة صعوبة في جعل الحرّاس يفرّون. ثمّ اندفعوا إلى داخل المبنى فحطّموا المكاتب وألقوا بمحتويات الملفّات عبر النوافذ. شوهد سارقون يفرّون محمّلين بأجهزة الكومبيوتر وأشياء أخرى. كما راح آخرون يجرّون خلفهم أكياس خيش كبيرة أتوا بها مسبقًا استعدادًا لجمع غنيمة هذه الغزوة.

كان مركز المحافظة يمثّل بالنسبة إلى المهاجمين، ومعظمهم من الشباب، مصدر كلّ ما يشعرون به من إحباط. لا وظائف ولا مساكن، أي لا زواج في المدى المنظور، في مجتمع حيث الفتيات ملزمات بالحفاظ على بكارتهنّ. إنتقموا من كلّ إذلال عانوه في خلال الخدمة العسكريّة، أو في مراكز الشرطة. لا بدّ من أنّ معظمهم كان يجهل أنّ المبنى الأبيض الذي يهاجمونه، كان في الماضي فندقًا رائعًا.

عند نحو التاسعة مساءً، أُضرِمت النار في الطابق الأرضيّ من القسم الأيسر. أظهر شريط فيديو التقطه أحد الهواة، انتشار ألسنة النيران سريعًا في الطوابق. وصلت عدّة شاحنات إطفاء إلى محيط مركز المحافظة، غير أنّ أرتال السيّارات المقلوبة عمدًا أعاقت تقدّمها. أخيرًا، حين انطلقت المياه لإخماد النيران، أوقفها بعض المتظاهرين الذين راحوا يقصّون الخراطيم.

في شريط فيديو آخر، شوهد الجزء الأوسط من المبنى يحترق بدوره في حين تطاير الشرر من النوافذ في الظلام. ثمّ هبّ هواء البحر، وكأنّما لإتمام العمل. أتخيّل أنّ طرف القسم الأيمن، حيث كانت غرفة نيسا ليفي-حنّور، هو ما دُمّر في النهاية.

لم يبقَ ممّا كان في الماضي فندق مهرجان سوى كتل متفحّمة، وخلفها البحر الذي لم يفقد شيئًا من جماله. لا شكّ بأنّ الجرّافات لن تلبث أن تأتي لتبدأ العمل وتسوّي الركام بالأرض. حتّى شجرة الجمّيز العتيقة ذات الأغصان الداكنة والضخمة العقد، والشاهدة على كثير من لحظات الحبّ الرقيقة، ستزول بدورها. هذا أحسن. أفضّل أن يُمحى مهرجان تمامًا على أن يتعرّض للتشويه والخيانة.

كتب لي خالي حبيب في إحدى رسائله: «تعهّدت الحكومة الجديدة التي ألّفها العسكريّون بوضع حدّ للفساد، ما أثار سخرية الجميع». كانت كتابته المرتجفة تُظهر كم بلغت به الشيخوخة. ماتت زوجته منذ عدّة سنوات، فتقرّب من عمّاتي اللواتي بتن ثلاثًا فقط، بعد وفاة مريم. بين منفى البعض ووفاة البعض الآخر، لم يبقَ في ناري أشخاص كثيرون. يقول حبيب في رسالته أيضًا: «تراجع عدد أبناء طائفتنا كثيرًا، فيما يرتفع عدد سكّان المدينة سنة بعد سنة، بفعل التزايد السكّانيّ الكبير ونزوح أبناء الريف. كما امتدّت الأبنية المشيّدة على شاطئ البحر مسافة كيلومترات». بات أرشمندريت جديد يحتفل بالقدّاس كلّ يوم أحد، لحفنة قليلة من الباقين على قيد الحياة. إلى هؤلاء، يعود الفضل في صيانة مدافن العائلة التي لم تنل من التخريب ما نالته مدافن اليهود.

أوضح خالي حبيب أنّ السلطات الجديدة أوقفت عددًا من كبار الفاسدين، بانتظار محاكمتهم، ومنهم المحافظ، الذي سرعان ما انضمّ إليه ابنه باسم، خلف القضبان. كلاهما مسجون في القسم المسمّى «قسم الشخصيّات»، فيما يعاني نسيبنا البائس دودي وسجناء الحقّ العامّ الآخرون، ظروف اعتقال مخيفة. لا

يسعني سوى التفكير فيه والتأسّف لحاله. أمّا المدعوّ عزّ الدين، والذي مارس لفترة قصيرة وظيفة مدير مهرجان قبل أن يستعيد دور الموجِّه الخفيّ لقرارات المحافظ، فقد لاذ بالفرار وصدرت بحقّه مذكّرة توقيف دوليّة. لا أزال على قناعة بأنّه متورّط بشكل أو بآخر، في جريمة قتل لوقا، ولو بمجرّد حقن أدمغة بعض المجانين الناقمين، بالتعصّب الدينيّ.

48

في ربيع العام 1970، وبعد أيّام قليلة من لقائي السيّد مالوميان في نويي، قصدت صائغًا باريسيًّا في ساحة الأوبرا، وأعطيته القرط الذي وجدته في غرفة نيسا.

– إنّها لؤلؤة أكويا يابانيّة، همس لي وهو يتفحصّها بالمجهر. أرقّ اللآلئ وأنعمها... تبدو لي استدارتها كاملة. لا أرى سوى عيب واحد على ظاهرها.

– عيب؟

– عيب صغير جدًّا. اللؤلؤ المستخرج من مزارع التربية لا يخضع للصقل في المصانع. حتّى أثمنه قد يحتوي على جسم غريب. لكنّ المهمّ هو جلاء الحبّة ولمعانها. أيمكنك أن تريني القرط الثاني؟

حين علم بأنّني لا أملك القرط الثاني، دُهش، ثمّ قال لي وهو يرفع كتفيه باستسلام:

– هذا مؤسف، كنت لأدفع لك سعرًا جيِّدا مقابل الاثنين، أمّا الآن...

أخذت منه القرط لأعيده إلى العلبة الصغيرة التي اشتريتها. هل فكُّرت يومًا في بيعه؟ لا. أردت فقط أن أتأكّد من أنّ تلك اللؤلؤة تستحقّ المرأة التي حملتْها. لا شكّ بأنّ لوقا الذي لم يكن ثريًّا في عامه الحادي والعشرين، قد قام بعمل جنونيّ.

كنت قد نذرت أمام «نجمة الحاكم» أن أعيد تلك الجوهرة إلى صاحبتها، يدًا بيد. لكن، أين هي؟ قيل إنّ الزوجين ليفي-حنّور، وبعد فترة قصيرة من طردهما من ناري، قد افتتحا فندقًا في جنيف، بفضل المال الذي استطاعا تحويله إلى سويسرا في حقبة ازدهار الفندق.

لكنّني يوم أردتُ الاتّصال بهما، بحثت عبثًا عن عنوانهما. كان ذلك في بداية سبعينات القرن الماضي. لم تتوفّر حينذاك، كما هي الحال اليوم، الوسائل لمعرفة كلّ المعلومات بمجرّد الضغط على لوحة مفاتيح.

لكنّ صدفة غير متوقّعة في أحد نوادي الجاز في بروكسل، شارع بوتي بوشيه، وضعتني على دربهما. على مسرح ذلك النادي تعرُّفت على شلومو، عازف البيانو القديم في مهرجان. شيء في نظرته الساهية لم يتبدّل، لكنّه فقد قسمًا من شعره. في ختام عزفه، عرّفته بنفسي، موضحًا له أنّني ابن شقيقة لوقا. تفرّس في وجهي بكثير من التأثّر، ثمّ اقترح عليّ الذهاب لشرب الجعة في مقهى قريب.

تحادثنا حتّى الأولى بعد منتصف الليل، وسألته عن أخبار هرّه.

– آه! هل كنت تعرف بيتهوفن؟ لم أعرف يومًا لماذا كان بثلاث قوائم فقط... نجح في اللحاق بي إلى المركب، لكنّه لم يتحمّل المنفى. مات بعد ثلاثة أيّام من وصولنا إلى مرسيليا. مسكين بيتهوفن... للمناسبة، ماذا حلّ ببيانو ال-«بلاييل» الذي كان في مهرجان؟

– باعه مالوميان إلى سعد عبد الحميد السيّد.

لم يعنِ الاسم لشلومو على الإطلاق. فأكّدت له أنّ البيانو بين أيدٍ أمينة، قبل أن أروي له كيف فاز لوقا بإعجاب سليل النبيّ، بفضل مسألة البوربون.

نهض شلومو ليطلب كوبًا آخر، أو ليخفي عينيه اللتين اغرورقتا بالدمع. ثمّ قال هامسًا:

– مسكين لوقا، ومسكينة ناري! ما أصبحت عليه تلك المدينة – أو ما سمعت عنها، لأنّني لم أعُد

إليها قطّ ولن أعود إليها أبدًا – يدمي قلبي. ناري لم تفقد شكلها الخارجيّ فقط، بل فقدت روحها. هي التي كانت تُدعى باريس الصغيرة... أنت حديث السنّ، ولا يمكنك أن تتخيّل. المدينة والتي ظلّت رائعة حين عرفتَها في طفولتك، لا يمكن مقارنتها قطّ بالجنّة التي عشنا فيها في الثلاثينات والأربعينات. كنّا بعيدين عن وقع الجزام العسكريّة والفظائع التي مرّت بها أوروبا آنذاك. كنّا، يهودًا ومسيحيّين ومسلمين، أصدقاء ومتشابهين. أو نكاد أن نكون... كانت ثمّة خطوط يجب عدم تجاوزها، وهذا كلّ شيء.

أخبرني شلومو بأنّ فندق الزوجين ليفي-حنّور لم يكن في جنيف، بل في مكان يبعد عشرين كيلومترًا عن لوزان، على ضفّة بحيرة ليمان. عثرت على رقم هاتف الفندق، واتّصلت به من باريس، طالبًا التحدّث إلى السيّد حاييم ليفي-حنّور، موضحًا أنّ المسألة شخصيّة. مرّت فترة من الصمت قبل أن يقول لي صوت رجل مكسور بعض الشيء، وفيه شيء من لهجة ناري:

– السيّد ليفي-حنّور توفّي منذ عدّة سنوات.

إرتبكت واعتذرت منه بكلمات خرقاء.

– ألعلّك تودّ التكلّم إلى السيّدة ليفي-حنّور؟ سألني محادثي بأدب.

ثمّ رجاني أن أنتظر. سمحت لي دقيقتا الانتظار باستعادة هدوئي.

– آلو؟ مع من لي شرف الحديث؟

كانت لفظة «آلو» تلك، والتي قيلت بصوت رخيم وعذب، كافية وحدها لتغمرني بالسرور.

– عذرًا على إزعاجك يا سيّدتي، أجبتها بسرعة. إسمي لن يعني لك شيئًا. أنا من ناري، وابن شقيقة لوقا. لديّ شيء صغير أعطيك إيّاه، وهو يخصّك. يمكنني الحضور من باريس حين تريدين. حتّى في الغد، إذا كان هذا ليناسبك...

مرّت ثلاث ثوانٍ من الصمت، أو ربّما أربع.

– ليكن ذلك غدًا، إذًا. أنصحك بأن تركب قطار الثانية والعشر دقائق، فهو الأسرع. سينتظرك سائق في محطّة لوزان.

لم يكن ال-«ريجان» فندقًا فخمًا، بل مؤسّسة أنيقة من فئة الثلاث نجوم، ذات جدران بيضاء، ومصاريع بلون أزرق الخزامى، تطلّ واجهتها على البحيرة. لدى ترجّلي من السيّارة، رحّبت بي زقزقة جوقة من عصافير الدوري مختبئة بين أغصان شجرة كرز مزهرة.

– السيّدة تنتظرك على الشرفة، قال لي السائق، وقادني إلى هناك مباشرةً، من دون المرور بمكتب الاستقبال.

كانت الشمس مشرقة. وضعت نيسا ليفي-حنّور فنجان الشاي من يدها، ونهضت من مقعدها المصنوع من نخيل الهند لملاقاتي. كانت ترتدي سروالًا أخضر وكنزة بسيطة ذات قبّة مفتوحة بشكل «V»، بلون القشّ، تُبرز بشرتها السمراء. لقد حافظت نيسا التي تجاوزت عامها الخمسين، على نحافتها. كان وجهها خاليًا من أيّ تبرّج، بل كادت تبدو كفتاة صغيرة. في الحال وقعتُ – أو بالأحرى عدتُ للوقوع – تحت سحر هذه المرأة التي لها على الأرجح عمر أمّي.

سألتني عمّا إذا كانت رحلتي موفّقة وساهمت نظرتها الرقيقة في تبديد خوفي. إقترب منّي خادم ليسألني عمّا أريد.

– هكذا إذًا، قالت لي، أنت ابن شقيقة لوقا. صحيح أنّ بينكما تشابهًا. لديك عيناه، وفمه أيضًا...

هل كانت على علم بما حلّ به؟ لم أجرؤ على الحديث في الأمر، لكنّها سبقتني:

– كن لطيفًا. لا تخبرني شيئًا عن ظروف موته. أفضّل ألّا أعرف.

فتحتُ كيس السفر الخاصّ بي محاولًا أن أخفي انفعالي.

– أحضرتُ لكِ هذا، قلت لها. لا بدّ من أنّك فقدته في خلال رحيلك عن ناري.

أخذت بيديها الاثنتين العلبة الصغيرة لفتحها. حين رأت القرط، تجمّدت. ثمّ اغرورقت عيناها بالدمع.

– أعذرني، قالت هامسة، لكنّنني بحثت كثيرًا عن هذا القرط بعد رحيلي عن ناري! إسمح لي بتقبيلك.

بغير أن تنتظر جوابي، مالت نحوي وقبّلتني على الخدّين. غلبني التأثّر، وأعدت يدي إلى كيس السفر لأخرج منه الكتاب المغلّف بالجلد الأخضر:

– إنّه السجلّ الذهبيّ الأوّل لفندق مهرجان. أظنّه يخصّك.

– أيضًا؟...

لم تستغرق نيسا وقتًا طويلًا وهي تقلّب صفحات السجلّ باسمةً. ثمّ وضعته على الطاولة الخفيضة أمامها، أخذت علبة الحليّ وفتحتها مجدَّدا للنظر إلى القرط بعينَي امرأة عاشقة.

– لا شكّ بأنّك مشغولة، قلت لها. لن أزعجك أكثر. كما أنّ لديّ قطارًا أستقلّه.

– لن تعود إلى باريس هذا المساء!

– لكنَّ عملي...

– يمكنه الانتظار.

لم أستطع سوى أن أقول هامسًا:

– صحيح. يمكنه الانتظار.

عبر الشرفة، أومأت نيسا بحركة صغيرة إلى رجل عجوز، يرتدي بزّة رماديّة، كان يقف عند مكتب الاستقبال. فترك مكتبه واقترب منّا.

– من فضلك يا أليكس، أيمكنك أن تطلب من راشيل إعداد غرفة لصديقنا؟

– تمّ الأمر يا سيّدتي، قال الرجل العجوز بلكنة ناري.

تعرُّفت بكثير من التأثّر على موظّف الاستقبال في مهرجان، الذي شاهدته على رصيف المرفأ، يوم رحيله عن ناري. إذًا هو الذي أجابني بالهاتف.

كانت غرفتي تطلّ على البحيرة. غرفة جميلة بألوان رقيقة، بدا أنّ حمّامها نُظِّف طوال ساعات. من شرفتها الملأى بالزهور، رحت أتأمّل السماء المرصّعة بالنجوم.

راشيل، مدبّرة ال-«ريجان»، لم تتغيّر قطّ. وحدها خطوط الشيب التي غزت شعرها باتت تلطّف قليلًا من قسوة ملامحها. لكنّها بقيت تدير عالمها بالحزم عينه الذي كانت تدير به مهرجان.

كان العشاء الذي جمعنا نيسا وأنا، وحدنا، عيدًا. وضعتْ خلاله القرطين الأبيضين. بحركة صغيرة من يدها طلبت الشمبانيا. تحادثنا في أمور شتّى. أخبرتني بأنّ ابنها أرييل قد اختار مهنة الصياغة على غرار أجدادهم منذ جيلين. أمّا دافيد فنال إجازة من المدرسة الفندقيّة في لوزان، وهو يعمل حاليًّا لدى فندق فخم في جنيف، بانتظار أن يتولّى إدارة ال-«ريجان» ذات يوم.

قلت لها إنّني أرغب في كتابة تاريخ مهرجان.

– لِمَ لا؟ همست فيما راحت تفكّر. لكنّني غير أكيدة من أنّ الموضوع سيثير اهتمام الكثيرين. ربّما بعض الزبائن القدامى... على مرّ السنوات، زار الفندق أشخاص مميّزون. هل تعرف أنّ رجلًا برتغاليًّا اختار مهرجان مكان إقامة دائمة له؟

أخبرتُها بوفاة السيّد كرافيلو، بعد أسابيع قليلة من موت لوقا. وكأنّما لم يتحمّل العجوز تغييرًا جديدًا في إدارة مهرجان.

بمساعدة الشمبانيا، تحوّلت محادثتنا إلى أمور أقلّ وطأة. أضحكتُ نيسا كثيرًا برواية اختراع مشروب نياغارا بنكهة البطّيخ، وبتعليقات لوقا حول الجاسوس ماتا هاريان. لكنّني امتنعت عن إخبارها بالرأي التافه الذي يتمسّك به – أو يتظاهر أنّه يتمسّك به – حيال مواهب حاييم ليفي-حنّور في إدارة الفنادق.

كنت أتحرَّق لطرح سؤال وهو يتعلّق برواية «ناريبوليس». هل قرأت نيسا كتاب فورينبيك؟

– نعم، طبعًا، شأن الجميع... لا يمكنني القول إنّ تلك الرواية سحرتني. لكنّه عمل عظيم بلا شكّ. إكتشفت فيه نواحي من ناري كنت أجهلها تمامًا.

– هل وجدتِ نفسك في الرواية؟

لم تكن تتوقّع السؤال الذي فاجأها بقدر ما باغتني، فتريّثتْ قليلًا في الإجابة.

– في أيّة شخصيّة قد أجد نفسي؟

– صموئيل، مثلًا...

– إنّه رجل.

– وحنان؟

– إنّها مسلمة.

ثمّ أجابت وفي صوتها ارتعاشة:

– لم يكن بوسعي أن أجد نفسي في تينك الشخصيّتين الخياليّتين. لكن، فلنقل إنّني في قراءتي الأولى لرواية «ناريبوليس» – لأنّني قرأتها خمس أو ستّ مرّات منذ صدورها – تماهيت بصموئيل، كما بحنان.

بعينين دامعتين، ولكن بابتسامة، وضعت يدها السمراء الجميلة على يدي. أو بالأحرى على يد لوقا. في تلك اللحظة، عادت إلى العام 1936، وأنا معها...

أحسستُ بالفرح وكأنّ ثقلًا أزيح عن كاهلي. تبدّد الشعور بالذنب الذي حملته معي منذ رحيلي عن ناري، والذي لطالما استغربتُه. حرّرتني نيسا منه، تمامًا مثلما حرّرني لوقا من تأتأتي، وأنا في عامي الخامس عشر.

غادر آخر الزبائن المطعم. نهضنا عن المائدة بدورنا. تمنّت لي نيسا ليلة طيّبة، قبل أن تستودع السيّد أليكس في مكتبه، حيث كان ينتهي من ترتيب بعض الأوراق.

صعدتُ إلى غرفتي، على يقين من أنّه لن يغمض لي جفن. كانت بعض الأنوار تتلألأ عند ضفّة البحيرة. بدت لي تلك المساحة الواسعة المظلمة أكثر هدوءًا وأقلّ رهبةً من البحر. غير أنّ شيئًا ما لم أستطع تحديده، كان ينقصها: غليان... أو زبد ربّما... أو حماسة الطفولة المتّقدة.

كان عليّ أن أعود إلى باريس في الصباح الباكر. كانت نيسا قد نهضت. قبل أن تقبّلني وتحصل منّي على وعد بالعودة، قالت لي:

– شكرًا على السجلّ الذهبيّ. كنت أودّ حقًّا أن أقدّم إليك الصفحة الناقصة، التي تحتوي رسم بيكاسو. لكنّنا اكتشفنا بعد وفاة أبي أنّها مفقودة. لا بدّ من أنّ شخصًا ما يفتقر إلى اللياقة قد نزعها وأخذها، مَن يعرف متى... نعم، كنت أودّ أن أقدّم لك ذلك الرسم، تذكارًا للوقا. لكن، بما أنّني عاجزة عن تقديم هديّة لك، سأعيرك هذا الغرض: أئتمنك على هذه المفكّرة الزغبيّة الزرقاء، والعزيزة جدًّا على قلبي. لا شكّ بأنّ محتواها سيثير اهتمامك.

أضافت، من دون أن تنتبه إلى زلّة لسان تحفُّظت عن لفت انتباهها إليها:

– ستعيدها إليّ متى زرتني ثانيةً هنا في مهرجان.

كانت شمس ساطعة جميلة تنير بحيرة ليمان. تلك البحيرة المالسة تشبه بحر ناري في صفوه. على متن السيّارة التي كانت تقودني إلى المحطّة، اشتقتُ إلى ال-«ريجان»، إلى واجهته البيضاء ومصاريعه الزرقاء. كنت على يقين من أنّني سأعود.